

الدكتور
عبد مرعي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ - جامعة دمشق

الدكتور
فيصل عبد الله

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ - جامعة دمشق



المدخل إلى تاريخ الحضارة





المحتوى

الصفحة

٧	١ - الفصل الأول : الحضارة وشروطها ومظاهرها
٢٧	٢ - الفصل الثاني : فجر الحضارة
	اللامع المشتركة في حضارات المشرق العربي القديم
٥٧	٣ - الفصل الثالث : الدولة والحكم
٧٨	٤ - الفصل الرابع : الحرب
١٠٥	٥ - الفصل الخامس : الحياة الدينية
١٢١	٦ - الفصل السادس : الاقتصاد والمجتمع
١٣٤	٧ - الفصل السابع : الحضارة الحثية
١٥٢	٨ - الفصل الثامن : الحضارة الإيرانية
	حضارات الشرق الأقصى
١٦٠	٩ - الفصل التاسع : الحضارة الهندية
١٧٨	١٠ - الفصل العاشر : الحضارة الصينية
١٩٧	١١ - الفصل الحادي عشر : حضارات جنوب شرق آسيا
٢٠٠	١٢ - الفصل الثاني عشر : معالم حضارات أفريقية وشعوبها
٢٠٦	١٣ - الفصل الثالث عشر : معالم حضارات أمريكا القديمة
٢١٤	نماذج من مصادر تاريخية
٢٣٥	مراجع الكتاب



مقدمة

يبحث هذا الكتاب في نشأة الحضارة وتطورها ومظاهرها المختلفة والعوامل المؤثرة فيها والإنجازات الحضارية التي تمت في مختلف بقاع العالم في العصور القديمة . ويسلط الضوء بخاصة على حضارة المشرق العربي القديم من خلال معالجة بعض الأفكار الأساسية كالنولة والحكم والحرب والدين مع الإشارة إلى الجوانب الحضارية الأخرى . ثم ينتقل للحديث عن حضارات العالم الأخرى التي نشأت في آسيا الصغرى وإيران والهند والصين وأمريكا وأفريقية ، حيث حقق الإنسان تقدما حضاريا في ميادين شتى .

فالإنسان حيثما وجد حقق إنجازات حضارية وكان له دور في التقدم البشري قد يكبر أو يصغر حسب الزمان والكان والامكانات المتوافرة . فالحضارة في مجملها عمل ساهم في تحقيقه مختلف الشعوب حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم .

لقد تقاسم المؤلفان العمل في هذا الكتاب فكتب الدكتور فيصل عبد الله الفصول الثاني والثالث والرابع وكتب الدكتور عيسد مرعي بقية الفصول .

د. فيصل عبد الله و د. عيسد مرعي



الفصل الأول

الحضارة وشروطها ومظاهرها

تعريف الحضارة :

الحضارة تعني لغويا الإقامة في الحَضَر ، والحَضَر والحَضْرَة والحَضْرَة :
خلاف البادية ، وهي المدن والقرى والارياف ، سميت بذلك لأن أهلها حَضَرُوا
الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار . والحاضر خلاف البادي أي المقيم
بالبادية ، وهو المقيم في المدن والقرى .

أما في اللغات الأوروبية المشتقة من اللاتينية أو التي لها علاقة معها فنجد أن
كلمة حضارة Civilisation مشتقة من الكلمة اللاتينية Civitas مدينة - دولة .

يتضح لنا من ذلك أن كلمة حضارة تدل من الناحية اللغوية على حياة الاستقرار
والإقامة الدائمة سواء أكان ذلك في القرى أم في المدن .

ولكن الحضارة بمعناها الواسع تشمل النظم السياسية والاجتماعية
والاقتصادية والفكرية للمجتمع الحضري أي كل ما يتعلق بنواحي الحياة وتطورها
وازدهارها . فالحضارة هي ذلك التركيب الذي يشمل المعرفة والاعتقاد والادب
والاخلاق والحقوق والعادات والقدرات الأخرى والعادات المكتسبة من قبل الإنسان
كمضو في المجتمع .

من المعروف أن الإنسان استقر أولا في مستوطنات وقرى صغيرة ومع الزمن

تطورت هذه المستوطنات والقرى الى مدن * وتتجمع في المدن عادة امكانيات وقدرات لا تتجمع في القرى مثل الصناعات والاختراعات والنشاطات الفكرية . وبذلك نصل الى مفهوم المدنية Urbanisation المشتق لغويا من المدينة (Urbs) والذي يدل على نوع راقٍ من حياة الاستقرار والتحضر . فالحضارة التي تبدأ في القرى تنمو وتزدهر في المدن حيث المجال أوسع وأرحب .

وهناك مفهوم ثالث مرتبط بمعنى الحضارة والمدنية ألا وهو مفهوم الثقافة . فالثقافة مشتقة من الفعل الثلاثي تَقَفَّ ، وتَقَفَّ الشيء تَقَفًّا وثَقَافًا وثَقُوفَةً : حَذَقَهُ . ورجل تَقَفٍّ وتَقَفٍّ وتَقَفٍّ : حَازِقٌ فَهِمٌ .

وتعني كلمة ثقافة في اللغة اللاتينية وفي اللغات الاوروبية الحديثة الزراعة بالإضافة الى معناها الثقافي والتربوي .

ولكن كلمة ثقافة بمعناها الواسع تعني الطريقة التي يعيش ويفكر بموجبها شعب من الشعوب ، وتشمل مجموع العادات والمفاهيم والعقائد والنظم والمؤسسات . وهي بهذا المعنى تقترب من مفهوم الحضارة والمدنية في اللغات الاوروبية الحديثة .

والحقيقة لا توجد حدود فاصلة بين هذه المفاهيم الثلاثة : الحضارة - المدنية - الثقافة ، فمعانيها متقاربة وكثيرا ما تستخدم كلمة حضارة بمعنى مدنية أو ثقافة وبالعكس .

شروط الحضارة :

لكي تنشأ الحضارة وتنمو وتزدهر لا بد لها من توافر شروط مناسبة كالشروط الجغرافية والاقتصادية . فالبيئة الطبيعية المناسبة المائدة في منطقة ما ، كخصب التربة وتوافر المياه ، تساعد على قيام حضارة في تلك المنطقة وازدهارها . كذلك فان الموقع الجغرافي قد يؤدي الى قيام حضارة أو نهايتها ، مثل البتراء وتدمر ودوليات المدن الايطالية قبل الاكتشافات الجغرافية الكبرى .

والشروط الاقتصادية أساسية لنشوء الحضارة وتقدمها ، والانسان لا يمكن أن ينتقل الى مرحلة الحضارة الا بالاستقرار أولا ومن ثم ممارسة الزراعة وفيما بعد الصناعة والتجارة .

ولكن الشروط الجغرافية والاقتصادية لا تكفي وحدها لتكوين حضارة بل لابد أيضا من توافر شروط سياسية ، كوجود نظام سياسي يحمي الجماعة ، وشروط أخلاقية وفكرية توجه الناس في الحياة وذلك عن طريق التربية والتعليم ، وشروط اجتماعية كوجود نظام اجتماعي سليم .

بيد أن الحضارة ليست بحاجة الى شروط عرقية اذ يمكن أن تقوم على يد أي شعب من الشعوب وفي أي مكان عندما تتوفر الشروط المناسبة . فقد ظهرت الحضارة في العصور القديمة مثلا في مصر وبلاد الراندين وبلاد الشام والهند والصين ، وتألفت الحضارة العربية الاسلامية في العصور الوسطى .

اذن الحضارة ليست من صنع عرق معين وليس لها وطن محدد ، وانما هي نتاج متكامل للشعوب كلها تجتمع مع الزمن واتخذ اشكالا أرقى من التي كانت سائدة قبلا . فحضارة كل شعب تعتمد على حضارات الشعوب السابقة وتضيف اليها ليعلمو بذلك صرح الحضارة الانسانية . فالحضارة اليونانية والرومانية أخذت واستفادت من حضارات المشرق العربي القديم ، واقتبست الحضارة العربية الاسلامية أيضا عن الحضارة اليونانية وحضارات الهند والصين وأضافت وطورت أثمانها جديدة ، والحضارة الاوروبية المعاصرة اعتمدت عند قيامها على الحضارة العربية الاسلامية التي أخذت عنها الشيء الكثير .

وبذلك فان انسان العصر الحالي ، على الرغم من تقدم حضارته ، مدين لانسان المصور القديمة ولاختراعاته الاولى التي كانت نقطة البداية في نشوء الحضارة وتطورها .

كذلك لابد من الاشارة الى أنه لا يوجد عرق صاف ، كما حاول بعضهم

الادعاء ، فالمجتمعات البشرية تربطها بعضها ببعض علاقات اتصال مختلفة سلمية أو
حربية منذ عصور ما قبل التاريخ .

الحضارة هي نتاج تفاعل الانسان مع الطبيعة ، فالانسان يحاول باستمرار
اخضاع قوى الطبيعة لسلطته أو الاستفادة منها . ومن هنا تنشأ الحضارة . وما
قصة الحضارة الا قصة صراع الانسان بما أوتي من عقل وقوة مع قوى الطبيعة
لتسخيرها لمصلحته .

ان الحضارة تتطور مع الزمن ولكن عملية التطور هذه ليست متصلة ومستمرة،
فالحضارة تنشأ في مكان وزمان ما ثم تنهار مؤقتا أو تختفي نهائيا . ففي تاريخ
العالم حضارات متعددة معروفة نشأت ثم انهارت . ولكن لا يمكن القول إن حضارة
من الحضارات هي مركز للحضارات الاخرى . ولكل حضارة مميزات الخاصة بها ،
وقد ترث حضارة عن حضارة أخرى إرثا ثقافيا معيناً أو تتأثر بمنجزاتها كما هو
حال الحضارة الأوروبية الحالية التي أخذت الكثير من الحضارات اليونانية
والرومانية والعربية .

وقد قام الكثير من العلماء والمفكرين بالبحث في قضية نشوء الحضارة ونموها
وتطورها ، وطرح الكثير من النظريات التي تعالج هذا الموضوع نذكر منها :
نظرية الدورات التاريخية للفيلسوف الإيطالي جان باتيستا فيكو ، ونظرية الفيلسوف
الألماني اشبنغلر ، ونظرية الفيلسوف والمؤرخ الانكليزي أرنولد توينبي .

١ - نظرية فيكو : Jean - Baptiste Vico (١٦٦٨ - ١٧٤٤)

قال هذا الفيلسوف بنظرية « الدورات التاريخية » في كتابه « العلم الجديد
ومبادئ فلسفة التاريخ » . ملخص هذه النظرية أن البشرية أو كل شعب من
الشعوب يمر خلال تاريخه بثلاثة أدوار هي : الدور الالهي : حيث تسيطر الآلهة
على كل شيء ، والدور البطولي : وتظهر فيه الشخصيات الهامة والقذة ، والدور
الانساني : الذي يمد دور الحضارة الحقيقية حيث يتساوى فيه الجميع أمام
القانون .

تعرض الحضارة بعد هذه الادوار للاتكاس وتسود الفوضى والبربرية ، وتنشأ عن ذلك حضارة جديدة تمر بالادوار الثلاثة المذكورة ثم تنهار • ويستمر الامر كذلك بشكل متناوب حضارة - بربرية حتى نهاية العالم • أي أن الزمن ذو شكل دوري فهو يدور حول نفسه •

٢ - نظرية اشبنغلر : Spengler (١٨٨٠ - ١٩٣٦)

يرى اشبنغلر في كتابه « تدهور الحضارة الغربية » أن الحضارات مثلها مثل الكائنات الحية تولد وتنمو وتنحط وتموت • وبذلك يمكن عقد مقارنات بين مراحل حياة الحضارات المختلفة •

يقول اشبنغلر : « للحضارات نمو وشيخوخة » كما أن للبلوط والصنوبر والازهار والاغصان والاوراق نموا وشيخوخة ، ولكن ليس ثمة انسانية تشيخ ، ولكل حضارة امكانات تنبت وتنضج وتذبل وتفنئ الى غير عودة • فالتاريخ حسب رأي اشبنغلر يتشكل من كائنات حية هي الحضارات ، وتاريخ كل حضارة كتاريخ الكائن العضوي يولد وينمو ويموت •

٣ - نظرية توينبي : ارنولد جوزيف توينبي A. J. Toynbee (١٨٩٩ - ١٩٧٥)

تقوم نظرية توينبي التي عرضها في مؤلفه « مختصر دراسة التاريخ » (١٩٣٤ - ١٩٦١) الذي ميز فيه احدى وعشرين حضارة عرفت البشرية ، على التحدي والرد أو الاستجابة Challenge and Response • فهو يرى أن الانسان يقوم بانشاء الحضارة ليس بسبب تمتعه بمواهب متفوقة أو بسبب وجوده في بيئة جغرافية مناسبة وإنما بسبب رد الفعل على التحدي الذي يواجهه • فاذا استطاع الانسان أو المجتمع التصدي للتحدي الذي يواجهه بنجاح فإن ذلك يؤدي الى نشوء الحضارة • فنشوء الحضارة المصرية مثلا كان بسبب التغيرات المناخية التي طرأت على الصحراء الافريقية والتي حولتها من مناطق مطيرة وغنية بالاعشاب الى اراض صحراوية قاحلة • كان ذلك تحديا للسكان الذي كانوا يعيشون في تلك المنطقة والذين قابلوه

بطرائق مختلفة • قسم منهم تكيف مع الظروف الجديدة وتحول الى بدو رحل ، وقسم آخر استجاب للتحدي ورحل الى مناطق الغابات المدارية في الجنوب حيث عاش عيشة بدائية ، وقسم ثالث واجه التحدي برحيله الى وادي النيل حيث عمل على تخفيف المستنقعات وتسخير الظروف الجديدة لصالحه فأنشأ بذلك الحضارة المصرية • كذلك كان الامر بالنسبة للحضارة السومرية في جنوب بلاد الرافدين ، وللحضارة الصينية في وادي النهر الاصفر •

ولكن توينبي يرى أن التحديات الطبيعية والبشرية اذا تجاوزت مدى معيناً فان رد الفعل عليها لا يكون مجدياً •

على أي حال يمكن القول إن الحضارات لها فجر وهو عصر بداياتها الاولى الذي يتبعه عصر من الازدهار والتفتح حيث يستقل العقل البشري ويسود • ويأتي بعد عصر الازدهار هذا العصر الاخير من عمر الحضارة وهو عصر التحلل النهائي الذي يقتن بالعمق الذهني وعدم القدرة على الخلق والابتكار •

ان كل حضارة يمكن لها أن تتصل مع الحضارات الاخرى أو تنتقل من مكان الى آخر اما بطرائق سلمية كالتجارة أو بطرائق حربية كالغزو والحملات العسكرية • وقد يكون للحروب تأثير مدمر في الحضارة كما هو الحال في غارات البرابرة الجرمان على الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي ، وهجوم التتار على بغداد في القرن الثالث عشر • وقد يكون لها تأثير ايجابي كالفنوحات العربية الاسلامية التي نشرت الحضارة العربية الاسلامية في بقاع كثيرة من العالم •

وقد يتم انتقال الحضارة من بلد الى آخر مباشرة أو عن طريق بلد ثالث ، فالحضارة العربية انتقلت الى أوروبا عبر اسبانيا والمدين الايطالية •

مظاهر الحضارة :

تنجلي الحضارة بمظاهر متعددة هي :

١- المظهر السياسي ٢- المظهر الاقتصادي ٣- المظهر الاجتماعي
٤- المظهر الفكري ٥- المظهر الفني • وإن دراسة أي حضارة من الحضارات
تعني دراسة هذه المظاهر •

١ - المظهر السياسي :

ويبحث في نوع الحكم ملكيا أم جمهوريا ، دستوريا أم مطلقا ، ديمقراطيا أم
أرستقراطية ، برلمانيا أم غير برلماني • كما يدرس نوع الإدارة الحكومية من مركزية
أو لامركزية ومؤسساتها المختلفة •

والإنسان بطبيعته يخشى العزلة ويسيل إلى التجمع وقال أرسطو الإنسان
حيوان سياسي • ولكن ول دورانت يرى أن الإنسان ليس حيوانا سياسيا عن رغبة
وإنما عن اضطرار لأن العزلة تعرضه للخطر • ولكن على الرغم من أن الإنسان
يرغب في الحياة ضمن الجماعة إلا أنه يكره القيود • أن المجتمعات ، وحتى البدائية
منها ، لا تميل إلى إقامة تنظيم سياسي وتشكيل دولة ، وإنما ترغب في الحياة بدون
قيود حتى أن المجتمعات البدائية المعاصرة لا يتعاون أفرادها إلا في حالات خاصة
مثل الصيد المشترك أو مجابهة عدو •

وقد وضعت نظريات متعددة حول نشوء الدولة منها :

أ - نظرية الأصل العسكري :

وتقول إن الحرب هي التي تؤدي إلى خلق الدولة والرئيس أو الملك • فعند
نشوب الحرب يختار المقاتلون أشجعهم وأكثرهم خبرة وحكمة لتولي القيادة • أما
في زمن السلم فيمارس السلطة الكاهن أو الساحر •

ب - نظرية العنف :

ويرى أصحابها أن العنف هو الأساس في نشوء الدولة فالدولة هي نتيجة
انتصار الغالبين وتسلطهم على المغلوبين كطبقة حاكمة •

جـ - النظرية الاقتصادية :

ومفادها أن الدولة ضرورة لأن العمل في بعض الأماكن كوديان الانهار مثل إقامة السدود وحفر الاقنية لا يمكن أن يتم بالجهود الفردية ولا بد من تضافر الجهود الجماعية لانجاز ذلك . لذلك تطلب الامر قيام هيئة تسن القوانين وتنظم العمل الجماعي ألا وهي الدولة التي أصبحت مهمتها التوفيق بين المصالح المتضاربة للمجتمع الذي تديره .

د - نظرية العقد الاجتماعي :

قال بها الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو J. J. Rousseau وشرحها بالتفصيل في كتابه « العقد الاجتماعي (Contrat Social 1762) » ، ومفادها أن الافراد تنازلوا عن حقوقهم الطبيعية للمجتمع بوجه الاجمال وأنه بهذا التنازل تشكلت سلطة سياسية هي الدولة .

غير أن الافراد بقوا مشاركين في السيادة واستردوا تحت حماية الدولة تلك الحقوق التي تنازلوا عنها . فالعقد هو اتفاق متبادل بين الفرد والدولة يربط الفرد من جهة بسائر الافراد ومن جهة أخرى بالدولة ، ولذلك فإن رغبة الاكثية هي مظهر السيادة .

هـ - نظرية الاصل التاريخي أو التطوري للدولة :

وتقول إن الدولة نشأت عن طريق اتحاد جماعات منفردة بشكل تدريجي .

و - نظرية الاصل الديني للدولة :

يقول أصحاب هذه النظرية ان الدولة عمل سلطة دينية نظمها وأوجدت القوانين وقالت إنها سماوية ثم رسخت حكمها .

ز - نظرية العصبية القبلية :

وقال بها ابن خلدون في مقدمته (الدولة والملك) حيث يرى أن الدولة تحدث بالقبلية والعصبية ولها خواص وصور معينة تختلف باختلاف القائمين بأمرها . وللملك كما للدولة صفات منها الانفراد بالمجد والترف والدعة والسكون ، وهي خواص اذا استحكمت في الدولة تؤدي الى هدمها ثم فنائها .

٢ - المظهر الاقتصادي :

ان دراسة المظهر الاقتصادي تشمل دراسة مصادر الثروة وطرائق الانتاج ووسائله وأساليب تبادل المنتجات . ان دراسة هذه النواحي في تاريخ الحضارة هي دراسة علاقتها بالانسان وتأثيرها في أساليب معيشته ومختلف جوانب حياته . فالثروة وأسلوب المعيشة ونوعية الاقتصاد الذي يعيش فيه الانسان تؤثر في الحياة الاجتماعية والفكرية والفنية .

فالانسان كان في البداية جامعا للقوت يتنقل من مكان الى آخر ثم انتقل الى مرحلة الاستقرار فمارس الزراعة وتربية الحيوان ، وبذلك أمن مصدرا للانتاج أكثر طمأنينة وضمانا لحياته . وقد حدث ذلك في المشرق العربي القديم في الفترة ما بين الالف اثنان والالف السادس قبل الميلاد . ثم اخترع المحراث واكتشف النار وتعلم صناعة الكثير من الادوات ، أولا من الاحجار والتراب (الفخار) ثم من المعادن (النحاس - البرونز - الحديد) . ثم أوجد وسائل النقل وأساليب التبادل ، فاخترع الدولاب والسفن . ومع هذا التطور الذي حصل نشأت الفوارق بين الناس فأصبح هناك الفقراء والاغنياء .

الزراعة حين تولد الحضارة تؤدي الى الملكية الخاصة والعبودية لان التنظيم والعمل المنتظم يصبحان ضرورة ، وهذا التنظيم يعتمد على القوة عندما يعمل الناس لحساب غيرهم . فصار الاقوياء يستخدمون الضعفاء وصار الاسرى يستعبدون في العمل بدلا من قتلهم . ومع الزمن أصبح الاستعباد جزءا من النظام القائم . وأدى

ذلك بشكل غير مباشر الى الحضارة لانه زاد الثروة وأتاح ذلك الفرصة لأقلية من الناس كي تفكر ، حتى إن الفيلسوف اليوناني أرسطو رأى أن العبودية شيء طبيعي لا بد منه . وبذلك انقسم المجتمع الى طبقات ، وأحسن الاغنياء والفقراء بعتاهم أو بفقرهم احساسا يؤدي الى النزاع ، فبدأت حرب الطبقات بالظهور خلال المراحل التاريخية المختلفة ، وهذا أدى الى قيام الدولة لتنظيم المجتمع .

٣ - المظهر الاجتماعي :

يدرس المظهر الاجتماعي تكوين المجتمع ونظمه ومؤسساته وطبقاته ومختلف العوامل التي تؤثر فيه . وبما أن أهم الحاجات الأساسية للإنسان هي الحاجة المادية والحاجة الروحية والحاجة الجنسية فالتنظيم الاقتصادي يهتم بالحاجة المادية بينما يهتم التنظيم الاجتماعي بالحاجتين الروحية والجنسية .

يعتقد بعضهم أن المجتمع البدائي في مرحلة الصيد كان يتألف من جماعات وليس من عائلات . وعندما ظهرت الدولة حلت العائلة محل القبيلة كأساس للمجتمع . وبينما كان اهتمام الدولة منصبا على الأمن والنظام فإن العائلة صرفت اهتمامها الى قضية دوام النسل . ويبدو أن دور الأم في العائلة في المراحل البدائية كان رئيسا حيث تقوم برعاية الاولاد . أما في مرحلة الصيد فكانت المرأة تقوم غالبا بسائر الاعمال من طهي وصنع ثياب وغيره ، بينما يستريح الرجل معظم أيام السنة مقابل مصاعب الصيد وأخطاره .

وعندما تقدمت الزراعة وتربية الماشية أصبح الرجل العامل الرئيس في العائلة . وهكذا ظهرت سلطة الأب وحلت محل سلطة الأم التي كانت سائدة سابقا ، حتى إن الآلهة المؤنثة أصبحت مذكرة . وصارت المرأة تابعة للرجل وبدا الزواج كشكل من أشكال الملكية . وأصبحت الاسرة الابوية هي الوحدة الاقتصادية والسياسية والخلقية في المجتمع .

كان النظم الرئيس للمجتمع العادات والتقاليد التي تتوارثها الاجيال عن

بعضها • كذلك كانت هناك المبادئ الاخلاقية التي تحكم تصرفات الفرد وسلوكه •

وقد أصبح الزواج اضطراريا عند جميع الشعوب البدائية تقريبا لأن العازب ليس له مكانة اجتماعية • وكان ينظر الى الزواج على أنه تعاون اقتصادي أو شراكة مفيدة للطرفين أفضل من الحياة بشكل انفرادي • ومن واجبات الاهل أن ينقلوا الى أولادهم القوانين الاخلاقية والآداب لأن غرائزهم لا توافق أحوال الحضارة • فالقوانين الاخلاقية مهمتها تكييف اندفاعات الطبيعة البشرية لظروف الاحتياجات الجديدة في الحياة •

لم تؤسس الجماعات البشرية تشريعاتها الخلقية على أساس المنفعة الاقتصادية والسياسية وحسب ، بل استخدمت الديانة لاقناع الناس بضرورة التقوى والورع والایمان •

٤ - المظهر الفكري :

تشمل دراسة المظهر الفكري كل ما يتصل بالفكر والانتاج الفكري من آداب وعلوم ومعتقدات •

١ - المعتقدات الدينية :

إن المعتقدات الدينية قديمة قدم الانسان نفسه • ولعل أهم أسباب تدين الانسان الخوف ، وبخاصة الخوف من الموت ، والدهشة من أحداث ليس بمقدوره فهمها أو معرفة أسبابها كالكسوف والخسوف والزلازل والفيضانات ، والامل بمساعدة الآلهة في الوصول الى ذلك • وكان الاعتقاد سائدا عند الانسان الاول أن هناك روحا في كل شيء حي تنفصل عن الجسد اiban المرض والنوم والموت ، وكذلك الاشياء لها أرواح أيضا ، والا فما هو سر حركة الشمس وبعض الظواهر الطبيعية كالبرق والرعد وغيره •

وكان الانسان البدائي يرى أن الجبال والانهار والصخور والاشجار والسماء والشمس والقمر كلها أشياء مقدسة لأنها علامات خارجية لأرواح غير مرئية .

والمعبودات الدينية كثيرة وهي سماوية وأرضية وبشرية وحيوانية . وربما كان القمر كمقياس للزمن أو معبود عرفه الانسان ثم حلت الشمس محله عندما انتقل الانسان من الصيد الى الزراعة ، اذ أنها بمسارها كانت تحدد فصول البذر والحصاد . وكذلك عُبِدَت الارض والسماء والنجوم والجبال والانهار كآلهة كونها تؤثر في حياة الانسان .

ووجود الآلهة المؤنثة يدل على أن الانسان البدائي قد ربط بين الزراعة والمرأة . ومعظم الآلهة كانت مؤنثة في البداية ثم أصبحت مذكرة حين أصبحت الزراعة أساس الحياة البشرية .

ويكاد لا يوجد حيوان لم يكن موضع عبادة وتقديس باعتباره إلهاً ، ابتداء من الجمل المصري الى الفيل الهندي .

وأطلقت بعض قبائل الهنود الحمر اسم *Totem* على حيوانها الخاص الذي تقدسه وتعبد ، لذلك سميت عبادة الطوطم الطوطمية *Totemism* ووصفت لأول مرة في العصر الحاضر عام ١٧٩١ ، وهي تدل على عبادة شيء معين ، حيوان غالباً (ونادراً نبات) أو جماد أو ظاهرة طبيعية مثل الشمس والقمر والنجوم والبرق والرعد .

ويستعاض غالباً عن الطوطم الطبيعي في المحافل الدينية بشئله المتفق عليه ، وبه يتصل الفرد أو القبيلة ، التي تسمى غالباً باسمه اتصالاً كلياً صحيحاً . وقد أعان الطوطم بهذا الاعتبار على توحيد الجماعة البشرية أو القبيلة التي ظن أفرادها أنهم مرتبطون بها برباطه ، أو تحذروا جميعاً من سلالاته ، وأصبح بالتالي علامة مفيدة لعلاقة أفراد القبيلة بعضهم ببعض ، ثم تطور عند الأمم والشعوب الحديثة الى صور علمانية ورموز مثل النسر والغزال والعقارب والذئب وغيره .

وتقام للطوطم شعائر وطقوس معينة في مواسم خاصة وفي مراكز عبادة محددة وهي أشبه ما تكون بالاعياد والاحتفالات الدينية. ويتعامل الانسان بخوف وخشوع مع طوطمه الذي يكون عادة محرما (Tabu) لا يجوز مسه ولا يسمح بقتله أو أكله اذا كان حيوانا أو نباتا .

ويعد الطوطم حاميا ومساعد لكل عضو من أعضاء الجماعة التي تنتسب اليه . وقد وصف الأستاذ سولاس Solas في كتابه « الصيادين القدماء - ١٩٢٤ » الطوطم بأنه ظاهرة طبيعية أو جسم طبيعي يقترن به شخص أو جماعة اقترانا روحيا ، وعلى القوم تبجيله .

وجميع الافراد الذين يجمعهم طوطم واحد يكونون عادة في حكم الاخوة والاخوات ، غير أنه قد يتفق أن يكون الطوطم الواحد خاصا بالرجال أو النساء كما في بعض مناطق استراليا . ويحرم النظام الطوطمي الزواج بين أفراد الطوطم الواحد لانحدارهم كما يعتقد من أصل واحد ، ويبيحه بين أفراد الطوطم المختلفة . ومسا تزال الطوطمية حاليا منتشرة في الكثير من مناطق العالم حيث تعيش شعوب بدائية كما في استراليا وفي جزر ميلانيزيا وفي بعض أرجاء أفريقية ، وتكثر عند الهنود الحمر في أمريكا الشمالية .

وربما كان الخوف أساس عبادة الطوطم إذ وجب على الانسان أن يقدر الحيوان ويعبده لقوته حتى يكسب رضاه . ثم تراجعت عبادة الحيوان بعد الاستقرار الزراعي وحلت محلها عبادة الآلهة البشرية ، التي كانت قسوتها أول الامر من آثار الآلهة الحيوانية التي أخذت مكانها . والآلهة المصرية القديمة بوجوهها البشرية وأجسادها الحيوانية أو العكس تعكس مرحلة الانتقال هذه .

كذلك كانت هناك عبادة الأسلاف . وربما أتت فكرة الإله كآب من عبادة الاجداد . وبرز بعض الأسلاف أحيانا بوزن كبير فآلهوا . فالملوك الأقوياء ، مثل جلجاميش ، أصبحوا آلهة . وفي هذه المرحلة بدأت العصور التاريخية .

ونشأ عن رغبة الإنسان بارضاء الآلهة كي تساعد على حياته السحر الذي يعد أقدم الطقوس الدينية . وهناك أنواع متعددة من السحر أشهرها السحر الایمائي وهو أن يقوم الإنسان بما يسانل الأفعال التي يطلبها من الآلهة . فإذا أراد استئزال المطر صب الماء من أعلى الشجرة ، وإذا أراد إضعاف عدوه يحطم تمثاله واسمه أو يحرق صورته .

وكان الناس يتقربون إلى الآلهة بتقديم القرابين لها ، التي كانت أولا قرابين بشرية ثم أصبحت حيوانية .

أخيرا يمكن القول إن الدين يدعم الحياة الأخلاقية بوسيلتين أساسيتين هما الأساطير والمحرمات . فالأساطير تخلق عند الإنسان الاعتقاد بالقوى الخارقة للطبيعة ، وتكتسب المحرمات مع الزمن مكانة القوانين .

٣ - الآداب :

الأدب هو التعبير الفني عن فكر الإنسان وعواطفه ووصف نواحي حياته ، ومن فروع الشعر والنثر وعلوم اللغة والتاريخ بما فيه من حوليات وتراجم ومدونات ، والجغرافية بما فيها من أدب الرحلات ووصف الأقاليم وتقاويم البلدان ، والفلسفة بمذاهبها ومدارسها ، وعلم النفس والاجتماع والأخلاق والمنطق . وتطلق كلمة أدب أحيانا على المادة العلمية عندما يجري التعبير عنها بشكل فني .

وربما نشأ الأدب في أولى مراحلها على شكل ترانيم وابتهالات وطلاسم سحرية يتلوها الكهان وتنقل بالرواية الشفهية . ويبدو أن السحرة والكهان أوجدوا أوزان الشعر وأنشأوا لمضاعفة التأثير السحري لترانيمهم . ومع تطور الزمن أخذ الشعراء والخطيب والمؤرخ والفيلسوف يتميز بعضهم عن بعض تدريجيا ويتجهون اتجاهها دينيا في فنونهم الأدبية .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الآداب تتأثر بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة وتؤثر فيها .

٣ - العلوم :

وهي أنواع متعددة فهناك العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية والعلوم الفيزيائية وغيرها . وتقسم العلوم إلى قسمين علوم نظرية وعلوم تطبيقية .

يبدو أن العلوم نشأت أول ما نشأت كالآداب على يد الكهنة ، وأن أصولها ترجع إلى المشاهدات الفلكية المتعلقة بالأعياد الدينية . وعندما عرف الإنسان الزراعة بدأت معارفه بالهندسة وحساب الزمن حسب مسارات القمر والشمس والنجوم . وقد أدى هذا إلى نشوء علم الفلك . كما أدت الملاحظة إلى تطور الفلك ، والتجارة إلى تقدم الرياضيات .

٥ - المظهر الفني :

ويشمل دراسة الفنون بأنواعها المختلفة كالعمارة والرسم والنحت والغناء والموسيقى وغيرها . وقد كان الفن مكرساً في البداية لخدمة الدين ولم يستقل عنه إلا في العصور الحديثة .

نلاحظ مما تقدم أن مظاهر الحضارة كانت موجودة عند الإنسان البدائي باستثناء الكتابة والدولة . فأساليب الحياة الاقتصادية من صيد وزراعة وغيرها موجودة ، كذلك بعض تنظيمات الحياة الاجتماعية كالأسرة والقبيلة . وكان هناك أيضاً النظام وأسس الدين والعلوم والآداب والفنون بشكلها المبسط .

أخيراً لا بد من القول إن المظاهر الحضارية تؤثر بعضها في بعضها الآخر ، فالناحية السياسية مثلاً تؤثر في النواحي الاقتصادية والاجتماعية في الحضارة والعكس صحيح .

اللغات والكتابة والتاريخ :

لقد عرف الإنسان اللغة قبل أن يخترع الكتابة . واللغة هي وسيلة للتفاهم بين الناس ، وهي تنقل الأفكار من ذهن المتكلم إلى ذهن المستمع . وهناك نظريات متعددة حول نشوء اللغات منها أن أسماء الأصوات هي أصل اللغات ، وأخرى تقول إن الحركات هي أصل اللغات . من المحتمل أن الكلمات الأولى التي نطقها الإنسان كانت تقليداً لأصوات سمعها في الطبيعة . وعند نطقه لهذه الكلمات كان يستحضر في خياله صور الحيوانات التي أصدرتها أو الظواهر التي رافقتها . على أي حال أن تقليد الأصوات الطبيعية ساعد على تكوين مبادئ اللغة . وتتميز اللغات البدائية بأنها لغات حسية أي أنها تعرف الشيء الموجود والمحسوس وتفتقر إلى الأسماء المجردة . فالهنود الحمر في أمريكا الشمالية تفتقر لغتهم إلى كلمة تدل على الشجرة بشكل عام ، بينما يسمون كل نوع من الأشجار باسم خاص . وحالياً نعرف الكثير من الألوان من خلال الأشياء الملونة مثل يرتقالي - بنفسجي . الخ .

والأسماء الدالة على المعنويات كانت في الأصل تدل على أشياء ملموسة ومحسوسة ولكنها أصبحت مع الزمن تدل على معنويات . أن الانتقال من الأسماء الحسية إلى دلالات معنوية ينشأ مع تقدم الفكر وهو رمز من رموز الحضارة .

إن اللغة وعاء يضم معارف البشرية وخبراتها التي تنتقل من جيل إلى جيل ، فهي كلغة مكتوبة صلة الوصل ما بين الأجيال المتلاحقة .

وقد عرفت البشرية منذ نشأتها عدداً كبيراً من اللغات بعضها مات واندثر وبعضها الآخر مازال قيد الاستعمال . ومن المجموعات اللغوية المعروفة :

- ١ - مجموعة اللغات السامية : كالأكدية والكنعانية والعربية والآرامية . الخ ،
- ٢ - مجموعة اللغات الحامية : كالمصرية القديمة والبربرية (الأمازيغية) والكوشية والصومالية . الخ .

٣ - مجموعة اللغات الهندو أوروبية : كالحثية واليونانية وغيرها •

٤ - مجموعة اللغات التركية - المنغولية •

٥ - مجموعة اللغات الصينية - التبتية •

٦ - مجموعة لغات الهندو الحمر •

وقد انتقل الإنسان من عصور ما قبل التاريخ الى العصور التاريخية باختراعه الوسيلة التي يدون بها لغته ألا وهي الكتابة • واخترت الكتابة في نهاية الالف الرابع وبداية الالف الثالث قبل الميلاد في المشرق العربي لقديم (الكتابة المسمارية في بلاد الرافدين وسورية والكتابة الهيروغليفية في مصر) • وبذلك أصبحت هناك وسيلة تنتقل بواسطتها معارف البشرية من زمان الى زمان ومن مكان الى مكان •

ويمكن أن نعرف الكتابة بأنها اشارات ناتجة عن تخطيط أو رسم أو نقش أو خدش أو ضغط بواسطة أداة للكتابة على مادة مناسبة كالطين أو الحجر أو البردي أو الجلد أو غيره ، وهي تنقل بذلك الإخبار اللغوي من حيز المسموع الى حيز المرئي •

وقد عرف القدماء أهمية الكتابة فنسبها المصريون الى الإله تحوت Thot مخترع جميع وسائل المعرفة ، وعد البابليون الإله نابو Nabu إلهًا للكتابة ، واعتقد الصينيون والهنود القدماء بأصل إلهي للكتابة ، ونسبها الاساطير اليونانية الى الإله هرمس •

تتضح من ذلك أهمية الكتابة ومكانتها لدى معظم الشعوب القديمة • وتعد الكتابة أهم من اللغة كونها اختراعاً بينما اللغة ميزة بشرية • وقد اندثرت لغات متعددة ولا يعرف العالم عنها شيئاً لأنها لم تدون • وقد مرت الكتابة خلال تاريخها الطويل بسراحل متعددة من التطور هي :

١ - مرحلة الكتابة التصويرية : Pictography

وهي أولى مراحل الكتابة حيث كان يجري التعبير عن الأشياء المراد ذكرها بالصور . وكانت الصور لا تمثل أصواتا محددة . وكان على الكاتب أو الفنان الذي يرسم الصور أن يكون ماهرا كي يستطيع نقل الأفكار من خلال الصور دون التباس . وبمرور الزمن أصبح بالإمكان معرفة معنى الصور كالدائرة للشمس أو القمر والسنبلة للحبوب والنجم للكواكب . ولكن تجدر الإشارة أن الكتابة التصويرية تختلف عن الرسم فهي تعبر عن شيء من خلال الصورة المرسومة . وقد عرفت الكتابة التصويرية في بلاد الرافدين ومصر والصين والهند وغيرها من البلدان .

٢ - مرحلة الكتابة الفكرية : Ideographic

وهي مرحلة متقدمة على الكتابة التصويرية حيث تصور الأفكار التي يراد قولها . فالصورة هنا لا تدل على الشيء المصور وإنما على فكرة متصلة بهذا الشيء . فالدائرة لا تعني فقط الشمس وإنما النهار أو النور . وتسمى الرموز المستعملة هنا صورا فكرية Idcographs .

٣ - مرحلة الكتابة الصوتية :

وفيها تصبح الرموز المستخدمة ذات قيم صوتية ، والرموز التي لها أصوات معينة يمكن جمعها لتشكيل كلمات وأفكار مختلفة .

٤ - مرحلة الكتابة المقطعية :

وفيها تتحول الرموز الى مقاطع حيث تشكل كلمة أو جزءا من كلمة كما هو الحال في الكتابة المسمارية . وما تزال الكتابة الصينية حتى الآن كتابة مقطعية خالصة .

٥ - مرحلة الكتابة الأبجدية : Alphabetic

وهي آخر مرحلة من مراحل تطور الكتابة وتمثل فيها الحروف أصواتاً لا مقاطع وأفكاراً • ويمكن أن يوجد الحرف الواحد في لغات متعددة •

وقد اخترعت الكتابة الأبجدية في مدن الساحل السوري أوجاريت وجيبيل على يد الفينيقيين ومن ثم انتشرت شرقاً وغرباً واستخدمتها شعوب متعددة لكتابة لغاتها • وبذلك نشأت وسيلة اتصال سهلة بين شعوب الأرض مازالت مستخدمة حتى الآن •

عرفت البشرية خلال تاريخها الطويل أنماطاً متعددة للكتابة لم تتطور جميعها إلى مرحلة الكتابة الأبجدية بل توقفت عند مرحلة معينة • نذكر من تلك الكتابات الكتابة المسمارية والكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة الكنعانية والكتابة الفاتية وغيرها •

استخدم الإنسان مواد مختلفة لتدوين كتاباته مثل أوراق ولحاء الأشجار والاحجار والالواح الطينية والمعادن والبردي والجلود وأخيراً الورق الذي ساد استعماله في كل أرجاء العالم نتيجة لسهولة استخدامه •

التأريخ :

اهتم الإنسان منذ نشأته بالتأريخ وذلك بالاستناد إلى حوادث بارزة في الطبيعة مثل فيضان نهر أو حدوث زلزال أو كارثة • ولكن هذا الأسلوب البدائي في التأريخ تغير مع الزمن فأصبحت بعض الشعوب كالبابليين تؤرخ استناداً إلى الأحداث التي تجري خلال سنوات حكم الملوك ، كأن يقال : في السنة التي قام بها الملك •• • بحملة ضد ••• وأرخت بعض الشعوب كالآشوريين استناداً إلى سنوات حكم أحد الموظفين الكبار •

كان التأريخ قائماً على حساب الزمن اعتماداً على دورة القمر أو الشمس • فنشأت بالتالي تقاويم مختلفة عند الشعوب أساسها الشهر •

ومن الجدير بالذكر هنا أن كلمة تأريخ العربية تعود بأصولها الى الكلمة الأكادية والاوغاريتية وارخوم (أو أرخوم) التي تعني قمرا ، شهرا ، حيث كان القمر أو الشهر هو الوحدة الأساسية في التقويم البابلي . تنضح لنا من ذلك العلاقة ما بين التأريخ ودورة القمر . وان أسماء الشهور المعروفة المستخدمة حاليا في التقويم الميلادي في المشرق العربي (كانون - شباط - آذار الخ ..) هي تسميات أكادية بالأصل استخدمتها بقية الشعوب التي سكنت المنطقة . وان بقاءها قيد الاستعمال حاليا دليل على عمق اتصال الانسان العربي بحضارته القديمة .



الفصل الثاني

فجر الحضارة

كثيراً ما تتردد عبارات العالم القديم ، والشرق القديم ، والعصور القديمة وهي كمصطلحات قد تفاجئ القارئ ويتحير في تحديد أطلرها في المكان والزمان . وتتردد عبارات أخرى ، مثل الحضارات القديمة ، وحضارات العالم القديم . ولقد عرفنا عبارات أكثر تحديداً في المكان والزمان مثل حضارة وادي الرافدين والنيل والحضارة الايجية ، نسبة الى بحر ايجة ، وحضارات الشرق الأقصى ، وادي السند (الهندوس) ، والصين . إن مدلول الالهاء الجغرافية التي تقدمت ، يعكس لنا كمؤرخين رد فعل الانسان ، الذي عاش منذ الخليقة وترك أقدم الآثار التي تسدل على أقدم المجتمعات التي تعد أساس مجتمعنا المعاصر بغض النظر عن أعراقه ولغاته . إن المدن والقرى المهجورة والأوابد المزروعة في أرجاء تلك البلدان ، تشهد على عظمة تاريخها وقدمه . هنا هيأت الطبيعة شروطاً قوامها الدفء والرطوبة والأرض الخصبة ، فما كان من انسان الماضي إلا أن سارع يتعامل معها وينغدو محركها ومعلمها بخطوات تتباطأ وتتسارع ولكنها تسير دائماً نحو التطور .

لقد عثني بالعالم القديم تلك المساحات الممتدة من سهول الصين شرقاً الى جنوب السهول الروسية الكبرى مروراً بالهند ويران والأناضول والعراق وبلاد الشام (سورية ، فلسطين ، الاردن ، لبنان) والجزيرة العربية ومصر واتهاء بالشواطىء الغربية للبحر الابيض المتوسط وما يجاورها ، اليونان وايطاليا واسبانيا ، والبلدان العربية الافريقية . حتى قبيل اكتشاف الأمريكيتين واستراليا ،

منذ أربعة قرون فقط ، كان هذا العالم القديم ، هو الأمم التي أنجبت الحضارات التي نعيشها اليوم . ورغم اكتشاف حضارات انسانية لها شأنها ومميزاتها كحضارات الأزيك والبيرو وغيرها في شمال أمريكا وجنوبها ، إلا أن هذا الاكتشاف لم يغير من واقع العالم القديم وأهميته بالنسبة لحضارتنا العالمية المعاصرة نظراً لمحدودية تلك الحضارات وولادتها وموتها في مكانها . انه لا توجد أبسط الدلائل على صلة الأمريكي اليوم بعالم أمريكا قبل اكتشافها ، بينما لا يستطيع المراقب إلا أن يصنف حضارة أمريكا أنها بنت الحضارة الاوربية وهذه الاخيرة بنت الحضارتين الاغريقية والرومانية وهاتان الاخيرتان تلقتا دروس الحضارة من بلاد الرافدين ووادي النيل ، وسورية . وهذه وتلك تربطها بالحضارة الاحداث منها والمجاورة لها في الشرق الأدنى والاقصى أشد الروابط . هذه هي السلسلة وهذا هو مدلول العالم القديم وحضارته انه مدرسة الانسان الاولى ، والعالم اليوم لم ينقطع عنه انه ما يزال يتعلم منه .

إذا بدأنا من أقصى شرق اسيا نجد ان وادي السند « الهندوس » قد تلقى دروسه الاساسية التي كونت شخصية حضارته من بلاد المشرق القريب كما يقول جان ديهيه^(١) (ص ٢٩) من كتابه « حضارات الشرق القديم » الذي يدور بشكل خاص حول بلاد الرافدين ومصر . وقد سمح الغنى الطبيعي لسهولها ، وقربها من جبال الهمالايا بأخشائها سمح لوادي السند بنشوء أقدم المواقع والتوضعات البشرية . أما ايران فلم تسمح لها شواطئها المحاطة بجبال صعبة الاختراق بأن تكون كثيفة السكان أو سهلة للانشطة التجارية البحرية . ولكن المراكب التجارية المنتقلة بين الرافدين المنطلقة من الخليج العربي نحو وادي السند ، قد وفرت شروط الاتصال الحضاري بين المنطقتين . أما شواطئ المتوسط الشرقية فهي الوحيدة التي سمعت منذ وقت مبكر للانسان بان يتوطن ويمارس أنشطة تجارية بحرية يساعد على ذلك مناخ معتدل وغنى طبيعي ممثل بوجود سهول زراعية شاطئية ، ومعادن متوافرة ، كالحجاس في قبرص والرخام في سيكلاد وميلوس عدا الجبال المشجرة الرائعة في الامانوس على الساحل السوري وتلك على الشواطئ اللبنانية . من جهة

(1) J. Deshayes, les Civilisations de l'Orient Ancien (1969)

أخرى تشكل جزر بحر ايجه خطوطاً بحرية ملائمة للملاحة منذ عصر البرونز القديم بما فيها الخط الملاحي بين جزيرة كريت وأقرب نقطة من الشاطئ الأفريقي . ضمن هذا الإطار الجغرافي والمناخ الإنحافى ، قيض للإنسان أن يقيم مدناً مثلاً فجزر الحضارة على الشاطئ السوري مثل أوجاريت وجبيل وصور وصيدا وطروادة على الشاطئ الأناضولي ، وقبرص وكريت . وانتشر النشاط التجاري في كل اتجاه بين تلك المدن ، وانتقلت مع التجار والملاحين جميع المواد المصنعة والأفكار والمعتقدات والكتابة والأبجدية والنقود . وإذا كان الفضل في انطلاق الحضارة القديمة من الشرق أي من الرافدين والنيل ، فإن تلك المدن قد أمسكت بالدفة فيما بعد وصارت مراكز حضارية بحد ذاتها .

ويبدو أن بداية حضارة ما قبل التاريخ ، كانت متواضعة بخاصة ما يتعلق بالرسوم الهندسية الفنية بالمقارنة مع أعمال فنية وجدت في أوروبا الغربية ، ولكنها غير معروفة . وربما تكشف عنها دراسات المستقبل وتغير كثيراً من وجهات النظر كما يعبر عن ذلك « ديهيه » (المرجع السابق ص ٣٥) .

لقد وجدت بقايا عظام الإنسان المسمى النيدارثال Neanderthal في كل من بلاد الرافدين ولبنان وفلسطين وأخيراً شمال اليونان . وتؤرخ في المرحلة الأولى من آخر عصر جليدي ، ولكن قبل هذه المرحلة التي تقابل العصر الحجري القديم Poleolithic عرفت بلاد المشرق العربي تصنيعاً إنسانياً وجدت آثاره في سورية وفلسطين ، وبخاصة في وادي الأردن وفي مغائر جبل الكرمل . وتسمح الأدوات الحجرية بتاريخ هذه الطبقة بالعصر الحجري المتأخر .

على كل حال ، فإن المشرق العربي هو الذي بدأ الخطوة الأولى في تاريخ الإنسانية عندما توقف عن أن يكون تابعاً لمحيطه من أجل تأمين قوته ، وعندما صار قادراً على الزراعة والاحتفاظ بإنتاجه ، وتأهيل الحيوانات التي يأكل لحصها . لقد حدث هذا التحول خلال عصور طويلة ، مختلفة من منطقة إلى أخرى . وأسبابه متعددة وفي طبيعتها أن الإنسان كان وما يزال يبحث ويفتش عن الأفضل . وكانت

الزراعة هي المرحلة الأرقى بعد حياة الصيد والتبعية للطبيعة . لقد تمت هذه الخطوات غالباً في نحو القرن المئة قبل الميلاد . في العصر الحجري الوسيط mesolithic الذي عقب آخر عصر جليدي ، حيث كان الانسان ما يزال يعيش على الصيد وجمع القوت وحيث ظهرت أوائل المصنوعات الصوانية الدقيقة بخاصة رؤوس الأسهم في مغاور ايران الغربية ، والتي ساعدت على الصيد . لقد كانت المسيرة الحضارية بطيئة وخجولة .

لقد ظهرت مرحلة أخرى عندما بدأ الانسان بالتحضر تاركاً الكهوف ومقيماً في مأوى دائم سواء أكان في الكهوف أم على سفوح الهضاب . وهكذا ظهرت أولى المساكن في موقع وادي النطوف في فلسطين فسميت الثقافة النطوفية وتوَّرخ في الفترة ما بين الألف التاسع ومنتصف الألف الثامن ق م .

ان بدء العمل الزراعي لا يرتبط بالضرورة بحالة استقرار دائم في تلك العصور المبكرة . وعلى هذا لا يمكن القول إن الحضرة والعيش في تجمعات انسانية قد تزامنا تماماً مع العمل الزراعي . اذ لم يكتشف في فلسطين مثلاً أي أثر للزراعة والتأهيل (الحيواني) في التجمعات السكانية المبكرة ، والعكس صحيح بالنسبة لكردستان ، أي ان الزراعة قد بدأت دون أن يكون هنالك استقرار تام . على أية حال إن ثبات الانسان وسعيه للاختراع والتجديد قاداه الى اكتشاف منافع بعض الحبوب البرية ونتيجة ملاحظته وانتقائه للافضل منها خلال قرون طويلة ، استطاع ان يؤهلها ويستثمرها في زراعة وعمل منتظمين .

لقد كانت الفترة بين الألف الثامنة والألف السادسة مسرحاً لتلك التجارب التي قادت الى الاستيطان الأول في تاريخ الانسانية وبدء العمل والزراعة المنظمة التي نعرفها اليوم ، ولكن بأدوات متواضعة جداً . وهو العصر الذي نسميه نيوليتي Neo lithic أي العصر الحجري الحديث . ومن أهم مميزات هذه المرحلة ظهور بعض حفر المؤونة وبعض المطاحن الحجرية ، وتجمعات سكنية أهمها ظهور البيوت الدائرية في فلسطين والاردن ثم المستطيلة التي وجدت في ايران وفلسطين وسورية .

وظهر لأول مرة بقايا عظام أطفال مدفونين تحت تراب المنزل ولربما هذا برهان على الثبات والاستقرار .

يمثل تأهيل الحيوان خطوة كبرى نحو الحضارة . فهو يوفر مخزوناً غذائياً كبيراً من اللحم ومن ثم المنتجات اللبنية . وهذا ما خلق مسؤوليات وأعمال جديدة ، فرضت على الإنسان دخول العمل المنظم . لا شك أن الوصول إلى هذه المرحلة ، كان مترافقاً مع نمو انساني نفسي واجتماعي . هذا الوضع ظهر للمرة الاولى ولا شك في مشرقنا العربي ، ولربما كان الغنم أول حيوان يرافق الإنسان ويقع تحت سيطرته ، وتوسع ذلك الماعز بدءاً من الألف السابع ق م في جرمو في شمال العراق قرب كركوك .

يعتقد مؤرخو ما قبل التاريخ بريدود Braidwood وكينيون K. kenyon ان أوائل المواقع المدنية قاطبة تعود إلى تاريخ قريب من الألف الثامن ق م . حيث ظهر أقدمها في أريحا في وادي الأردن ، وظهرت ثلاث طبقات من البيوت الدائرية ، ويشهد على وجود تلك المدينة الاولى سور من الحجارة السمكية (١٦٥ م) . وبقي منها ما ارتفاعه (٣٩٥ م) . واكتشف في داخله برج بعلو ٨٥٠ م تقدر أبعاده بـ ١٣ م في القاعدة و ١٠ م في القمة . وتوجد داخل السور ٢٢ درجة حجرية بعرض ٥٠ م تسمح بالوصول إلى الطبقة العليا . وسواء أكان هذا البرج للمراقبة أم تحصيناً عسكرياً فإنه يدل على تطور اجتماعي ملحوظ برغم ان الفخار لم يصنع بعد . ولا شك ، رافق هذا التطور قدراً كافياً من الغنى يتوجب حنائه . ولكن نلاحظ غياب هذا النوع من البناء وتقهقره حيث اختفى من أريحا ومن فلسطين وعاد سكانها إلى حياة البداوة ، ويعتقد ديهيه (المرجع السابق ص ٤٠) ان سبب ذلك هو جائحة فقر مفاجئة . وأن هذه المدينة ليست إلا تجمع سكني أو قرية صغيرة حيث لم يجد فيها المنقبون أي أثر لممارسة الزراعة مما يضع فرضية ربط ظهور المدينة بالزراعة وحسب موضع تساؤل ، أو يجعلها على الأقل مسألة نسبية . حيث أن أماكن الاستقرار في الشرق القديم متفرقة ومتباعدة كما ان استغلال الأرض وملوحتها تدفعان بالسكان إلى الانتقال للبحث عن أرض جديدة . كما أن قسماً من السكان

ما يزال يمارس الصيد الى جانب المستقرين . ويمكننا التساؤل عن نمط حياة التنقل والبدو فهل يا ترى تم الانتقال مع قطعان الاغنام مع كلاب مؤهلة وبذلك نشأ هذا النمط من الحياة جنباً الى جنب مع حياة الاستقرار ؟ ونلاحظ من جهة اخرى ان السكان الموزعين في أنحاء المشرق آنذاك لم يكونوا منعزلين بعضهم عن بعض . لقد عثر على كثير من المواد والمصنوعات البسيطة التي تدل على وجود تبادل تجاري . فقد استعمل موقع تساليا حجراً كريماً قادمًا من ميلوس منذ ما قبل ظهور الفخار . واستعمل في زاغروس ويظن أنه قادم من ارمينيا . واستعمل الاسفلت في مواقع متعددة من أجل تثبيت النصال ، ويظهر أنه مستورد من مناطق بعيدة . ومثل ذلك بعض الحجارة الثمينة في البتراء ربما كانت منقولة من البحر الاحمر . كل هذا يدعونا للاعتقاد كما يقول ديهيه (ص ٤١) ان الغنى الذي لوحظ في موقع أريحا يفسر بشكل أفضل ، بسبب موقعها التجاري المتميز لا بسبب زراعة لم يجد لها المنقبون أي أثر !

لقد أدت العلاقات الناتجة عن التنقل من أجل ممارسة الزراعة ، وعن الميل الى التوطن والتمدن ، الى خلق مواطن جديدة لحضارة العصر الحجري الحديث Neolithic خارج مواطن نشوئها الأصلية . ويفسر هذا بالشروط الطبيعية المحيطة، إذ ان البادية أو المناطق شبه الصحراوية التي تخترقها أنهر كبرى لا تشكل بالضرورة الاماكن المثالية للزراعة ، ونلاحظ في أيامنا هذه ، أن تحضير تلك المناطق للزراعة أمر يتطلب المزيد من الجهد والمال . أما مناطق الغابات فهي الاخرى مهيأة للصيد والجمع وحسب . فلا يبقى أمام الانسان سوى الوديان الخضراء بسواقيها المتواضعة والهضاب سهولها الرطبة غير المرتفعة ، لتكون بنباتاتها البرية مدعاة لبدا التجربة معها وتأهيلها إن أمكن . اتنا نعرف ان الشعير والقمح لها أصول برية ، كانت وما تزال منتشرة في البلقان ويران العربية وعلى أطراف الشريط الهالسي الاخضر العربي وفي الأناضول وأفغانستان . يبدو من الواضح ان الزراعة قد بدأت وتطورت في هذه المناطق ، وكانت تعيش عليها أسلاف الحيوانات الأهلية التي نعرفها اليوم ، وأهلت فيها للمرة الأولى .

نخلص مما تقدم للقول : لقد ولدت الحضارة في تلك المناطق من خلال مظاهرها الثلاثة وهي الزراعة وتاهيل الحيوانات والتحضّر أو التمدن .

وهكذا نجد أن وديان زاغروس وأطراف جنوب بحر قزوين وهضاب الرافدين العليا والسلاسل المرتفعة السورية الفلسطينية هي التي تشكل مهد الحضارة الأولى مع ملاحظة اختلاف التلون بين الواحدة والآخرى . علما بأنه لا يمكن حتى الآن تتبع خط تطور واحد في أي من تلك المناطق ، منذ العصر الحجري القديم الأعلى حتى أقدم ثقافة حضرية . هنالك مثال واحد يقدمه ملاّرت Mellaart في الأناضول المتوسطة . اذ يلاحظ استمرارية بعض المظاهر الفنية منذ ذلك العصر حتى ظهور التزيينات الفنية في شاتال هيوكش Tehatal Huyuk . هذه الفرضية غير أكيدة نظراً للاعتبارات التالية (وفق ديهيه ص ٤٢) : ان ما قبل الفخار (وهو حجري حديث) لم يظهر في الأناضول قبل بداية الألف السابع وهو تاريخ أكثر حداثة بالنسبة لكثير من مواقع الشرق . هذا الفارق الزمني يفسح المجال لطرح مشكلات تاريخية : وهي هل انتقلت تأثيرات خارجية فطورت العصر الحجري الحديث في الأناضول ؟ أم ان التحضر قد حدث نتيجة تطور داخلي ؟ الجواب غير أكيد ، ونحن نرى اننا كلما اتجهنا نحو الغرب أي نحو بلاد الاغريق نجد تأخراً في الدخول في العصر الحجري الحديث وهو يعود لأكثر من الألف السابع ، وفي قبرص وغيرها لم يعرف هذا العصر إلا بين الألفين السابع والسادس ، بينما كانت بلدان الشرق ارافدين وايران وسورية وفلسطين قد دخلت منذ وقت طويل عصر الفخار . ان ظهور حضارة ما يجب أن يفسر من خلال بعض المظاهر أو التطبيقات العملية . اننا نلاحظ ان اوروبا لم تعرف تاهيل الحيوان في الزمن نفسه الذي عرفه الشرق ، وكان هذه الخبرة تنتقل بصورة مستقلة عن الشيء بعد ذاته ، وهي حال انتقال كثير من الخبرات دون مصنوعات ؟ ولهذا فان المصنوعات الحجرية هي التي تسمح بدراسة مواطن التحضر وألوانها قبل ظهور الفخار . وهكذا نجد ان الانسان قد صنع الفأس والبلطة ، والمر . الخ . واستطاع ان يقور الاحجار ويصنع منها آليته . واستخدم الى جانب الحجارة الخشب والعظام . وأخيرا صنع بعض الشخصيات

الصغيرة من الطين . كما أثبتت حفريات حديثة استخدام النحاس منذ وقد مبكر على استخدام الفخار قرب منابع الدجلة . حيث ظهر منذ ٦٩٠٠ ق.م . ولكنه نحاس أولي كغيره من الاحجار ، يختلف عنها بالوانه وليوته . وكانت النتيجة أننا أدخلنا في قاموس مصطلحاتنا مجموعة من التعابير التي توصف لنا عصر الحجر المشذب ثم المصقول ثم عصر النحاس وعصر البرونز وأخيراً عصر الحديد .

إن الخطوة الحاسمة من الناحية التقنية هي اختراع الفخار . ربما كان هذا الاختراع قد بدأ مصادفة . إذ نرى أن القرويين عندما يشعلون النار في حفر غضارية رطبة يتحول هذا الغضار فيما بعد إلى مادة صلبة أو ربما كان الحال هكذا بالنسبة للإنسان . إن أوائل الادوات الفخارية كانت جراراً كبيرة استعملت لحفظ الخبز . ومن ثم تطور استخدام الغضار المشوي لصنع الابواب المنزلية ، التي أخذت تحل محل الآنية الحجرية الثقيلة . ثم جاءت فكرة تزيين هذه الآنية الفخارية الخز . لقد اكتشفت أقدم طبقات الفخار في موقع جرمو شمال العراق وأرخت في نهاية الألف السابع . وربما كان مثيله في الهضاب الإيرانية يعود للنصف الثاني من الألف السابعة . أما في الأناضول فهو لن يظهر قبل الألف السادس . أما في سورية وفلسطين فمن المعتقد أن هذه الصناعة قد بدأت بالظهور شمالاً وبخاصة ظهور نوع قديم من الفخار الأبيض المعبر ، وانتشر الفخار في البلقان عن طريق الأناضول ، ثم في « تساليا » وبلاد الإغريق وكان ذلك في حدود (٥٧٠٠ ق.م) . وانتشر الفخار من إيران شرقاً ولكن متأخراً لأنه لم يظهر في بلوخستان إلا نحو الألف الرابع ق.م . وهكذا نستطيع تحديد مركزين هامين لظهور أقدم صناعة للفخار وهما الأناضول الوسطى وإيران الغربية وانتشر منهما بجميع الاتجاهات .

من جهة أخرى ، لم يعثر على أي توضع سكاني أقدم من بدء عصر الفخار في كل من المناطق التالية وادي الدجلة والفرات وقارون (Karoun) والهندوس ما عدا منطقة بقرص على الفرات الأوسط . ويظهر مثل هذا التأخر في التوسع الإنساني في مناطق الطمي النهرية حيث أن ندرة الأمطار تفرض سقاية منتظمة وهذه تتطلب أعمالاً شاقة ، بدونها لا يمكن قيام الزراعة وهذا هو التفسير المحتمل لذلك التأخر .

ولكن تبقى بعض الاسئلة العالقة حول كيفية بدء الري والسقاية المنظمة • اذ انها تتطلب حدا ادنى من التجمع السكاني المنظم الذي يستطيع مواجهة مشكلات نقل الماء • لقد ظهرت أولى انشاءات الري في اريحا في وادي الاردن ، أما في وادي الفرات فان الامر يتطلب تركيبا اجتماعيا أكثر تقدماً لمواجهة مشكلة المياه والجفاف • يمكن افتراض ان الري قد بدأ بشكل فردي في مناطق ذات أنهر صغيرة وبوسائل محدودة الشادوف والدلو وعندما تمكن الانسان من استخدام هذه الطريقة ، استطاع ان ينتقل الى الانهار الكبرى •

إن استخدام الري المنظم مؤثر هام في تاريخ الحضارة الانسانية ويمثل اختراع الفخار • فهو وحده الذي يسمح بالانتاج الغزير والتخزين ، وتراكم الثروة •

ويسمح لقسم من السكان بالانصراف الى أنشطة اخرى غير تأمين القوت • ويسمح تكديس المواد الغذائية بتأهيل المزيد من الحيوانات المجترة التي تصود للآلاف الخامس ق م • حيث أهلت من أجل لحومها ثم من أجل لبنها ومن ثم جلودها الخ • • إن بدء التعاون بين الانسان والحيوان هو من انجازات العصر الحجري الحديث • ويجب الاشارة هنا أن تأهيل الغنم والماعز والبقر والخزير في وقت مبكر قد ساهم بتدعيم دور المرأة ضمن العائلة من خلال تأهيل المواشي ، وبذلك فان لها دوراً قوياً في عملية الاستقرار والتحضّر •

يمكن القول أيضا ان دور الرجل كان أكثر أهمية عندما كانت المعيشة تعتمد على الصيد وحسب ، ويبدو أن المرأة اهتمت بالقطاف والتقاط الحبوب البرية والفواكه والجذور والاوراق النباتية ، هذا الاستنتاج المنطقي لدور المرأة غير مدعم بشواهد مباشرة منذ ذلك الزمن الغابر • ورغم هذا فاننا نستطيع الافتراض أن موقعها العائلي ووظائفها الطبيعية قد سمحت لها أن تلعب دوراً أولياً وأساسياً في

اكتشاف الزراعة والعمل الزراعي ، وذلك من خلال قيامها بعملية القطف ثم التخزين . لقد توجب تعمير مأوى لهذا النمط الجديد من الحياة ، كنتيجة أولية للخطوات نحو اكتشاف المزروعات والسيطرة على إنتاجها . ويظن أن هذه المناسبة قد خلقت بفضل جهود المرأة التي نوهنا عنها ، وبرز دورها من خلال نواة المجتمع القروي المستقر . بعكس دورها في مجتمع متنقل يعيش على الصيد أو البداوة .

هذه البداية الامومية للتوطن والاستقرار الزراعي ليست الا مجرد استنتاج منطقي يمكن قبله طالما لا تتوافر لدينا شواهد أكيدة . ولكن يجب عدم المغالاة وتضخيم هذا الواقع كما قد يتهاى لبعضهم .

ومع هذا سنحاول أن نتلمس جميع المعلومات التي تساعدنا على فهم مميزات نواة المجتمع الزراعي الذي احتلت فيه المرأة دورا رئيسا مما حدا ببعضهم الى تسميته عصر الامومة أو مجتمعا .

ان هذه الفرضية القائلة بوجود مجتمع أمومي لا تستند في الواقع الا على استنتاجات منطقية أحيانا وقسرية غالبا عند بعض المتطرفين . ان واقع الوثائق التي نملكها والتي تعود الى بداية العصور التاريخية الكتابية ، تدل على وجود شروط اقتصادية جيدة قد عدلت من الميزان الاجتماعي لصالح الذكر . ولا توجد أية آثار تدل على طبيعة الموقف السابق ، ماعدا ، بعض القواعد القديمة في الإرث في عيلام التي تفترض نقله من الام الى الفتاة . ولكن نلاحظ من جهة أخرى ، أن طقوس العبادة هي التي كرس دور أكبر للمرأة . ان الطقوس المتعلقة بالخصب قد ترعرعت وانتشرت في كل المشرق . ولا شك أن لهذا مدلولاً فكرياً قوياً أن الخلق والخصوبة الطبيعيين قد استوحيا من عناصر تتعلق بدورة الامومة والانجاب السنوية أي الخصب والعطاء . وليس مستبعداً أن تكون أفكار العبادة تلك مستوحاة من جميع مظاهر الخلق والعطاء للطبيعة والمرأة . وتكرست هذه الافكار عندما كان لها دور عملي عند بدء اكتشاف الزراعة في عصور ساحقة لا نملك وثائق عنها . ان وثائق العصور التاريخية المتعلقة بطقوس الخصب تضع أشكالاً غنية للمرأة على

صورة آلهة أم ، معطاء ، وربة عالم الحيوان والنبات ، وبالمقابل ، أن الإله المذكر المخصب لم يرق إلا بدور إله مرافق . وعلى هذا لا توجد دلائل حقيقية مباشرة عن تنظيم اجتماعي أمومي . وتعود تلك الأساطير إلى زمن مغرق في القدم حيث عاشت الإنسانية تقلبات متعددة اقتصاديا واجتماعيا ، ما عدا هذا النقص في الشواهد الكتابية على ذلك التنظيم الأمومي ، فإننا لملك عليه شواهد ، وهي عدد كبير من الشخصيات الفنية الآتوية ، مصنوعة من الحجارة أو الطين والطين المشوي ، ونلاحظ بأن الفنان قد ضخم الاعضاء الجنسية الآتوية كثيرا وكأنه تقديم وإبراز لعناصر الخصب . أن مثل تلك الشخصيات قد وجدت منذ العصر الحجري القديم ولكن لوروا - غوران Leroi - Gourhan كما يذكر ديهيه (ص ٥١) قد أكد أنه يستحيل أن يستخلص من ذلك التشخيص البسيط ، في ذلك الزمن القديم ، أبسط النتائج عن المستوى الاجتماعي والديني . وعلى العكس ، فإن بعض الأساطير في عصور لاحقة قد قدمت شخصيات حيث أن العناصر المذكورة هي الغالبة كما نلاحظ ذلك في الطبقات القديمة في تشاتال هيوك حيث عثر على شخص رجل ملتج ثم ما لبث أن اختفى مثل هذا المثال ، لصالح دور المرأة الذي تدعم مع ظهور الزراعة وتربية المواشي ، والانهاء من حياة الصيد كما يصر على ذلك ملارت Mellaart على أية حال أن مظاهر الأمومة في المجتمعات القديمة قد اختلفت مع ظهور المجتمعات التاريخية مع تبدل جذري في الشروط الاقتصادية ، وبقيت أسطورة دور الأمومة المخصب أمرا مقبولا من حيث الاجتهاد والتفسير ليس إلا ! اننا نجد مثل تلك الأساطير في جميع حضارات الماضي من وادي الهندوس إلى جزيرة كريت .

لقد ساعدت شروط اقتصادية متماثلة على تحقيق انطلاقة حضارية واحدة ، مع اختلافات في التفاصيل بين ثقافات الشرق القديم ، وذلك منذ العصر الحجري القديم حتى الحديث وحتى الألفين الخامس والرابع ، وباستثناء أسفل الفرات ، حيث وجد منذ الألف الرابع تطور جذري اجتماعي واقتصادي وسياسي وثقافي وفكري ، نلاحظ ، امتدادا من تركستان الوسطى حتى كريت ، ومن البلقان حتى أفغانستان وبلوخستان وجود سلسلة من القرى المتمركزة من الآن فصاعدا في الأحواض الفنية قرب الأنهار الكبرى وعلى شواطئ المتوسط .

وخلال ذلك ظهرت دلائل أولية على تطور الماضي حيث أن المرأة تقوم بفلاحة البستان الصغير بوساطة المر • لقد ظهر استخدام الحيوان في الفلاحة منذ الألف الخامس • واستخدم المحراث الخشبي ، واستحدث نظام سقاية سمح باستخدام مساحة واسعة من الأرض ، ونمت من خلال ذلك خبرات اجتماعية وزراعية جديدة كانت بمثابة بذور تطور كبير ستكون سومر في أسفل الفرات المثال الأول عليه • لقد كان إنتاج الفنون اليدوية ضئيلا ومرتبطا بالبيت ، ولكن ما إن حل الألف الرابع ، حتى ظهر الجلد المصنع ، والمعادن الملونة المصنوعة على شكل أدوات مختلفة، هذا التطور في الصناعة المعدنية ربما كان الفضل به يعود إلى الصناع الإيرانيين القدماء ، كما يشهد على ذلك (ديهيه ص ٥٢) • وانتشرت نحو منتصف الألف الرابع أوائل الفخاريات الصناعية ذات الإنتاج الغزير بفضل اختراع الدولاب • وظهر الفخار المنزلي المزين ، وظهرت في أور لأول مرة حارة خاصة بصناعة الفخار •

وبذلك نمت أولى طبقات الصناع ونشأت معها تخصصات اجتماعية أخرى ، وظهر في تشاتال هيوك من خلال الحفريات أكثر من أربعين بناء ، ذا مظهر ديني ولكن وظيفته هي الإنتاج اليدوي بحضور رجال الدين • وقد لاحظنا بصورة عامة منذ العصور البائدة أن الفن قد ربط بالتفكير الديني • من جهة أخرى كانت الطريق قد شقت أيضا فيما يتعلق بالمشروع الاقتصادي والاجتماعي الذي سيؤدي إلى انقلاب جذري فيما بعد •

السكان والعامل البشري

الاسلاف - سومريون - اكاديون - اموريون - كنعانيون - آراميون - عرب

إن الحد الفاصل بين ما قبل التاريخ والتاريخ هو ظهور الكتابة دون شك .
اذ كانت أقدم الرموز التصويرية الكتابية ربما تعود الى منتصف الالف الرابع ، وقد
وجدت في حوض الفرات الاسفل - اقليم سومر - وأخرى في الشمال اتر حضريات
جديدة في جبل عروة قرب مسكنة - ايمار القديمة . إن أقدم كتابة سومرية مقرونة
لا تورخ أبعد من القرن الثلاثين ق.م . وبدءا من القرن الثامن والعشرين نستطيع
أن نستشف من خلال النصوص عوامل التطور الاقتصادي التي كانت سائدة في فترة
ما قبل التاريخ . ونستطيع الآن أن نتحدث عن السكان من خلال نصوصهم وبالتالي
معرفة لغاتهم وهوياتهم الحضارية في منطقة مفتوحة على العالم القديم .

ان عوامل التحضر والاستقرار التي ظهرت لنا جلية واضحة في فترة فجر
الحضارة ، أو ما قبل التاريخ ، بعيدة عن أن تكون قد انتهت وهي مازال قائمة
في بلادنا حتى هذا اليوم .

يعيش البدو على الحدود القريبة من وديان الانهار الكبرى . في منطقة رعوية
تسمى البادية وليست الصحراء . وهنا فان الطبيعة لا تقدم عوامل الاستقرار .
ولكنها تقدم قسما منها على الأقل . قليلا من الامطار وان قلت عن ١٠٠ مم سنويا
فانها تحيل الارض الى مراعي ترحل فيها الاغنام وأصحابها ، وقليل من ماء الينابيع
أو الواحات يكفي أيام ربيع جميل . ولكن الامر ليس دائما هكذا . قد تمر
سنوات عجاف فلا ماء ولا عشب . وهنا تدب البلبلة والخوف في قلوب البداة

فيسعون انى مخلص آخر . ويبدأ تسربهم الى مناطق الحضر ، إما سليماً وهي حالات ليست نادرة ، أو بقوة السلاح وهناك أمثلة كثيرة .

هنالك خزانان بشريان يعيشان حياة رعي وتنقل أو نصف استقرار ، يشكلان رثتين ضاعطتين على المناطق التي شهدت أوائل أنواع الاستقرار والتحضّر حول وديان الانهار الكبرى . فمن جهة هنالك البادية السورية وامتدادها في صحراء شبه الجزيرة العربية التي تشكل القسم الاول ، وتحيط بالشريط الهلالى الاخضر في العراق والشام ومن جهة الجنوب والغرب . ومن الشمال السهول الكبرى الاسيوية والاورية حول البحر الاسود والبحر القزويني . لم تكن حياة لبدوة هنا من اختيار الانسان ، وانما جفاف الارض وقلة الامطار ونفاد القوت تدفع كلها بهم الى ترك الاستقرار والعودة من جديد الى الانتقال . لقد وجدت هذه العوامل الاقتصادية الاجتماعية جنباً الى جنب مع الالوان اللغوية البشرية في مطالع التاريخ المكتوب . لقد قيض للبشر من القسم الاول والضاغط من جهة جنوب الرافدين وغربهما أن يكونوا ناطقين بلغة أو لهجات اصطلح سابقاً على تسميتها سامية وعرفت نصوصها الاولى في عصرنا هذا على أنها أكادية وأعطت هذا الاسم لجميع اللهجات الاخرى فيما بعد . وتعد الاكادية في رأس العائلة اللغوية — من حيث القدم — التي تنتمي لها لغتنا العربية وبقية اخواتها . ولا بأس ان نسمي كل لهجة باسمها ، كما يدل عليها ايضا الاقوام التي تكلمت بها .

أما من جهة الشمال فقد كان الخزان البشري يلغو بلغات لا صلة لها بالعائلة المذكورة أعلاه وسميت عائلتها بالهندو — أوربية وأقدمها الحثية والهورية مما نعرفه في نصوص الرافدين . ان المظهر الاول الخادع للصراع الذي ينتظره القارىء ربما كان صراعاً عرقياً نظراً للاختلاف اللغوي . هذا التوقع هو الذي دفع

بكتير من المؤرخين وبينهم أنصاف متخصصين أو متطفلون حتى الستينات من قرننا الذي نعيش ، الى عد تاريخ العالم القديم مهداً لمثل هذا الصراع العرقي ، دون أن ينفذوا الى قلب المشكلة وتحليل العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي تقدمها لنا النصوص اليوم . ولم يلاحظوا أن أقواماً من عائلة لغوية واحدة تدفع الواحدة منها

بالأخرى نحو الدمار ، فالיום أكاديون وغدا أموريون وكنعانيون وبعدهم أراميون ثم عرب وجميعهم من عائلة لغوية واحدة ، وما أن تستقر مجموعة وتصبح متحضرة حتى تمسك بزمام المبادرة وتقود حركات التأديب ضد البداءة أولاد عم الامس ، فالصراع بينهم ليس عرقياً ولا عنصرياً انه سجل من أجل اقتسام العيش ، نسميه اليوم صراعاً اقتصادياً اجتماعياً باصطلاح أكثر شرعية لانه قانون التعايش اليوم ، وهو لا يختلف عنه بالامس !

لقد كان لهذا الواقع دور هام في تشكيل دول العصور القديمة ، واضيف اليه ذلك الضغط المتمثل بغزو أشد خطراً قادم هذه المرة من الشمال والشرق . فقد كانت السهول الآسيوية والاوربية الشرقية مسرحاً لشعوب صنت لغوياً تحت اسم هندو اوربية ، وكان بعضهم يتسرب ويستقر في عالم المشرق وحوض المتوسط ، ثم نهياً للدفاع عن تخضره ضد غزو اخوانهم البداءة ، وإن لم يكن الحال هكذا ، أي تسرباً سليماً تدريجياً ، فهناك سجل حافل بالغزو المدمر .

هنالك ولا شك اختلافات لغوية بين هندو اوربية وسامية أو عربية قديمة . إلا أن امكان ايجاد مميزات عرقية بين البشر المتكلمين بهذه اللغات أمر صعب مثير للكثير من المشاعر المكتوبة . فاذا كانت نظرية العرق لم تثبت حتى الآن من قبل الابحاث العلمية ، الا ان ادبيات الشعوب قاطبة مليئة بنزعات التعصب العرقي . أننا لا نستطيع أيضاً أن نبحث في التاريخ القديم ومن خلال شواهد عن أمثلة لوجود عرق من العروق أو دوامه . إن الدلائل اللغوية ، وليست الدلائل المتعلقة بعلم هيئة الانسان ، هي التي تسمح لنا بتحديد فروق بين قوم وآخر وشعب وآخر ، بين لهجة وأخرى من أصل واحد . وبين لغة وأخرى من عائلتين مختلفتين ، حتى في هذه الحال ، على المؤرخ ان يكون حذراً من استنتاجاته .

لقد حلت الأكادية نهائياً محل اللغة السومرية بدءاً من بداية الألف الثانية ق.م . وحل الأكاديون وأحفادهم محل السومريين وأسلافهم غير المعروفين الى الابد ايضاً . لقد كان هنالك انصهار بين اللغتين من طبيعتين مختلفتين ، وبين شعبين لم تثبت أي

القرائن على اختلاف عرقي أو حضاري بينهما . وتم ذلك الانصهار بصورة تدريجية ودونما اصطدامات مأساوية . ان اندثار لغة ما وحلول أخرى مكانها لا يعني شيئاً في بعض الحالات ، على الأقل . وقد يعني أحياناً خضوع مدينة أو بلاد لوقت ما ، الى سلالة أجنبية . ففي جزيرة كريت مثلاً ، حلت الكتابة التي يرمز لها بالرمز آ (لأنها مجهولة حتى الآن) محل كتابة أخرى رمز لها بـ (ب) . (الآغريقية الميسينية) في غضون القرن الخامس عشر ق.م . هذا التبدل لا معنى له ، ولا تفسير له إلا بحلول سلالة هلينية في كنوسوس . أما طبقة السكان فلم تتأثر الا قليلاً كما يقول ديهيه (ص ٥٥) . ولكن في كثير من الحالات ، فان السلالة الأجنبية أو المحلية ولكن من فصيلة لغوية أخرى ، تتبنى لغة البلاد الأصلية ، ولا نستطيع معرفة ذلك إلا من خلال تحليل أسماء العلم التي تصل إلينا عن طريق الكتابات . وهكذا عرفنا ان ملوك الامبراطورية الآشورية القديمة هم في الاصل رؤساء عشائر أموريون . وعرفنا ان أسماء زعماء الميتانيين من أصل آري وهم ملوك يحملون أسماء حورية في الامبراطورية الحيثية الحديثة . من الواضح أن المسألة العرقية غير مطروحة هنا ، وحيثما لا تعكس لنا النصوص تنافراً عرقياً ، وهو أمر وهمي غالباً ، فإن جميع الفرضيات تؤول الى الفشل ولا تعد وكونها طرْحاً مجانياً . وتعليل هذا من وجهة النظر الموضوعية أن علم السلالات الانسانية (الانثروبولوجي anthropology) لا يقدم لنا معطيات ذات قيمة حقيقية الا عندما يتمكن من إقامة صلة أكيدة بين نمط لجسم انساني وتبعيته لعرق ما . وحتى يومنا هذا ، فإن الفشل هو حليف البحث العلمي في هذا المجال ، اذ لم يتمكن المتخصصون من الاتفاق على نقاط جوهرية . ولعل علم الآثار هو الذي يقدم لنا أرضية أكثر صلابة . اذ يلاحظ بعضهم ان مظاهر الاختلاف في بعض الحضارات ، يمكن أن تدفعنا للاعتقاد بوجود أصول عرقية ، وذلك في وضع تنقصنا فيه ، معلومات سياسية أو اقتصادية كافية للبرهان على أوجه التشابه . وهذه بدورها لا تحمل أي معنى ، الا اذا كانت تتعلق بمعطيات أقل تأثراً بالخارج وأنماطه ودرجه ، والاقل تصديراً اليه ، وبخاصة أدوات الاستعمال اليومية من الفخار ، وهنا نجد ان الشروط الاقتصادية الواحدة لا يمكن أن تفسر أوجه تشابه عرقي . ان اختلافها وحده هو الذي قد يساعدنا على ايجاد بعض أوجه القرابة بين الشعوب .

اننا لا نستطيع ان ننسب المراحل الاولى لحضارة العصر الحجري الحديث الى أي من المجموعتين البشريتين أسلاف العرب الساميين أو الهندو أوريين ، فكلاهما تتشكل من أعراق لا يُعرف عنها الكثير على صعيد النسب . وإن اصطناع هذا التقسيم من قبل المؤرخين ، لا يعدو كونه اصطلاحاً مبنياً على معطيات لغوية ، لا يخدمنا إلا بتحديد مواقع عيشهم الاولى بصورة تقريبية ، مجموعة كانت تعيش في السهول الاسيوية - الاوربية ، واخرى على أطراف البحر الابيض المتوسط وسهوله وصحاريه الداخلية (بما فيها الجزيرة العربية) . ولقد ساعدتنا المكتشفات الكتابية ومقارناتها اللغوية على استكشاف بعض الروابط الحضارية لمجموعة دون اخرى ، وظل بعض المجموعات الهامة من القسمين مجهولاً لغوياً ، ولكن الدلائل الاثرية تشير اليها بوضوح . وظل بعضها الآخر مشكلة عالقة تحتاج لدلائل لغوية جديدة قد لا نحصل عليها أبداً ، وقد يعثر عليها المنقبون ذات يوم ، واولى تلك المشكلات العلمية اللغوية العالقة هي اللغة السومرية ، وكذلك ظهور السومريين ! وهم الشعب الذي نعرف عنه الكثير وما يزال يطبع حضارتنا العربية بطابعه منذ خمسة آلاف سنة . وهم المؤسسون لاقدام حضارة مدنية في جنوب الرافدين ، هذه الحضارة لا يمكن ان تنسب اليهم وحدهم . إذ نلاحظ ان أقدم المراكز الحضارية في مدينة أريدو Eridu جنوب العراق تعود الى نهاية الالف السادس ق.م . ولا نستطيع الجزم اذا كان سكانها آنذاك سومريين ، من جهة أخرى ، إذا كان هنالك بعض الاستمرارية الحضارية ، حتى العصور التاريخية - أي حتى ظهور الكتابة - ولا سيما في مجال مخطط بناء المعابد ، فان اسمي النهرين الكبيرين - الفرات والدجلة - واسمي أكبر مدينتين ، هذه الاسماء ليست من أصول لغوية سومرية ، بل تعود الى اصول أقدم غالباً . وعلى هذا فمن المعتقد أن السومريين لم يكونوا وحدهم في جنوب الرافدين منذ ذلك الوقت المبكر ، ولربما كان وجودهم قد سبق ظهور كتابتهم بزمان ليس ببعيد ، ويعود غالباً الى نهاية الالف الرابع ق.م ، الذي تميز بظهور كتابتهم وهي الاولى في تاريخ الحضارة الانسانية . ومع ذلك فان قوانين التطور الاقتصادي والاجتماعي ليست كافية لشرح بعض التبدلات مثل استبدال الفخار القديم بأخر مصنوع على عجلة وغير مزين . وهو صناعة كانت معروفة

ومستخدمة في جميع المناطق ، أما ما يتعلق بأقدم النصوص فهي ما تزال غامضة ولم يتوصل علماء اللغات الى فك رموز اشاراتها ، ونجهل اذا كانت لغة تلك النصوص سومرية أو غير سومرية * ومن جهة اخرى ، اذا كانت حضارة السومريين قد ولدت في وسط بشري مزيج بين مقيمين قداماء وقادمين جدد وهو الاحتمال الأكثر موضوعية وإنسانية ، فإننا نجهل حتى الآن اصول الطرفين ؟ كما أن جميع المحاولات المتعلقة بربط اللغة السومرية بلغات توصف بأنها لاصقة معروفة ، قد باءت بالفشل حتى الآن ، كذلك فشلت محاولات ربطها بالقوقازية أو التبتية عن طريق دلائل عامة وليست قاطعة ، إذ أن استخدام نهايات لاصقة أو جذور كأفعال أو مصادر اسمية ، أمر شائع في كثير من اللغات * .

على أي حال ، إن التعايش الواضح بين مجموعة لهجات ولغات - وهو ما عكسته النصوص في العصور التاريخية - يدلنا على وجود مزيج إنساني بين قدامى مستقرين ووافدين في طريق الاستقرار ، ووجود موجات متتابعة وجامحة من العناصر الانسانية الجديدة * .

إذا توجهنا الى الشرق ، الى بلاد عيلام وعاصمتها المعروفة سوزة فإننا نجد شيئاً من الغموض ما يزال يلغى بمعارفنا حول اللغة العيلامية واصول العيلاميين ، فقد أسس هؤلاء حضارة متميزة أيضاً ، ما تزال نصوصها الأكثر قدماً مستعصية على الترجمة والفهم ، وهي تعود لنهاية الالف الرابع * ويعتقد ان ما قبل العيلاميين - ونجهل هويتهم العرقية - قد كانوا وراءها * ومهما يكن من أمر ، فإن تأثيرهم بالحضارة السومرية يبدو جلياً واضحاً بدءاً من الالف الثالث ، وهذا ما يفقدنا امكان عند جماعة ما قبل العيلاميين هم أسلاف العيلاميين الذين أقاموا سلالات حاكمة في سوزة بدءاً من الالف الثاني وحتى القرن السابع ق.م * . كما أننا نجهل كثيراً عن العيلاميين أنفسهم ومرد هذا صعوبة فهم نصوصهم التي فككت رموزها منذ وقت قريب وحسب * .

هناك بعض مظاهر الترابط العرقي مع مناطق زاغروس وبخاصة لورستان ، ولكن نستطيع القول ان عناصر سلافية من اصول عربية - سامية قد امتزجت منذ

وقت مبكر مع العيلاميين . ونجد من جهة أخرى ، ان الرافديين — بخاصة أكاديين — كانوا يعدون من خلال حولياتهم ، جيرانهم العيلاميين أعداءً أجانب عنهم . وهذه أسوأ المعلومات التي قد تدفع ببعض المؤرخين الى عدها أساساً لإثبات وجود تباين عرقي بين الطرفين !..

ونجد في أقصى الطرف الشرقي من الهضبة الإيرانية ، حضارة مدنية ثالثة قد نمت وتطورت في وادي الهندوس . وهي تبدو على علاقة وطيدة مع الثقافات الحضرية الإيرانية ، وهكذا بالنسبة لآرياف بلوختان وأواسط أفغانستان . ورغم قلة الأمثلة الأثرية في وادي الهندوس . الا أننا نلاحظ تطور أوائل المواقع الحضرية منذ القرن الثلاثين ق.م . وظهور نوع من الكتابة بعد هذا التاريخ . ولكنها للأسف لم تسلم اسرارها حتى اليوم على الرغم من المحاولات المتعددة لفك رموزها ، ولهذا فإننا نهمل الى أي مجموعة لغوية تنسب لغة سكان الهندوس القدماء ، وبالتالي لا يمكننا التفكير بنسبتهم الى أية مجموعة عرقية . ولكن يمكن طرح بعض الاستنتاجات ، فإذا لم يكونوا أصلاً من مناطق بلوختان فانهم ليسوا آريين ! هذا وتختفي أمامنا حضارة وادي الهندوس نحو منتصف القرن الثامن عشر ق.م ، بعيد تدفق الآريين وغزوهم لكثير من المناطق في الهند وإيران والرافديين . وفي ذلك الزمن ظهر الحوريون لأول مرة من خلال أسمائهم التي دونت في نصوص الرافديين ، ونجدهم في شمال سورية من خلال نصوص ماري ثم الألاخ وأوجاريت ، ونوزي ويدلنا تحليل أسمائهم على ان لغتهم من عائلة أجنبية على الرافديين ، وهي آريية (هندو — أوربية) . ويعتقد أن نقطة انطلاقهم الأولى هي جبال إيران الشمالية الغربية والهضبة الأرمينية . ثم ظهرت بعض اماراتهم بعد القرن الثامن عشر في شمال سورية (الخابور) . وشكلوا نحو القرن الخامس عشر المملكة الحورية — الميتانية ، التي دامت قرابة قرنين من الزمان لم يكن لها من منافس سوى دولة الفراعنة المصرية ، الى أن قضى عليها الآشوريون ، وبذلك انتهى دورهم السياسي الى الابد ، واختفت آثار لغتهم من النصوص الرافدية ، ولم يتركوا على ما يبدو نصوصاً حورية خالصة إلا ما ندر ، وهذا ما يعقد عمل اللغويين ويجعل الحورية لغة غير واضحة تماماً . وهي تبدو من خلال نصوصها القليلة ، من عداد اللغات اللاصقة ، ولكن

دون أية صلة مع السومرية ، ولكنها تقدم بعض أوجه القرابة مع بعض اللغات القوقازية المعاصرة وكذلك الاورارتية . ونعلم ان السكان الاورارتيين قد استوطنوا مناطق بحيرة فان (Van) في أرمينية المعاصرة منذ بداية الالف الثاني ق.م . ونجهل اصولهم ما قبل هذا التاريخ . وتختفى آثارهم اللغوية فيما بعد . ولربما كان أقدم أسلافهم رعاة في السهول المجاورة الأرمينية . يضاف الى تلك القائمة من الشعوب الكاشيون أو الكاسيون الذين ظهروا في وسط بلاد الرافدين منذ القرن السادس عشر ق.م ، قادمين ، دون شك ، من جهات زاغروس . ولكنهم تمثلوا اللغة البابلية الى درجة ضياع آثارهم اللغوية .

وهكذا نلاحظ ان الغموض يلف باصول معظم الشعوب التي تدفقت على انعالم القديم من الشمال والشرق ، وحملت معها ثقافتها الريفية ومن ثم شاركت في بناء الحضارات الكبرى التي تعاظمت في عصر البرونز وانتشارها (ديهيه ص ٥٨) . كذلك تنقصنا المعلومات الكتابية والاثرية فيما يتعاق بسكان شواطئ البحر المتوسط قبل الالف الثالث . وبخاصة شواطئ سورية وفلسطين ، وقبل ان تنتشر في ربوعها جموع الكنعانيين والاموريين .

من جهة أخرى ، ساعدتنا لغة نصوص خاخي (التي وجدت في عاصمة الحثيين - حاتوشا - قرب أنقرة اليوم وتعود للالف الثاني فقط) على معرفة أصول الحثيين الهنـدو - اوريية . وألقت بعض الأضواء على لغة سكان الاناضول في الالف الثالث ق.م . التي يفترض بها أن تكون لغة اما للحثية .

من جهة أخرى يميل بعض اللغويين الى اقامة صلة بين سكان الاناضول في الالف الثالث وسكان بحر ايجة لا بل منذ العصر الحجزي الحديث والنحاسي ثم البرونز القديم . ويفسر المؤرخون ذلك بوجود قرابة انسانية ولغوية حتى بين سكان البلقان وبحر ايجة من جهة والاناضول من جهة أخرى ، ويستند اللغويون في ذلك الى أن بعض الكلمات التي تنتهي بـ ss (و « نث » « nth » أو « اند »

« and » بالآغريقية ، ليست من اصول هيلينية مثل : بارناسوس Parnassos كورينثوس Corinthos الخ . . تنتمي هذه الكلمات الى عبارات مشتركة من أصول متوسطة أو ما قبل الهندو أوروبية (ديهيه ص ٥٩) . ويرى علماء آخرون وفق المرجع السابق أن أقواماً أخرى هم اللوقيون Louvi (tes) وهم من الهندو أوروبيين نعلم أنهم استقروا في الأناضول قبل الحثيين كانوا وراء وجود تلك الجذور اللغوية المتبقية آتفة الذكر . على أية حال فقد أظهرت أعمال لغوية حديثة أن كلتا الفرضيتين لا تستند الى معلومات متنوعة وأكيدة (المرجع نفسه) . وعلى هذا تبقى المساعي التي تبذل لمعرفة الاصول اللغوية للأناضول وبحر ايجه محنوقة بالمخاطر ، ولكن نستطيع أن نتصور أن هؤلاء السكان كانوا أسلافاً للحضارة الكرتية في الألفين الثالث والثاني . ولكن للأسف دون أن تترك لنا تلك الحضارة كتابات كما هي الحال في مصر والرافدين ، إذ أن كتابة كرتية نادرة ومجهولة القراءة ظهرت حتى الآن لم تكن معلوماتنا عن جذور الحضارة الهلينية . وهناك من يعتقد أن جذور الحضارة الكرتية تعود الى سورية والرافدين وأن السكان قد ركبوا البحر منذ عصور ما قبل التاريخ واستقروا في جزر بحر ايجه ومنها كريت ، ولكن لا توجد براهين تدعم هذا الاعتقاد (ديهيه ص ٥٩) .

من جهة أخرى كونت الجزيرة العربية وبلاد الشام وبخاصة الشريط الأخضر الموطن الاقدم لاسلاف الاكاديين والعرب وكانت حياة البداوة تفرض على السكان التنقل تارة والاستقرار والعمل الزراعي تارة أخرى . ولقد تسرب هؤلاء السكان بدوا وأنصاف مستقرين منذ نهاية الألف الرابع الى أطراف وادي الفرات والسهول الخصبة الماطرة في الشام والعراق . حيث دلت عليهم آثارهم ، وعرفوا فيما بعد بالاكاديين في الجهات الشرقية والاموريين في الجهات الغربية ، ولهذا يستسهل بعض المؤرخين باطلاق تسمية ساميين شرقيين وغربيين .

لقد ظهر الاكاديون كأول قوم « سامي » سلفي للعرب منذ مطلع الألف الثالث واستقروا في بلاد الرافدين حول مدينتي كيش Kish وآشور Assour وحول مدينة ماري ، واستطاعوا أن يحلوا محل الطبقة السكالية المتحضرة التي سبقتهم والتي لم

تترك لنا أثراً لغوياً يدل على أصولها . ولكن الأكاديين الذين سكنوا مناطق الفرات
الاسفل امتزجوا بالنومريين وتأثروا بحضارتهم واستطاعوا بعيد أواسط الألف
الثالث أن يؤسسوا أول امبراطورية في تاريخ العرب والعالم ، وعرفت عاصمتها من
خلال النصوص فقط وهي أكاد والأصح « أجاد » ، وهكذا ينتسب الأكاديون الى
اسم مدينتهم وعاصمة امبراطوريتهم الشهيرة . وحقت لغتهم نصراً ساحقاً على اللغة
السومرية التي اندثرت كلغة رسمية وبقيت حية في الأكادية ، وتحولت الأكادية فيما
بعد الى لهجتين شمالية آشورية وجنوبية بابلية وسارتا لغة السياسة والادب والفكر
بدءاً من مطلع الألف الثاني ق.م وحتى ظهور السيد المسيح .

أما الغربيون أو الاموريون والكنعانيون فقد استقروا منذ نهايات الألف
الثالث في سورية وسواحلها ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن ، وحلوا محل الحضارة
البرونزية القديمة منذ القرن الثالث والعشرين تقريباً في تلك المناطق ، من جهة أخرى
نجهل الأصول اللغوية لحضارة البرونز القديم التي سبقت توضع الاموريين
والكنعانيين هؤلاء الذين بدأوا على ما يبدو تطوراً حضارياً بطيئاً سيذوم بضعة
قرون قبل أن توثق ثماره في بدايات الألف الثاني . وحيث ظهرت مدن تحصل أسماء
قديمة مثل أريحا (Jéricho) و جبيل (بيبلوس) Biblos شمال بيروت . وما إن حل
القرن التاسع قبل الميلاد حتى اتخذت بلاد الشام طابعاً أمورياً
كنعانياً سلفياً للعرب بصورة أبدية . ولم تتأثر فيما بعد اثر قدوم
عناصر اجنبية كالحوريين وغيرهم . واستمر تسرب السكان البدو من البوادي
المجاورة حيث لعبوا مع اخوانهم دوراً حضارياً هاماً ، وظهرت فيما بعد لهجات محلية
أوجاريتية وجبلأوية (نسبة الى جبيل) وفلسطينية قديمة (لهجة محفوظات تل
العمارنة) وآرامية التوراة وجميعها تنتمي الى لغة أم هي الأكادية الشرقية والامورية
الغربية اللتان أعطتنا محفوظات ونصوصاً تعود للآلف الثالث . وبخاصة نصوص
ماري وابلا والكتابات الملكية الأكادية .

أما وادي الفرات (بلاد الرافدين) فقد شغله الاموريون الذين كما ذكرنا قد
خلفوا اخوانهم الأكاديين وكانوا أحد الأسباب الرئيسة في انهاء السيطرة السياسية

لسلالة أور الثالثة السومرية ، التي نهضت لفترة قصيرة في أعقاب انهيار امبراطورية أكاد . واستقر هؤلاء الاموريون في مدن سورية متعددة ، ولكنهم استطاعوا في مستهل الالف الثاني أن يسيطروا على مجمل مدن العراق وسورية ولبنان وفلسطين ، أما أشهر مدنها فكانت في جنوب العراق ، لارسا وبابل واشنونا وآشور وماري ، وظلت لغة أسلافهم الاكادية لغة الحضارة الى حد ما مع تسرب لهجتهم اليها . تلك اللهجة التي اختلف العلماء في تصنيفها نظرا لانعدام نصوصها . اذ ظهرت السلالات الامورية في بابل وماري وآشور وحلب وكأنها استمرار للغة والديانة الاكادية السومرية . ولعل هذا التمثل السريع لحضارة الاجداد اكبر برهان على أن لهجة أمورو ولهجة أكاد لا تختلفان عن بعضهما أكثر مما تختلف اللهجة العربية لأهل العراق ولهجة أهل الشام في عصرنا . ولكن يصعب على اللغويين الاوربيين ان يعدوا لهجة أمورو ولهجة أكاد لغة واحدة ، نظرا لاعتبارهم اختلاف اللهجة والنطق الصوتي اختلافا لغويا أساسيا ١ .

وظهرت أقوام بدوية شقيقة للأوريين والاكاديين ، ولكنها لم تحتل مكانة سياسية هامة ، نذكر منهم : أهل خانا (الخانيين) وبنو يامين الذين ظهروا في عصر ماري وآشور في غضون القرن الثامن عشر . والسوتيين في شمال سورية الذين كانوا يزعمون دولة آشور ، وأخيراً الاراميين الذين سيكون لهم شأن سياسي وحضاري لا يختلف عن أسلافهم الاموريين والاكاديين . فقد وصل انتشار قبائلهم الى شواطئ المتوسط وغمروا مناطق وادي الفرات وسهول سورية والعراق في غضون القرن الثاني عشر ق.م . وأسسوا ممالك وإمارات في جميع أنحاء سورية وظهرت خلافتهم القبلية وكذلك خلافتهم مع أقربائهم في فلسطين والساحل عامة . وامتد نفوذ مسالكهم شمالا من التخوم ذات التوطن البحتي (جبال طوروس) الى الجنوب (دمشق) وتخوم فلسطين . وقد حمل عبء قتال هذه الممالك الدولة الآشورية الحديثة في شمال سورية والعراق التي ما تزال تحتفظ بقواها ، ولكن رغم هذا ، فقد تسرب الاراميون لغة ومساكن حتى قلب آشور وبابل وقبل أن تنهار تلك الدولتان العظيمتان كانت الآرامية قد غدت لغة بلاد الشام وبلاد الرافدين بلا منازع وأزاحت الاكادية الأم التي تكلم بها الناس أكثر من ألفي سنة . وتحولت اللغة

الآرامية إلى لغة دولية يسهل استخدامها بفضل أبجديتها العملية ، وهجر النسخ تلك الكتابة المسارية السحرية الصعبة .

وكان آخر تغلغل للبدو في ذلك المناخ هو العرب حيث ذكرهم شلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤) وكانوا قد بدأوا بازعاج مراكز السلطة السياسية الرافدية (البابلية - الآشورية) . ولكن دون أن يكون لهم دور مميز آنذاك سوى مساعدتهم ملوك آشور أثناء حملاتهم ضد المصريين ، هؤلاء الذين شنوا ضدهم بعض الحملات التأديبية .

هندو - أوريون

لقد واجه التوطن والاستقرار السلفي للعرب أخطاراً خارجية منذ ظهور الأكاديين . فقد دخل على ساحة المشرق العربي أقوام اصطلاح لغويا على تسميتهم هندو - أورية . نظراً لاختلافهم اللغوي ومن ثم العرقي عن السكان الأصليين أسلاف العرب ، وقد أضافوا جملة من المشكلات السياسية والمكانية واللغوية في المنطقة ومنذ ذلك الوقت المبكر . أو ذلك الوقت الذي نجهل تماماً بعده . ولكن النصوص المكتوبة تجعلنا نقدر أن هذا الاختلاط والتسرب الهندو-أوري قد بدأ منذ مطلع الألف الثاني ق.م . وكانوا أقواماً بدوية أو نصف بدوية وقرويين يسعون إلى مزيد من الرزق والسلطة إذا ما سئحت الفرصة ، ولم يكن هؤلاء الهندو - أوريون كما يصورهم بعضهم سلسلة من البدو تقوم بالحرب والدمار ، بل كان بعضهم قد وصل إلى مرحلة متطورة من التحضر حيث إن كلمته قمح في الحضارة الميسينية هي من أصل هندو-أوري . وبما أن اسمي النبيذ والزيتون من أصل سابق لهم فمن البدهي أن يكونوا قد مارسوا الزراعة قبل أن يتوجهوا إلى المناطق الأكثر خصباً في وادي الرافدين ومناطق بحر إيجة .

يبدو منطقياً أن نقاط بدء أولئك الهندو أوريين كانت في سهول أوربا الآسيوية ، كما يدل على ذلك بعض العوامل اللغوية ، المتبقية في اللغات الآرية ، فاسم شجر الزان المشترك في جميع اللغات الهندو - أورية قد جعل بعض المؤرخين

يعتقدون بأنهم جميعاً قد عاشوا قرب سهول الدانوب وروسيا الغربية ، ولكن هذا التحليل غير مقنع لأن تلك الأشجار كانت منتشرة منذ فترة ما قبل التاريخ في مناطق أخرى !

وان هذا التحليل الخاص الذي يهدف الى استنتاج امكان وجود عرق صاف عاش في اقليم محدود ، قد سقط مع المعطيات الحديثة التي أثبتت ان الانسان كان على اختلاط وتمازج دائم ، وهذه هي ميزته الحضارية والانسانية الرائعة ، وهكذا فلا وجود لما يسمى لتسميته العرق الهندو أوروبي ولا وجود لعرق « سامي » أو عربي أو أي عرق صاف آخر كما أسلفنا ! بل هناك حضارة تتميز بخصال لغوية واجتماعية لكل مجموعة انسانية . (ديهيه ص ٩٢) .

لقد ظهرت أوائل الآثار اللغوية الهندو أوروبية في أسماء العلم التي ذكرتها نصوص لا تعود لأبعد من الالف الثاني قبل الميلاد . وكانت أصولها اللغوية حشية هؤلاء الذين بدأوا بتأسيس اماراتهم في أواسط الاناضول وغربها منذ ذلك الوقت على وجه التقريب . وظهر الى جانبهم أقوام أقل أهمية منهم هم اللوثيون ، علما بأن اللغة الحشية التي وجدت في نصوص محفوظات عاصمتهم (خاتي) أو حاتي لاتتضمن أكثر من مئة كلمة هندو أوروبية . ثم إن الحثيين قد حلوا فوق طبقة حضارية أقدم ومجهولة ولكن مستوطنات الاشوريين التي وصلت الى أعماق الاناضول وازدهرت في نهايات القرن العشرين والقرن التاسع عشر ربما تلقي مزيدا من الضوء على تركيب السكان في الاناضول قبل ظهور الهندو أوريين ، ونعني بذلك أن سورية والعراق كانت على اتصال مباشر منذ الالف الثالث في عصر الامبراطورية الاكادية ، ولكن للأسف لا توجد نصوص لغوية تسيطر اللثام عن هوية السكان آنذاك . في حين كانت لغة المستوطنات الاشورية هي اللغة الاكادية أو الاشورية القديمة . ولا توجد لدينا شواهد توضح كيف سيطر الحثيون على الاناضول ومن هم الذين سبقوهم في تحضيرها وتعزيز السلطة فيها ، رغم أننا نؤمن أن الاشوريين وأسلافهم الاكاديين لم يكونوا بعيدين عنها . ان أول اسم لشخصية حشية هو أنيتا Anita الذي أسس الحجر الاول لما عرف فيما بعد الامبراطورية الحشية في مدينة خاتوشا (خاتي) . من

جهة أخرى فإن تبني الحثيين للكتابة المسمارية الأكادية يدل على أنهم كانوا على اتصال مباشر معهم منذ وقت بعيد غير معروف ، كما هي الحال عندما قدم الترك المغول من آسيا الشرقية وسكنوا الأناضول في العصور الوسطى ومن ثم تبسوا الاسلام واللغة والكتابة العربية ، وصاروا هم الطبقة الحضارية الرئيسة فيها .

لقد أظهرت الحفائر الأثرية ، من جهة أخرى ، أن هناك قرابة في طرائق العبادة بين الحثيين ومن سلفهم في الأناضول .

أما من جهة بحر إيجه ، فلقد ظهرت لنا مشكلة من القبيل ذاته تتعلق بالحضارة المسيية وهويتها اللغوية على الأقل ، حيث أنها لم تترك لنا كتابات هامة مقروءة ولكن المقدّر أن فك رموز الخط الكتابي الذي لم يعرف له اسم وإنما أعطى الرمز (ب - B) أن اللغة المسيية كانت سائدة في بحر إيجه منذ القرن التاسع أو الثامن عشر ق.م ؟ من جهة أخرى تتشابه حضارة ميسينيا من حيث اتجاهها اليديوي الفخاري والبرونزي مع مثلتها في الأناضول . وهذا ما يدفع للاعتقاد بأن المجموعات البشرية هي واحدة وأن الهند أوريين هم وراء ذلك النهوض الجديد في الأناضول وإيجه وهذا يعني أن طلائعهم قد وصلت مقدونية واليونان . إن الاشارات الكتابية المسمارية التي استعملها أوائل الحثيين هي من نمط بدئي قديم تعود الى ما قبل القرن التاسع عشر ق.م ، حيث كانوا على اتصال مباشر مع حضارة بلاد الرافدين كما أسلفنا واستعاروا منها الكتابة . وعلى هذا فإن غياب الشواهد الكتابية في الأناضول في فترة الألف الثالث لا تعني انقطاعاً حضارياً أو سكانياً فمنذ بداية عصر البرونز القديم في بدايات الألف الثالث ق.م ، اكتشفت أدوات مرافقة للميت في قبور الملوك في ألاديا هيوك Aladja Huyuk حيث تتشابه محتوياتها مع أدوات القبور في العصور اللاحقة ، وبخاصة عصا الملكية (ديهيه ٥٧٠) التي يحملها الملوك الحثيون في مشاهدتهم الفنية النحتية ، وكذلك تمثيل الأيل ذي القرن المتشعب والذي يرمز الى الدور النفسي التخيفي والتهويلي الذي يلعبه الملك الحثي من خلال هذا الحيوان . وهكذا تلمس وجود اتصال واستمرارية بين سكان العصر البرونزي القديم الأناضولي وبين ظهور الحثيين في بدايات الألف الثاني .

من جهة أخرى ، تبرز مشكلة مماثلة تتعلق بمناطق بحر ايجه كما يعبر عنها ديهيه (ص ٦٣) ، حيث أن فك رموز الخط الكتابي الميسيني الذي يرمز له بالحرف (ب • B) من قبل فنترس Ventris قد أثبت أن الميسينيين كانوا يتكلمون لهجة اغريقية منذ القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م • ويتساءل ديهيه (المكان نفسه) • ولكن في أي وقت استقر الهنـدو أورييون في جزر بحر إيجه ؟ إن الحضارة الهلادية (نسبة إلى منطقة هلاـد Hellade في بلاد الاغريق) التي ازدهرت في القرنين التاسع عشر والثامن عشر ق.م تنسب عادة إلى سكان هـلـلـنـيـن (نسبة إلى هـلـلـن Hellen في الاسطورة الاغريقية ، حيث هو ابن دو كاليون و « بيرها » جدان اسطوريان للهلنيين أو الاغريق) • ولكن عصر البرونز القديم ينسب بظهور الحضارة الميسينية • وهو يتشابه مع مثيله في الاناضول بصورة واضحة وبخاصة الفخار ، وحلي الزينة ، وصناعة الاسلحة والادوات • فإذا أضفنا هذه الملاحظات إلى أخرى تدل على انقطاع واضح بين العصر النحاسي والعصر الذي يليه (البرونز القديم) في كل من الاناضول وبلاد الاغريق ، فإننا نستطيع أن نفترض أن وصول الهنـدو أورييون إلى المنطقتين يحدد قبيل أواسط الالف الثالث ق.م • كما يمكن أن نستنتج أنهم وصلوا إلى مناطق الدانوب في الفترة ذاتها •

ويبدو أن جزيرة كريت قد تأثرت بهذه المرحلة وبخاصة على سواحلها الشرقية ولكن القادمين الجدد ، سرعان ما ذابوا مع السكان القدماء • ويجب ألا ننسى أن النصوص القليلة التي عثر عليها في قصر كنوسوس Cnossos قد قدمت لنا عددا لا بأس به من الاسماء الاغريقية الاصل التي كانت ولا شك منتشرة في جزيرة كريت وبحملها أناس يعملون في مهن مختلفة • ولكن ربما لا يكفي هذا الشاهد وكذلك قيام سلالة من أصل هلليني لبضع عشرات السنين لاثبات غلبة العنصر الهليني منذ هذا الوقت المبكر •

ينتمي القادمون الغزاة في كل من الاناضول وبلاد الاغريق إلى أحد الفرعين الرئيسيين للعائلة اللغوية الهندو أوروبية وهو المجموعة المسماة سنتوم (نسبة إلى الرقم مئة سنتوم Centum) • إن اللغة الحثية التي تترابط بشكل واضح مع

اللغتين التركستانية الشرقية والتوكرانية ، ربما تبرهن على أن الحثيين قدموا مسن السهول القزوينية عن طريق منطقة دربنت Derbent وليس عن طريق بلاد الدانوب كما كان يعتقد سابقا . وتبدو المشكلة أكثر تعقيدا فيما يتعلق بالمؤرخين في الأناضول الغربية والأغريق ، حيث لم تتمكن أية فرضية تتعلق بأصولهم من أن تقدم براهين كافية . ولا يمكن التقدم في هذا المجال إلا بعد وضع تسلسل تاريخي نسبي لجميع التلال الأثرية في الأناضول والبلقان .

كما يعتقد أن الحضارة الريفية ونصف المدنية التي قامت في أواسط تركستان قد ساهم بها الهنـدو أورييون والتي نستطيع تتبع آثارها حتى نهاية الألف الرابع ق.م . انها تتشابه مع بعض الثقافات الريفية في السهول الأوربية الآسيوية في نطاق حبي الزينة والأدوات ، كما تتشابه مع الثقافات الأناضولية والإيجية . ولكن للأسف فإن تلك الثقافات تنطفئ بصورة تدريجية وتختفي نهائيا في بدايات الألف الثانية دون أن تترك آثارا كتابية تدل عليها . ولا ندري إلى أي من الفرعين اللغويين الهنـدو أورييين سنتوم أو ساتم Satem (أي الرمزين المختلفين للتعبير عن الرقم ستة) ينتميان .

لقد ظهر أوائل الهنـدو أورييين الذين تكلموا لغة تصنف مع فرع ساتم الهنـدو أوريي في الربع الثاني من الألف الثاني ق.م . ولأول مرة في التاريخ . وراهم يتسربون بأعداد صغيرة في بلاد الرافدين وسورية وفلسطين وكذلك في وادي السند (الهندوس) . ولم يعرف الآريون إلا من خلال أسمائهم في بلاد الرافدين وسورية وفلسطين ، ونعني بتلك الأسماء أسماء ملوك الميتانيين وبعض الكاشيين . وهذا يدل على احتمال وجود مجموعات محاربة صغيرة من أصول أجنبية استطاعت أن تتكاثرت وتجر خلفها بعض الفصائل الحورية لتشكل سلالات حاكمة . وكان الهمم يحمل اسماً هندياً (ن ديهيه ص ٦٤) . كما عثر على وثيقة مكتوبة في العاصمة خاخي تتضمن بعض الأسماء التي تستخدم في مجال تربية الخيول من أصل هندي (ن. نفسه) . لقد تكلم هؤلاء الآريون على الأغلب لهجة هندية قديمة سبقت المرحلة التي ظهر فيها الكتاب المقدس الهندي الراجفيدا .

Rigvédex بقرون متعددة ، علما بأن أشعار الفيدا Veda التي تؤلف الكتاب آتف الذكر ، لا يعود أقدم أسطرها لأكثر من القرن الحادي عشر أو العاشر قبل الميلاد . ومن المؤكد أن هذه النصوص قد كتب في وقت لاحق أي بعد قدوم الآريين إلى الهند حيث يظهرون بمظهر بطولي .

لقد كانوا مجهزين بالعربات يقودهم الهيم المسمى اندرا Indra ويبدو أنهم قاموا بتدمير الحصون في طريقهم التي تنسب إلى « البربر » الذين ينسب اليهم انشاؤها في مدن حضارة وادي السند وبخاصة مدينتي خارابا Harappa وموهنجو دارو Mohenjo Daro اللتين هجرتا في نحو القرن السابع عشر ق.م . من جهة أخرى ، ونتيجة أبحاث جديدة (ن. ديشايبه ص ٦٤) فإن اختفاء حضارة وادي السند قبل الآريين أي تلك التي ازدهرت في مطلع الالف الثاني ، يعزى إلى الكوارث الطبيعية وبخاصة الطوفانات التي دمرت اقتصاد وادي السند ، وليس الغزو . كما أن المواقع المدمرة قد سكنت من جديد من قبل السكان المجاورين القادمين من بلوخستان وربما من إيران : أما بالنسبة للآريين فقد مارسوا حياة نصف بدوية ولهذا لا نجد كثيرا من آثارهم المادية في الالف الثاني ق.م .

من جهة أخرى ، فقد جذب المشرق العربي القديم وشواطئ المتوسط هؤلاء الهندو أوريين ، نظرا لدفعه وغناه الحضاري ، ولهذا فإن ضغوطهم البشرية الحربية والسلمية التوسعية لما تتوقف ، وقد استطاعت بعض دول المشرق وبخاصة الآشوريين والحثيين والمليكيين احتواء كثير من تلك الضغوط وشن حروب تأديبية ضدهم . ولقد ساهمت أزمة القرون الأخيرة من الالف الثاني المتمثلة بغزو شعوب البحر وهجرتها ، بإضعاف تلك الضغوط وتخفيفها ، كما سنرى فيما بعد ، إلا أن بدايات الالف الأول ق.م ستشهد قدوم أقوام هندو أورية جديدة وبخاصة الآريين الذين سيظهرون لأول مرة في التاريخ حيث تصنف لغتهم مع الفرع الشرقي ساتم Satem وبينهم الميديون والفرس الذين بدأوا بالتحضر والتمركز في المدن ، ولكن تاريخ ظهورهم في الهضبة الإيرانية غير محدد تماما . ولعل بعض مجموعات منهم قد هاجرت من تركستان الوسطى نحو القرن السابع عشر ق.م واستقرت فيما بعد

شمال غرب ايران ، ولربما لعب بعضهم دوراً من خلال ما ذكرته النصوص الآشورية في القرن الحادي عشر . لقد كانت جماعات السكيثيين Scythes من البدو الايرانيين الذين دفعوا امامهم جماعات اخرى يسكنون السهول ، واجتاحوا شمال ايران والاناطول وسورية وفلسطين وهددوا مصر بالذات . وكانت آخر مجموعة هندو أوروبية ولغتها من نمط « ساتم » هم الارمن ، ولم يظهر هؤلاء على مسرح الشرق قبل القرن السابع ق . م قادمين من مناطق البحر الاسود . وقد استقروا حول بحيرة فان Van بعد تدمير مملكة اورارتو Ourartou تحت ضربات السكيثيين والميديين .

وهكذا نرى من خلال تلك اللوحة البشرية المتحركة أن الشرق وبخاصة المشرق العربي القديم ، كان متبدلاً متجدداً - ومتمازجاً في عنصره البشري - ويعود تاريخ هذا التمازج والاختلاط الى عصور أقدم تصل الى عصور ما قبل التاريخ ، ذلك أن عامل التمدن يؤدي بدوره الى نتيجتين حتميتين الاولى هي الازدهار والغنى الناتج عن تكديس الثروة الزراعية وهي التي تشد اليها البدو فيغزون ويخربون أو يستقرون سلمياً حول المدن . والنتيجة الثانية استنفاد خصوبة الارض وزيادة ملوحتها بسرعة مما يؤدي الى الجفاف وانقراض الغابة وتغير المناخ . هاتان النتيجتان تدفعان بالسكان المستقرين وبخاصة أولئك المقيمين على أطراف البادية - وبصورة نادرة بالنسبة لسكان الاحواض النهرية الكبرى - الى الانتقال والهجرة بحثاً عن أرض جديدة . وهذا ما يؤدي الى اضطرابات هامة تؤدي الى تبدلات سكانية وخلق مشكلات شديدة التعقيد .

الفصل الثالث

الدولة والحكم

إن الملاحظة الأساسية التي يخرج بها دارس ظاهرة الدولة في تاريخ المشرق عامة والمشرق العربي القديم خاصة ، هي أن مفهوم الدولة بعيد عن أن يكون له معنى مجدّد بالنسبة لكثير من السكان القدماء . لقد كان البدو الرعاة يجربون أطراف البوادي العربية وقد حافظوا بشكل قوي على نمط حياة خاصة ، منذ أزمان بعيدة . ومن جهة الشرق ، كان الخيالة الآريون يسرحون في أراضيه الإمبراطورية الأخمينية دون أن يخضعوا لأي قانون سوى أعرافهم العصبية . لقد قامت دول وإمبراطوريات وانهارت دون أن تتمكن من وضع حد لهذه الظاهرة البدوية والتقل ، ما خلا بعض الظروف الطبيعية أو السياسية التي كانت تجبرهم على الخضوع والاستقرار ، والامتثال لقوانين الدولة .

لقد عرف مشرقنا القديم وحتى وقت متأخر أنماط مجتمعات لم تعرف أي صفات للدولة ، ما عدا بعض الحالات الخاصة . ولم تظهر شواهد كتابية تثبتنا عنها . وسنرى أن ظهور الكتابة يعني وجود بعض التنظيم والإدارة . وهذا ويبدو أن الهضبة الإيرانية وبلوخستان وتلك المناطق التي وصلت إليها فتوح الأخمينيين حتى حدود تركستان الحالية ، قد حافظت على البنية القروية الموروثة من العصر النحاسي حتى عصر الحديد . ولم يظهر قبل ذلك أي أثر على وجود بنية دولة ، فلا وجود لأثر لأي قصر ، ولا تذكر النصوص الرافدية آنذاك أي شيء عن دولة أو ممالك بل تحدث عن مجموعات سكانية . ونعلم عن بعض تلك المجموعات السكانية أكثر ، كلما ازداد قربها من مناطق نفوذ الإمبراطوريات الرافدية أو المجاورة . ومثالنا على

ذلك الشعب المسمى « الكاشكيون » « Kaskké » الذي سكن سهول الاناضول قرب المناطق الحثية ، فقد قاتل ضدهم الملك الحثي حاتوشيلي Hattoushili ، حتى انه وقع معهم معاهدة تعكس وضعهم القبلي المتفرق ، حيث لا يظهر بينهم أي تنظيم سياسي ، وتذكر هذه المعاهدة والنصوص الحثية الاخرى أنهم ثائرون ضد السلطة الملكية (ديهيه ص ٢١٦) . وهذا يعني أن السلطة الملكية الحثية كانت تعي الموقف الذي عكسته المعاهدة ، ألا وهو أن هؤلاء الثائرين خارجون عن الاصول المتعارف عليها بالنسبة للسلطة الحثية ومؤسساتها ، تلك الاصول والتقاليد تمثل بحدد ذاتها الدولة المتحضرة آنذاك . فهي بالنسبة للسومريين (قبل الحثيين بألف سنة على الاقل) عطاء الهي للإنسان منذ أن خلق .

رغم أن اللوائح المسمارية التي تذكر قوائم السلالات المالكة هي بالتأكيد حديثة العهد بالنسبة لتاريخ تأسيس المدن الرافدية ، ولكن عشر علماء الآثار على بعض الشواهد تال على وجود تنظيم دولة في فترة ما قبل تلك القوائم السلالية وأهمها ملحقات أختام لبعض الشخصيات وكؤوس قربانية ونقوش جنازية ، وتمثل بخاصة تلك الشخصية الدينية التي كانت ولا شك ترأس الادارة والاقتصاد وأعمال الحرب في المدينة ، عندما تقتضي الظروف ، وهكذا يمكن أن تتصور أن اللقب الديني السومري (إن ، en) الذي يعني زعيما أو رئيسا هو أول تمثيل لبنية دولة في التاريخ الانساني . ويعود لأواخر الالف الرابع قبل الميلاد . وما أن ندخل التاريخ في الالف الثالث حتى تتطور المؤسسات السلطوية وتصبح الاسباب الاقتصادية والعسكرية من الدوافع الاساسية في قيام السلطات الامبراطورية ، وباختصار لتصبح البنية العسكرية والاقتصادية الممثلة بالقصر هي التجسيد الحقيقي لمجتمعنا الشرقي عامة والعربي القديم بخاصة ، وبالتالي لتطبع الحضارة القديمة بذلك الطابع .

لنذكر أيضا أن الشخصيات القديمة التي تبوأ السلطة ، لم تكن لتصل إلى ذلك ، ما لم تتمتع بصفات جسدية قوية ، وبصفات المحاربين القدماء . ويمكن تفسير هذا المظهر العسكري في حضارة المدن ، بوجود مقابل له في الحياة البدوية القبلية حيث تبرز شخصية الزعيم والرئيس المقاتل . وهذا ما أصبح من التقاليد الاساسية

حتى وقت متأخر ، حيث نجد بعض القراعة لا يقاتلون بأنفسهم ، وانما يسندون مهمة الحرب الى بعض القادة المتمرسين .

ولكننا نجد أن جميع الشخصيات القيادية في تاريخ الرافدين ومصر كانوا من المجاريين ، ولندكر شمسي أدد منذ بدايات القرن الثامن عشر ق.م مروراً بـ خمورابي البابلي الى آشور بانيبال ونبو بلاصر في نهاية القرن السادس ما قبل الميلاد . وكانت هذه هي حال القادة والملوك في الشرق عامة في بلاد الحثيين وسورية وفلسطين وفي جزر بحر ايجه حيث برز الامراء الميكينيون وامراء ملحمة الاوديسة والايادة الهوميرية ، وأخيراً ملوك الاخمينيين والافريق . وما أن ينتاب الضعف الملك أو زعيم الدولة أو يفقد قواه الحربية حتى تنهار دولته . وهكذا كانت حال مملكة خمورابي بعد موته وكذلك نبوخذ نصر الثاني كما انهارت دولة آشور القديمة بعد موت مؤسسها ومحاربها المكنك شمسي أدد وانهارت تلك الدولة مرات ومرات بعد موت مؤسسها المحاربين من مثل توكولتي نينورتا الاول وآشور بانيبال . وانهارت مملكة سليمان وانقسامها بعد مماته . ونرى في بعض الحالات النادرة حيث تسنم السلطة بعض الشخصيات الادارية غير الميالة للحرب فاننا نجد خلفهم قادة عسكريون يفرضون سيادة الدولة ويشنون الحروب التأديبية ، وهي حال ملك سوزة المسمى شيلخاك انشو شيناك Shilhak - Inshoushinak ، والملك المعروف نبوخذ نصر الثاني في بابل ، حيث كان حوله مجموعة من العسكريين الذين يهتمون بشؤون الحرب وفرض الامن الامبراطوري .

كانت آشور أكثر دول المنطقة التي برزت فيها الصفات العسكرية للملوكها ، ولأجهزتها الحربية . ونلاحظ وجود مجموعة أسماء لزعماء عشائر بدوية قد صنفوا في قوائم السلالات الملكية كملوك آشوريين وهذا يعكس الاصول البدوية للملوك القادة المحاربين . فقد قدم هؤلاء الزعماء من البوادي السورية القديمة واستقروا في المثلث الخصب المحاط بالنجلة والفرات وأقاموا تحصيناتهم حول مساكنهم ، وهكذا وجدت المدن فيما بعد بين أيدي ملوك وقادة عسكريين .

لقد كان من مهمة الملوك الآشوريين أن يوجهوا حملات عسكرية مهمتها الغزو

الى تحسين أعمال الزراعة وصيانتها وتطويرها ، والهدف النهائي هو الحصول على ثروة وافرة يستعين بها على توطيد سلطته بين الرعية . وهكذا كان حال أورو كاجينا السومري وحمورابي البابلي حيث سعى كل منهما وبالحاح من الإله « نين جيرسو » وشمش على إقامة العدل وحماية الأيتام والأرامل ، كما أن أشهر ملوك آشور قسوة وعنفاء ألا وهو سنحريب كان وراء اصلاحات اجتماعية وزراعية استفاد منها رعايا دولة آشور . أما قورش الاخميني فقد ذاع صيته فعلا كملك رحيم وإنساني ، كما اشتهر داريوس باصلاحاته الادارية التي أعجبت المؤرخين فيما بعد .

انه باسم تلك الواجبات الاخلاقية الاجتماعية ، التي تفرضها القوى الإلهية ، عمل الملوك على إقامة هيئة قضائية عليا ، تعرض أمامها جميع القضايا ، ولكن الحكم النهائي فيها يبقى معلقا بموقف الملك ونواياه . فقد عظم الملوك أنفسهم من خلال احتلالهم لهذه المكانة وخلدوا ذلك في كتاباتهم التشريعية والسياسية مثل داريوس الذي نقش على مرقده (نقش رستم) « لقد وضعت كلا في مكانه الصحيح ، والجميع يرهبون عدلي وقضائي ، بحيث لم يعد يقتل القوي الضعيف أو أن يضمر له ثرا . كما أن البطل الملحمي الاوجاريتي دان إل Danel (ن : ديشاييه ٢١٩ ، Ch. Virolleaud, la Légende Phénicienne de Danel, Paris, 1936.) قد اتخذ موقفه العادل ازاء اليتامى والأرامل . حيث يقول انه (يجلس أمام الباب ، تحت الشجرة العظيمة في الهواء الطلق ، وهنا ، يحكم بقضايا الارامل ويحصل حقوق اليتامى ..) .

وهكذا نجد أن المواهل والملوك القدماء كمحاربين واداريين وقضاة ، وبناء ليسوا الا أداة الارادة الإلهية . حتى إن كثيرا منهم قد مارس الشعائر والطقوس الدينية كوظيفة أخرى من الوظائف السابقة وهذا ما يؤكد قدمية المهمات الملكية ، وقد كان الملك يرأس الاحتفالات الدينية الكبرى وبخاصة عيد رأس السنة الربيعية فقد كان ملوك الحثيين يقومون بزيارة المعابد في البلاد برفقة زوجاتهم الملكات . لقد كان الملك على رأس الديانة والعبادات القديمة ، وليس واضحا تماما اذا كان هو ملكا وكاهنا في آن واحد . والواقع أن هذا اللقب قد ظهر أولا في ثقافة إبيروس في

مرحلة ما قبل السلالات ، كما حمله أمراء الحضارة المينوية (نسبة الى مينوس) .
والموضوع مايزال ينتظر مزيدا من الوثائق التي قد تفصح عن هذا الموقف . فإذا
أخذنا اللقب السومري إن en الذي يعني الرب والسيد الاعلى أو السماوي ، فنجد
أنه لا توجد أدلة نصية كافية على حقيقة وظائفه . وبخاصة ما يتعلق بالامراء الكريتين
(نسبة الى جزيرة كريت) حيث لم تتوافر نصوص حتى الآن عن حضارتها . بينما
نجد أن بلاد الرافدين قد تركزت فيها السلطة الملكية الدينية منذ أوائل الألف الثالث ،
التي سرعان ما انتقلت وامت المشرق القديم من إيران الى الأناضول وأورارتو والى
سورية وفلسطين .

ونجد في كل حال ، أن الوظيفة الدينية للملك ، لم تكن مجرد كونه كاهنا يقيم
الطقوس ، بل هو الرئيس الإداري له ، وهو الممثل الروحي للإله على الأرض وهو
مبعوثه ومحقق رسالته . وهو ممثل إله الخصب Dumuzi تموز السومري في عملية
الزواج المقدس الذي يتم بين هذا الإله وإلهة الخصب .

هذا الاحتفال السنوي مع بداية السنة الربيعية ، قد لعب فيه الملوك الرافديون
هذا الدور ، وتمثل ذلك فيما بعد بالإله مردوك وآشور وبعل في الحضارات
التالية . وبأسماء أخرى اغريقية ولاينية في عصور متأخرة . أن الرمز الإلهي لهذا
الدور هو إخصاب الأرض ، وبالتالي انتظار مواسم وفيرة في مجتمع كانت الزراعة
تشكل موارده الأساسي .

ويجب التأكيد هنا على أن دور الملوك المقدس هذا ، لم يكن يدفعهم لأن يحلوا
محل الآلهة تماما ، بل هم ممثلون ، ونواب - ماعدا بعض الحالات النادرة - . وكذلك
فراعنة مصر الذين عدوا أنفسهم متجسدين في الإله حوروس .

لقد كان نارام سين الأكادي حفيظا شروكين (صارجون) أول الملوك القداماء
الذين آلهوا أنفسهم ووضعوا شعاراتهم ، ولا ندرى على أية حال إذا كان المقصود
تأليهها أم أن تلك الشعارات تعني أن الملك قد تجاوز ذلك الفاصل بين الموت والقداسة ،
وأصبح خالدا ؟ لقد حمل شروكين من قبله لقب ملك المعمرة (الجهات الأربع) .

وهو لقب إلهي ولا شك ، وقد جهد الملوك اللاحقون على ابتداع ألقاب تعني صفة الكونية مثل ملك البلاد جميعها ، وملك الجهات الأربع ، وملك الكون . ولا شك أن نارام سين قد سار على خطى جده في تعظيم نفسه وتحسين صفاته وتقريبها من صفات الآلهة ، ولكن دون أن يكون هو بنفسه إلهاً ، بل ملكاً متميزاً ، نتيجة ظروف سياسية وعسكرية واقتصادية .

إن ظاهرة التأليه الملكي هذه ، قد درجت في عصر سلالة أور الثالثة . وكست المعابد للملوك المؤلهين ، مثل شوسين shusin السومري . ولكن لا يخفى أن هذا الأخير لم يؤله في مدينته بالذات ، بل في مدينة اشنونا التابعة له ، ولعل هذا يعكس وجه التملك الذي يلبسه بعض التابعين ، فيؤلهون أسياد نعمتهم ! اتنا لا نجد في مدينة أور العاصمة الأولى للملوك سومر أي معبد مكرس لملك من الملوك ، فلم يكونوا إلا نواباً ورسلاً لآلهتهم . ورغم تمسك بعض الأمراء الصغار بظاهرة التأليه هذه ، إلا أنها تختفي تماماً مع بداية الألف الثاني ق م .

من جهة أخرى فقد أله الحثيون ، وبخاصة زمن الدولة الحديثة ، ملوكهم وملكاتهم ولكن بعد موتهم ، أما العمل الفني النحتي الذي يمثل قرص الشمس بجناحين مرافقاً لأسمائهم المكتوبة بالكتابة التصويرية أو الهيروغليفية hieroglyphe إضافة إلى عبارة « شمسي » ، فإن هذه العادة قد اقتبست من قراعة مصر عن طريق سورية في عصر الدولة الميتانية .

وخلاصة القول إن تعاظم السلطة الحثية في الدولة الحديثة وقوتها في العاصمة حاتوشا قد جعل من ملوكها أكثر ملوك الشرق تأليهاً ، والواقع أن هذا التأليه ، ربما لم يكن أكثر من تجسد الملك بالإله الشمس ، وكما ذكرنا آنفاً فإن الملوك لم يكونوا في البدء إلا ممثلين ونواباً للآلهة .

ونلاحظ أنه رغم تلك العظمة التي تعكسها الألقاب والوظائف التي حملها ملوك الشرق القديم ، إلا أن هذا لم يمنع من تعرض ملكهم إلى دسائس ومؤامرات حاشيتهم الدائمة ، والتي تعكس عدم رضاهم وتعاظم نفوذهم ، وكانت الفرصة

المناسبة لقيام مثل هذه التحركات هو مناسبة وراثة على العرش . تلك الوراثة التي كانت تبدو في عصر الدولة الحثية القديمة ، وكأنها تتم وفقا لاتفاق بين زعماء عشائر وقبائل على تنصيب أقوى زعيم وأقدره بينهم . وعندما راح الملوك يخلفون آباءهم على عرش الممالك ، فقد حاولت الحاشية والأمراء الاحتفاظ والادعاء بحقها في التدخل في عملية الخلافة واعتلاء على العرش ، ولطالما تحول هذا الادعاء الى ثورة دموية تؤدي أحيانا الى تبديل جذري في التابع السلالي الوراثي واغتصاب للعرش وتأسيس سلالة شرعية أخرى . وقد تمكن الملك الحثي تليينو وحده من اجراء اصلاحات أدت الى وضع قواعد ثابتة وقوية للنظام الملكي الوراثي .

نرى أن وراثة العرش الملكي في مشرقنا العربي ، قد بدأت منذ ظهور الكتابة والقوائم السلالية مبنية على العرف الوراثي ، وقبلما نجد شذونا عن هذه القاعدة . الا أننا نتصور أن أوائل الملوك في فترة ما قبل ظهور الكتابة ، كانوا قد استولوا على عروشهم ضمن شروط خاصة تتعلق بشخصيتهم العسكرية وموقعهم الاجتماعي .

وسوف نجد أمثلة تشذ عن قاعدة الوراثة . حيث يتحول الملك من سلالة قبيلة ما الى سلالة قبيلة أخرى ، أو من سلالة محلية الى سلالة أجنبية محتلّة وصلت الى العرش بقوة الاحتلال .

لقد كان صعود داريوس الاول على العرش انقلابا متميزا على الملك الراحل قمبيز ، فهو من أصول أخمينية متواضعة ، ويبدو أنه كي يتمكن من السلطة قد أطاح بأحد أخوة قمبيز . ويبدو لنا من خلال كتابات داريوس التذكارية على صخرة بهستون Behistoun أن المدعو جوماتا Gaumata الذي قُدم فيها على أنه قد حاول اغتصاب العرش وأن داريوس قد قضى عليه ، ربما كان هو الوراث الحقيقي للعرش بعد موت قمبيز . ويتضح لنا من هذا المثال أن قاعدة الارث في الملكية قد صارت عرفا وقانونا محترمين . ولذا على مغتصب العرش أن ينقذ ماء وجهه بمسرحية تخرجه وريثا شرعيا أمام الاجيال القادمة ، ان لم يكن أمام شهوده الاحياء . كما أن عددا من الملوك قد حاولوا تجاوز قاعدة الارث في ظروف معينة ، تتعلق باختيارهم

الشخصي أو بصلحة من المصالح ، وفرضوا ، منتخبهم الخاص لخلافتهم ضد رغبات حاشية أو رعية اعتادت تقبل وريث ذي شخصية من الدرجة الثانية بدلا من خرق القاعدة . وهكذا فقد عمد أسرحدون في نينوى ، بعد موت ابنه البكر السى نعين ابنه الثالث آشور بائيال خلفا له ، مكافئا الابن الثاني بعرش بابل . ان مثل هذا التغيير في نظام الوراثة وبخاصة ذلك الذي يتم من قبل الملك وعلى حياته ، لم يكن وقفا على الملوك الآشوريين ، بل مارسه الحثيون والاخمينيون فيما بعد

ولقد برز دور الوريث المنتظر في الحياة السياسية في عهد أبيه كما أُجبرت الحاشية والاعيان على البيعة قبل موت الملك .

من جهة أخرى ، لم تكن رغبات الملك الوحيدة التي خرقت النظام الوراثي بل نجد أمثلة في التاريخ القديم ، حيث هدرت الدماء بين المتنافسين ومدعي الاحقية في العروش ، وهكذا فان صعود الملك سليمان في يهوذا قد عقبه آخر في القدس وآخر في السامرة . ونعلم أن الحوادث الدموية في أخريات أيام السلالة الاخمينية قد أدت الى القضاء التام على العائلة الملكية قبيل اعتلاء أرتاخشورس (أرتاكسيركيس) الثالث العرش ، وهو نفسه الذي وقع ضحية خسيان حريمه !

لقد تبعت الأنظمة الملكية المشرقية القديمة المثال الرافدي الممثل ببابل وآشور ، في مسألة توريث السلطة . ولكن شذ عن هذه القاعدة بلاد عيلام (دييه ص ٢٢٢) وهي التي تأثرت أكثر من غيرها بحضارة سومر وأكاد ، فقد حافظت على قاعدة الارث الملكي ، إذ أن الملك الذي يقيم في العاصمة سوزة ، قد مثله شقيقه الثاني في الاقاليم ويحمل لقب نائب الملك وهو وريث العرش ، فان مات ، فيحتل الشقيق الثالث مكانه وهكذا فالوريث الاول وهو الابن الاكبر لم يكن في الواقع الا ملكا على العاصمة سوزة . ورغم ثبات هذه القاعدة الارثية خلال تاريخ عيلام القديم ، الا أن الأمر لم يخل من ثورات الأمراء واقتتلهم من أجل الارث وبخاصة في الالف الاول قبل الميلاد .

لقد انحصرت دائرة الصراع عني الارث الملكي في العائلة الملكية ومحيطها وقد

لعبت الام الملكة دورا هاما في هذا الصراع وبخاصة بدءا من منتصف الالف الثاني قبل الميلاد . ولكن الوثائق لا تقدم مزيدا من المعلومات حول هذا الدور . وقد اشتهر في تاريخ آشور في الفترة المعنية الملكية سمورامات وهي سمير أميس (كما يسميها الاغريق) فقد مارست السلطة لمدة خمس سنوات في نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، بكونها وصية على ابنها أدد نيراري الثالث . ثم استطاعت والدته أسرحدون بقوتها وسلطانها وبعد موت هذا الأخير ، أن تدفع الى العرش ابنها آشوربانيبال وتخلق مشكلة ارثية خطيرة .

لقد تميز دور الملكة الأم بالاهمية والفعالية في دولة الحثيين أيضا . فقد كانت تحفظ بلقبها وسلطانها حتى بعد موت زوجها الملك ، مع ما يجز هذا من معارضة الحاشية واتهامهن أحيانا بممارسة السحر لتحقيق أهدافهن . ولقد قدست الملكة الأم بعد مماتها تماما كالزواج الملك .

لقد لعبت الملكة دورا هاما في العلاقات الدولية ، حيث وقعت احدها وهي بودوخيا Poudouhepa زوجة خاتوشيلي الثالث على المعاهدة الشهيرة بين مصر والحثيين عام ١٢٦٩ قبل الميلاد . كما قامت بدور فعال في المباحثات التحضيرية لزواج رعمسيس الثاني من أميرة حثية . وقد عثر على ختم ملكة أوجاريت على وثيقة تتعلق بنشاط تجاري .

لقد كان القصر الملكي هو الذي يقود الانشطة السياسية في البلاد ، أما عن الحياة السياسية العامة بالمفهوم المتأخر في أثينا وروما ، فلم يكن لها وجود بين العامة . فقد كان من المستحيل أن يظهر أي نقاش سياسي ولم يحدث أن عثرا على إنتاج أدبي أو سياسي يعكس وجوده . لقد مارس المعارضون للسلطة الملكية المركزية أنشطتهم في السر والكتمان . كما لم يحدث أن خرج الصراع السياسي على السلطة عن نطاق الاسرة والحاشية الحاكمة . وان عرفنا عنها شيئا الآن ، فهو من خلال الرسائل التي وصلت الينا بعد آلاف السنين . ان معظم ما وصل الينا من دلائل عن الحياة السياسية ، لا يعدو كونه طاعة عمياء لسلطة القصر . أما حالات

الاستياء الشعبي فقد بقيت في الظل فيما أن تنفجر وتؤدي الى تغيير شامل ، أو تقمع وتظهر بقوة السلاح . لقد ساعدت مجموعة من الامراء الاخمينيين داريوس على القيام بثورته والاستيلاء على السلطة الملكية ، ولعب هؤلاء الامراء أدوارا هامة في أثناء حكم داريوس ، وخاصة في الحرب الميدانية الثانية الا أن ذلك لم يكن مشاركة في الحياة السياسية الاخمينية .

ويفسر انعدام نظام المشاركة السياسية واقتصار اتخاذ القرارات الهامة على الملك بالعودة الى النظام القبلي التقليدي الذي أوصل بعض الزعماء الى السلطة وتحول هذا النظام الى شكل آخر يتميز بتمركز السلطة بيد الملك الجديد الذي صار مركزا لطاعة بقية الزعماء والافراد ، وقد وصفت هذه الطاعة بأنها أبوية والنظام ككل بوصف أنه نظام أبوي ، حيث تكون العلاقة بين الحاكم والمحكوم هي الطاعة ولا مكان للنقاش فيها . ولقد حاول بعض المؤرخين تشبيه هذا النظام ، بالنظام الاقطاعي الاوربي في العصور الوسطى ، ولكن في الواقع لا مكان لهذا التشبيه فالطاعة الابوية غير قابلة للطعن بخاصة أنها مستمدة من مصدر الهي ، بينما نظام الاقطاع الاوربي يستند الى مساندة الفرسان لأحدهم ومبايعته اتفاقا على امارته وأراضيها وفلاحها الذين يغدون من ممتلكات الاقطاعي دون أن تجمع بينه وبينهم تلك العلاقة الابوية .

لقد تدعم النظام الملكي الابوي في غضون الالف الثالث نتيجة تطورات اقتصادية وعسكرية . وقد لا تنطبق هذه الصفة على عصور أكاد وبابل القديمة ، والمملكة الحثية القديمة والامارات الميسينية . فقد نشأت هذه الممالك من مجموعات بشرية قبلية متجانسة تزعمتها قلة على رأسها زعيم فصيلة أو بطن . وتجمع حول هذا الزعيم أو الملك مجموعة الزعماء الآخرين ليشكلوا من حوله بطانة حاكمة الى جانب عائلة الملك . ولقد حافظ هؤلاء على نوع من الرقابة على سلطات الملك في الدولة الحثية القديمة . اذ توجب على الملك المصلح تليينو Telepinou أن يوطد امتيازات « البانكوش » أو مجلس النبلاء وكذلك حقه في محاكمة الملك اذا ما قتل اخوته .

وبعد تعاظم السلطة الملكية المطلقة في كل من الرافدين ومصر وانتقال مثالها السى
الافاضول فقد تراجع دور هذا المجلس واقتصر على بعض المظاهر الدينية والإدارية.

لقد عرفنا شيئا عن مثل هذه المجالس التي احتلت دورا ثانويا الى جانب الملك
في بلاد الرافدين وسورية وفلسطين ، وعرف باسم الشيباتو أو مجلس المشايخ .
وهو في الحقيقة امتداد لمجلس القبيلة والقبائل . وعرفنا ذلك في التوراة عندما يطلب
الرب من النبي موسى أن يجمع مجالس المشايخ (١٦ - ١٧) .
وقد تضاءلت سلطتهم بتعاظم السلطة الملكية المطلقة ، وقد عكست لنا الرسائل
والنصوص الدينية المسمارية الرافدية والتوراتية ، تعاظم سلطة الملوك وتحولها الى
سلطة طاغية مطلقة بخاصة في الالف الاول قبل الميلاد .

ولقد استخدمت هذه السلطة الملكية المطلقة جهازا اداريا متينا لادارة دفعة
الحكم ، ادارة بعيدة عما نسميه حياة سياسية ، واختطت كل منها طريقة لتطوير
مواردها الاقتصادية فبدأ وكان التطوير الاقتصادي ملتصق بتلك السلطات الملكية
الطاغية ، في حين كانت تستثمر هذا التطوير لخدمة أغراضها وأكثها الحرية .
لقد نشأت بذور هذا النظام فيما سمي دول المدن السومرية التي تركزت فيها
الثروة الريفية ، ولعب المعبد وكهنته الدور الاساسي في ادارة السجلة الاقتصادية
والادارية ، بالتعاون مع جهاز اداري قوي . وكان اختراع الكتابة من قبل
السومريين عاملا مدعما لهذا النظام الاقتصادي الذي تحول من نظام-المدينة -
المعبد الى نظام دولة - القصر الملكي الذي طور جهازه الاداري وصار أكثر
استقلالا وفعالية ، ونشأت الى جانبه طبقة مكتبية (بيروقراطية) مماثلة لسابقتها
في المعبد .

لقد كانت المهمة الرئيسة لهذا الجهاز هو تجيير ثروات البلاد لحساب العواهل
والملوك ، ولم تمثل ثروة العامة الا القليل بالمقارنة معها . وقام هذا الجهاز بمعالجة
جميع القضايا الادارية المتعلقة بالمدن . لقد كان على الاداري الاكبر في القصر وهو
بمرتبة كبير الامناء ، أن يدير أعمال الملك والمدينة . وعلى جهاز آخر من الموظفين
مراقبة البضائع الداخلة والخارجة الى المستودعات واحتساب الرسوم عليها .

لقد عاشت التقاليد الإدارية والمكتبية في العصور اللاحقة ، وبخاصة في عصور الامتداد الامبراطوري ، وتوسع الدول في الالفين الثاني والاول . واحتفظت بالثأب كبار الاداريين والمحاسبين مرافقين لأسماء الملوك بالذات ، كما رافقوهم في الاختفالات والمناسبات الرسمية .

لقد ظهر التطور السريع في بناء الدولة الامبراطورية لأول مرة في تاريخ العالم وبخاصة المشرق العربي منذ أواسط الالف الثالث قبل الميلاد على ضفاف الفرات وسهول سورية . وتبلور مفهوم الدولة الامبراطورية لأول مرة في التاريخ من خلال مؤسستها الاول شروكين وسلالته الاكادية ، التي تحمل مفهوم الابوية والقوة العسكرية كأساس لبنية نظامها الإداري والسياسي والعسكري ، ولهذا فقد أسندت إدارة الأقاليم إلى أعضاء الأسرة الملكية . ولكن إدارة سومر القديمة احتفظت بفعاليتها وقام الأكاديون بتكديس طبقة أخرى من الموظفين المتنفعين فوقها ، وهذا ما عجل فساد المركزية الإدارية الاكادية ، وانهارت أخيراً تحت ضغط القوى المحلية والخارجية ، ولكنها اختطت نمأ موروثاً ومجدداً في آن معاً نقلته عنها الدول التالية كما سنرى .

لقد انتقلت التجربة الإدارية - السياسية السومرية القديمة والأكادية إلى المرحلة المثالية التي أطلق عليها اسم «حكم سلالة أور الثالثة» (٢١١١-٢٠٠٣ ق م) . ويرى (ديهيه ص ٢٢٦) أنه يمكن عد نمط حكم هذه السلالة أول تجسيد لدولة عرفت في تاريخ المشرق والعالم . لقد قضى حكام هذه السلالة على استقلالية المدن الرافدية وتبعثرها . وجعلوا من المنصب السومري (انسي) حاكم ، مجرد موظف مسؤول أمام الملك . كما عهد بالأقاليم الحدودية إلى حكام مقربين ومرتبطين بالملك . وتحولت مدينة نيبور (نهر) Nippour إلى معج ديني قومي قادر على مجابهة النزعات الدينية الخاصة بالمدن الصغيرة . أما الجهاز الإداري فقد تضاعف من حيث العدد حيث أقيمت إدارة عسكرية إلى جانبه . وهكذا يبدو لنا أن هذه اجراءات التي قام بها ملوك سلالة أور قد أدخلت المنطقة بتنظيم دولة قوي البنسان .

بعد أن سقطت دولة أور الثالثة ظهر حمورابي بعد ذلك بقليل ، وكأنه ورث ذلك التراكم في تنظيم دولة الرافدين السومرية - الأكادية ، رغم اصوله البدوية المتواضعة ، واستطاع أن يخرج منتصرا ، بعد سلسلة حروب دموية في كل الاتجاهات ، ومع خصوم في الداخل والخارج . لقد قام حمورابي بمركزة جهاز الدولة على جميع المستويات ، وعهدت الإدارة الى طبقة موظفين جدد تمتعوا بصلاحيات واسعة . لقد كان جهاز حمورابي الجديد من اصول قبلية يرتبط بالملك بالرابط ذاته . ولهذا فقد تجلّى النظام البابلي الجديد هذا ، بمركزية سلطة الملك الابوية ، وتدخله في كل صغيرة وكبيرة في المملكة . وكان يساعد حمورابي في إدارة دفعة الدولة في بابل ، وزير بلاط وحاكمان هامان مقيمان في مدينتي لارسا وسيار . وقد حكمت بقية المدن من قبل نواب أو خزنة ، ولكل طائفة أو بطن أو قبيلة مجلس مشايخ يرأسه شيخ بحكم العرف والوراثه أحيانا . وكان يعقد مجلس عام يضم كبار الحكام والموظفين في مدينة سيار ، من وقت لآخر . وقام موظفون اداريون ، بإدارة أعمال الدولة ، بصورة مستقلة عن أعمال وإدارة القصر الملكي . وقام آخرون بأعمال تحصيل الضرائب والرسوم ومراقبة التجارة الخاصة . أما الانجاز الاساسي في تسيير امور المملكة ، فقد تجلّى بخلق نظام بريدي سريع ، يعد الاول من نوعه في تاريخ بناء الدول . لقد شكلت المراسلات الملكية المخبرات الحقيقية والعين المراقبة لكل شاردة وواردة في أقاصي البلاد وإدارتها . وبفضل هذه الرسائل اليومية التي كانت ترسل من قبل الحكام والموظفين والاداريين ، وتصل بسرعة مناسبة الى القصر ، استطاع حمورابي أن يفرض رقابة صارمة على البلاد ، ولحسن الحظ فإن بعض الرسائل قد وصلت إلينا من خلال أوابد مدن الرافدين القديمة . ذلك أن بابل حمورابي لم يعثر عليها حتى الآن .

لقد تطورت تجديدات حمورابي الى ميدان التشريع الذي سبق وقام بجزء منه ملوك أور الثالثة . إلا أن حمورابي البدوي الاصل قد ثبت العادات والتقاليد بتشريعه الجديد .

لقد كان التشريع السومري من وضع الكهنة ورغم خضوعه لبعض تدخلات

الملوك . من هذا المنطلق فإن تشريع حمورابي هو الاول من نوعه في التاريخ
كتشريع دولة وليس تشريعاً كهنوتياً . واستطاع حمورابي من خلال ذلك أن
يعلمن الدولة ويضع يده على ادارتها . لقد نظم القضاء على نسط الادارة المركزية
المدنية وفق تسلسل هرمي . فالتحكيم الأعلى يتم في بابل وفي قصر الملك ، أما
الاستئناف فمقره مدينة سيار . و اقيمت المحاكم الاقليمية في مدن لارسا ، ونيبور
ودليات . أضف الى ذلك القضاة المستقلين في المعابد ، الذين يتولون قضايا العبادة
والرؤيا والاحلام والاستشارات الخ . .

وأوجد حمورابي قضاء عسكرياً ربما كان الاول من نوعه من ناحية تنظيمه
فشمل البلاد في أصغر تجمعاتها السكنية .

لقد استطاع حمورابي من خلال ادارته القضائية المحكمة وشديدة التنظيم أن
يلغي دور المحكمين الخاصين الذين يعتمدون العرف والانتقام ، وهو ما كان سائداً
لدى القبائل ، وتحول الاحتكام الى الدولة وجهازها القضائي .

لقد تمثلت الدولة الرافدية بشخصية الملك وأجهزته التنفيذية الادارية
والقضائية والعسكرية . وقد قامت معظم الدول المجاورة باتباع هذا النهج اما
تقليداً وإما عن طريق تطورها الاقتصادي والاجتماعي والذي قاد الى النتيجة
ذاتها . ولندكر هنا أنه رغم عدم ظهور قوانين أخرى في مدن المشرق العربي القديم
المعاصرة لحمورابي ، إلا أن هذا لا يعني أنها كانت ذات أنظمة قضائية مختلفة .
وتدل بعض الرسائل لملوك ماري وحلب وآشور المعاصرة لبابل أنها كانت تشكل
مجتمعاً منسجماً تحكمه العادات والتقاليد ذاتها .

من جهة أخرى فإن التجربة الحثية في مجال القضاء تأخذ منحى آخر بدءاً من
الدولة . وعلى غرار هذا النمط الرافدي والمصري ، استطاع الملكان دلوود وسليمان
يمركزوا بيدهم سلطة الدولة بما فيها القضاء ، ورغم أن كل موظف أو قاض أو قائد
عسكري ، قد منح الصلاحيات كافة في عمله إلا أنهم جميعاً يخضعون لتعليمات
دقيقة من الملك (ديهيه ص ٢٢٧) . بالإضافة الى القسم الديني الذي يؤدونه لئلا

لضمان وفائهم . وشكل القضاء جهازاً متيناً منسجماً مع جهاز مكتبي وظيفي في كلية الدولة ، وعلى غرار هذا النمط الرافدي والمصري ، استطاع الملك داوود وسليمان تأسيس المجالس القضائية الستة ثم التسعة ، وأن يلقي المحكمين القبليين اليهود . وبصورة عامة نشأ في معظم مدن المشرق العربي بما فيها القدس نظام قضائي مدني (متمركز في المدن) يذكرنا بأصوله الأولى في المدن السومرية في عهد سلالة أور الثالثة . إن الدولة التي تتجسد أخيراً بالملك لم تتمكن من تجاوز حدود المدينة . في حين إن امبراطورية أور (الثالثة) وبابل ، قد شملت مدناً عديدة كانت متصارعة الى وقت قريب ، واستطاع حمورابي أن يتجاوز اطار المدينة التقليدي المحكم وأن يتحول الى ملك لدولة ذات نزعة كونية شاملة . ورغم المركزية الشديدة في الامبراطوريات الأولى أو امبراطوريات الالف الثاني بصورة عامة إلا أن بنيان الدولة لم يكن مؤسساً لمصاحبة مدينة أو قبيلة أو عسرق ، كما كان يبدو زمن امبراطورية آكاد (لذوي الشعور السوداء) ، فلقد حققت المركزية والمكتبية الامبراطورية نوعاً من التجانس بين الشعوب والقبائل يتمثل في النهاية بالملك .

لقد استطاع الاشوريون في امبراطوريتهم الجديدة أن يفرضوا التجانس في أرجائها الوسعة ، ويحولوا دون الانفصالات العرقية والقبلية التي كانت تهددهم ، من خلال جهاز اداري وقضائي وصل الى مرحلة عالية في الانضباط والدقة . ولكن بداية انتقالهم من نظام المدينة الى الدولة لم يكن على الوتيرة البابلية أو الحثية نفسها . فقد بدت الدولة الاشورية وكأنها مدينة كبيرة . فلم يكن الملوك سوى ملوك في مدينة آشور وحسب ، فهو يحكم البلاد من أجل الإله آشور ومن أجل الآشوريين فقط ، هذا لأن الاشوريين قد عانوا من جراء هيمنة ميتانية طويلة ، ولأن مصلحتهم الأولى كانت ذات طابع اقتصادي ، وتجاري بصورة خاصة ، وهي التي سمحت لهم ببناء امبراطوريتهم القوية فيما بعد . ولذا كان عليهم أن يسيطروا على طرق التجارة ومراكز التموين بالمواد الأولية في الاناضول وسواحل سورية ، ولم يكن للآشوريين أن يحققوا هذا الهدف إلا من خلال فتوح حربية جرت الولايات على السكان المحليين الذين ما انفكوا يشعرون ضد الفاتح مجرد رحيل قواته .

ولذا لم يهتم الآشوريون (في عهد الدولة الوسطى) بإقامة إدارة مركزية مرتبطة بالملك في كثير من المناطق المفتوحة وبخاصة في الأناضول وسواحل سورية وفلسطين، بل عمدوا إلى اتباع أسلوب قديم ألا وهو إقامة الحكم للأمراء المهزومين بعد أداء قسم الولاء للملك الآشوري، وضمان دفع الأتاوة والإمداد بالمواد التموينية المطلوبة، ورفد الجيش الآشوري بالمتطوعين عند اللزوم. ويعتقد ديهيه (ص ٢٢٨) أن هذا الأسلوب الآشوري في الحكم بعيد عن أن يحمل مفهوم الدولة، وأنه لا يتعدى كونه مجرد ضغط اقتصادي وعسكري، ويعتقد أن سياسة التهجير والنفي التي ارتبطت بسياسة فتوح الآشوريين، لم تؤد إلا إلى مزيد من الأذى على لمستوى الشعبي رغم أن بعض الملوك كانوا يعتقدون بجدواها بهدف الإبقاء على وحدة الإمبراطورية. ونعتقد نحن بأن نظام الدولة الآشوري يحصل في طياته تجربة طويلة ورثها من سومر وأكاد. وأنهم أمام مواقف متغيرة في المناطق المفتوحة بين سكان من أصول لغوية وتاريخية واحدة كسورية وفلسطين، وبين سكان كانوا يعيشون وراء الحدود اللغوية الأكادية، في الأناضول وإيران. ولهذا تطلب تماسك دولتهم المرونة وتحقيق أهداف سيطرتهم بالوسائل الممكنة، بغض النظر عن طبيعتها الحربية أو التهجيرية.

وكان لاصلاحات اثنين من كبار ملوك آشور في هذا المجال، الفضل في إطالة عمر الإمبراطورية أكثر من قرنين من الزمان. فقد كان العلاج بإعادة تنظيم الإدارة ومؤسساتها، وكان لفعالية الإدارة المكتبية الآشورية العسكرية وجديتها أن أطالت عمر إمبراطوريتهم رغم الآفات التي فتكت بها جراء التعسف والجور ضد السكان المحليين.

لقد أراد تجلات بلاصر الثالث أن يتميز بموقفه اصلاحي منذ لحظة صعوده على عرش آشور عام ٧٤٥ ق.م. ففي تلك اللحظة الحرجة التقليدية، التي يتوج فيها الوريث ملكاً رفض تجلات بلاصر الرموز التقليدية التي تمنح له من قبل سلطة نبلاء البلاط وكبار موظفيه وتوضع أمام قدميه لتدل من جهة على بصمتهم ونفوذهم في عملية التتويج، وليعبر النبلاء عن رضاهم بالوريث الجديد. لقد عمد تجلات بلاصر من خلال هذا التصرف المقصود، أن يقطع منذ البدء الطريق على نفوذ

النبلاء والعسكريين والمكتبيين في القصر الآشوري والذين امتد نفوذهم الى جميع أقاليم الامبراطورية . لقد كان لخطته في تدعيم طبقة من الفرسان المحاربين على حساب العربات الحربية أثر في تحجيم النبالة والعسكرية والمكتبية القديمة ، والسماح بصعود أولئك الفرسان الجدد . أما عمله الاصلاحى الآخر ، وهو الأكثر أهمية ، فقد تجلى بتقسيمه أقاليم الامبراطورية الى أقضية ومحافظات صغيرة ، وعلى رأس كل منها حاكم مدني وآخر عسكري حيث يتقاسمان الادارة ، ويمكن مراقبتهما من العاصمة . وكما ذكرنا آنفاً فقد عانت آشور من سياسة الفتوح السابقة والتي تجلت بإبقاء معظم الحكام المهزومين ، وهذا ما لم يمنع قيام الثورات والثورات الانفصالية .

ويعتقد ديهيه (ص ٢٢٩) أن هذه الاصلاحات هي التي أدخلت النظام الآشوري التقليدي في اطار دولة موحدة بمعنى الكلمة . وقد حصلت هذه الدولة وحكومتها بالذات على دعم الماهل الآشوري التالي وهو شروكين الثاني . فقد عهد بالادارة والاعمال الوزارية مباشرة الى وريث العرش الذي يراقب الادارة الاقليمية عن كثب ، وتولى الملك شؤون السياسة والحرب الأكثر خطورة ، وسعى شروكين من جهة أخرى الى توطيد الروابط والصلات الاقتصادية بين أقاليم البلاد وذلك بفضل تبني وحدة قياس ووزن موحدة .

وهكذا فقد استطاع هذان الملكان أن يشبا أسس الدولة الاشورية الحديثة (القرن الثامن ق.م) حيث أصبحت مثلاً يحتذى من قبل الامبراطوريات والدول اللاحقة . فلقد استعار البابليون التنظيمات الادارية والمكتبية الاشورية ، حيث اتخذت الادارة ولأول مرة في التاريخ الرفادي والعالمي لنفسها بنياً وظيفياً يعمل بآلية دقيقة وبادارة عليا مؤلفة من خمسة من كبار الموظفين الذين يتوزعون الحقائق الوزارية . وسعى الاخمينيون من جهة أخرى الى تقليد المثل الآشوري في ادارة الأقاليم ، وبدأ قورش Cyrus سياسة تسامح مع الأقاليم المفتوحة التي ضمنها امبراطوريته الوسعة ، فكانت الاولى من نوعها ، بحيث خلقت له شعبية واسعة ، حفظت له وحدة الدولة ، ولكن هذا لم يكن كافياً حيث قامت الثورات ضد خلفه

داريوس حيث افتقدت الإدارة المركزية القوية . فقد عمد هذا الأخير الى إصلاح إدارة الأقاليم مما أطلال عمر الامبراطورية قرناً آخر من الزمان . ولكنه أي داريوس لم يستطع اكتشاف الدواء الشافي لعلاج الامراض الادارية التي كانت سبب تدهور الامبراطورية الاشورية . اذ نجد أن النظام الاداري الاخميني لم يكن في الواقع سوى نظام هجين خلاصي امبراطوري حيث تراكمت النظم القديمة التقليدية التي استخدمها الاشوريون قبلاً والتي تمثلت بإدارة الأقاليم من قبل ولاة أو حكام مهزومين تمهدوا بولائهم للفاتح ، واحتفظوا بإدارتهم الخاصة ، وتمثلت ثانياً بصلات شخصية بين بعض عواهل الدول - بابل ومصر - ، وثالثاً فإن جسم الامبراطورية قد قسم الى قرابة عشرين اقليماً (مرزبة) وعلى رأسها حاكم اخميني (مرزبان) يتمتع بصلاحيات واسعة مدنية وعسكرية وقضائية وسياسية ، باستثناء جمع الضرائب الذي أوكل الى محصل خاص ، ومن ثم ترسل الى القصر الملكي ، وهناك أنواع خاصة من الضرائب والمداخل التي يحصلها حكام الأقاليم لإفادتهم الخاص .

لقد كانت مصادر أموال القصر الاخميني بكاملها من تحصيل ضرائب الأقاليم . وقد ترك لمدينة بابل وحسب مقدار أربعة أشهر من الضرائب لتفي بحاجاتها . وهكذا تكدست الاموال والكنوز في عاصمة الاخمينيين والمدن الكبرى ومن هنا ذات صيت الترف والبذخ الملكي والمرزبانى الاخمينيين . وهذا ما يجعلنا نفهم لماذا قام الملوك الاخمينيون والفرس بإنشاء طرق مواصلات واسعة ، وجهدوا على تأمين سلامة السفر عليها نظراً لما يسير عليها من ثروات وكنوز تنقل باتجاه العاصمة . كما سمحت لجهاز الرقابة الملكي بالثقل بسرعة ليكونوا عين الملك وأذنه في قصور الحكام وفي كل مكان . ورغم هذه الاجراءات ورغم وجود أمين ملكي في قصر كل حاكم اقليم، فقد تحرك هؤلاء ضد سيدهم ووضعوا وحدة الامبراطورية في خطر ، لاسباب ليست بعيدة عن تلك التي أدت الى سقوط الامبراطورية الآشورية قبلاً . ألا وهي استخدام ثروات السكان واستغلالها وتحميلهم ضرائب ثقيلة ، مما خلق شعوراً بالاضطهاد والثورة والانفصال ، وهي ما سعى اليه بعض الحكام لصالحهم .

أمام هذا التنظيم الاداري المركزي للأقاليم ، تميزت ادارة القصر الامبراطورية

بوجود جهاز مكتبي واسع ومعقد كما كان الحال في الامبراطوريات السابقة، ولكن للأسف لا توجد عنه معلومات مفصلة ولكن نعلم أن رئيس الحرس الخاص وهو الحارس الشخصي للملك قد تمتع بنفوذ كبير ويأتي بالدرجة الثانية بعد الملك، وقد اقتصر هؤلاء الحراس على الإيرانيين وحسب، وهذا يعكس إلى حد بعيد طبيعة النظام الإداري القائم على الاختيار العرقي والاقليمي، في حين كانت الأبجدية واللغة الآرامية هي السائدة في الدوائر الأخمينية، وكان الفرس والميديون وحدهم الذين يتمتعون بالسلطة الحقيقية. لقد جرت الامبراطورية الفارسية على منوال سابقتها الآشورية وتقاليدها، حيث كانت شخصية الملك وإخلاص النبلاء الفرس الضمانة الوحيدة لقيادة امبراطورية متفرقة في الاجناس والألوان. هذا ولم يتمكن أحد من خلفاء داريوس القيام بهذا العمل الكبير، فقد تجاوز حجم الاجهزة الامبراطورية الامكانيات الفردية للملك.

الفصل الرابع

الحرب

يبدو لنا تاريخ المشرق عامة من خلال وثائقه المكتوبة ونقوشه ونصبه الباقية مليئاً بأعمال الحرب والغزو . ويرى ديهيه (ص ١٤١) المؤرخ الفرنسي للتاريخ القديم، هذا التاريخ سلسلة حروب وفتوح ، حيث تبني الممالك ومن ثم تقوض وتهدم ، وثورات تتأجج أو يقضى عليها بالحديد والنار ، ومدن وأرياف منكوبة مسلوقة ، وغزاة من البداة أو سكان الجبال يتلذذون بتهديم مدن الترف والنعيم . يمكن لنا القول إن معظم عهود الامراء والملوك لم تعرف إلا الحرب ولم تترك يوماً للسلام ، وكان منهم امراء وملوك آشوريون وماريتون وبابليون وحثيون ولم يشذ عن هذه القاعدة ملوك التوراة ولا أمراء وملوك العهود المتأخرة الكلدانية والاشيئية الفارسية . ولم يكن مفهوم الحرب أنه كارثة ومصيبة بقدر ما كان برهاناً على شجاعة الملوك وتكريساً لجبروتهم ، وإذا وجدت حالات نادرة حيث يجنح فيها أمير أو ملك الى السلم لينأى ببلاده عن الحرب ، فلم يكن لينأى عن تهمة التخاذل والجهن . ويبدو أن نبوخذ نصر الثاني حالة فريدة بين عواهل الشرق السدي فضل محاسن السلام على مكاسب الحرب باستثناء حملته على فلسطين وسبيله يهودها ونقل رؤسائهم الى بلاد بابل . وتشذ عن هذه القاعدة أيضاً حضارتان متدثرتان تنقصهما الوثائق الكتابية والشواهد الاكيدة وهما حضارة السند في أقصى الشرق والحضارة المينوية الكريتية في أقصى الغرب . إن آثار الأبنية والعصور في هاتين الحضارتين لم تحتفظ إلا بالقليل مما يدل على تهديم حربي ، وقد عثري معظمه الى

حوادث طبيعية ، ولهذا يعتقد ديهيه (المرجع نفسه) أن الحرب قد تكون حالة نادرة في هاتين الحضارتين ، ولكن هذا الاستنتاج يحتاج الى براهين كتابية لما تظهر بعده ، إذ لا يكفي الاستدلال عليه بمجرد ندرة الحصون والتحصينات في مدن السند وكريت . كما أن عزلة السند وكريت ونأي كل واحدة عن المراكز الحيوية في المشرق قد خفف عنها شروخ الحروب وما سببها .

لقد كان المشرق العربي بما فيه مسرح الدول النقية آنذاك ، بل الوحيدة القادرة على صنع الحروب في عالم الأمان . ولم يكن السلام إلا حالة نادرة وغير تامة . وعندما لا تصدم قوتان كبيرتان فكل منهما حروبهما الخاصة الداخلية من فتن وثورات محلية وعصيان قبلي وغارات بدوية أو جبلية . ونجد عصر التفاهم الميثاني - المصري حيث دام سلم طويل نسبيا ، لم يخل من قتال بين الحثيين ومملكة تدعى أرزوا Arzawa في شمال غرب سورية ، وضد الكاششيين Kashke في محاولة لفرض النفوذ على شمال غرب سورية . وكان الكاشيون في بابل يقاتلون في « بلاد البحر » التي تقع أقصى الجنوب الرافدي كما تدل وثائق العصر .

سوف نلاحظ أن السلم لم يكن إلا حالة عارضة ، لأنه لم يرق على رغبة حقيقية ومعاهدات واضحة ، بل أقيم على أسس مصلحة وتوازن للقوى . فقد كان النصف الثاني من القرن الخامس عشر مرحلة سلمية نسبية بسبب هيمنة القوى المصرية بعد انتصار تحوتمس الثالث ، واحتوائه التوسع الميثاني شمال سورية . وقد استطاعت الدبلوماسية المصرية أن تحقق توازنا هشا بين القوى المتصارعة في بعض حالات تعاظم قوتها العسكرية في عهد رمسيس الثاني ، وكذلك في حالات ضعفها في عهد الفرعنة الاثيوبيين بين نهاية القرن الثامن وبداية السابع ، وكان تدخلها أحيانا لمجرد الحفاظ على الوضع الراهن ، وبخاصة في فلسطين . أما المعاهدة المصرية - الحثية عام ١٢٦٩ فلم تكن ذات نتائج هامة لدى الطرفين بقدر ما شغلت كلا الطرفين بتصاعد قوة آشور شمال بلاد الرافدين . وبذلك فإن هذه المعاهدة التي جاءت نتيجة معركة قادش والتي لم يعرف تماما من هو المنتصر الحقيقي رمسيس الثاني أو الحثيون ، قد أدت الى استقرار الامن الحربي مدة ثلاثين عاما

فقط • وعندما استطاع سامتيخ الفرعون المصري تحرير مصر من السيطرة الاشورية وبعد أن دمرت طيبة عام ٢٦٣ وجد نفسه الى جانب الاشوريين أمام تهديد البابليين سورية وفلسطين ، ولم ينبع هذا من سقوط نينوى الاشورية عام ٦١٢ على يد حلفاء من البابليين والميديين •

وهكذا لم يكن من مهمة الملوك والباطرة البحث عن إقامة السلام ، بقدر ما كان بحثاً عن تعطيل توازن القوى المناهضة من خلال المؤامرات والدسائس والثورات والحروب • فقد جهد الفراعنة الاثيوبيون على تأليب امراء فلسطين ضد الاشوريين لاستعادة حران من الميديين ((ديهيه ص ١٤٢)) ، وحاول الملك نابوليد البابلي تشجيع الثائر المصاعد قورش الذي هدد بعدئذ بفتوحه بلاد الاغريق واصبح اسمه على السنة المؤرخين والاخباريين الاغريق وهكذا لم يكن السلام أبداً ، الا تحضيرا للحرب ، واستراحة يستغلها الملوك لإعادة بناء قواتهم بقصد مفاجأة الخصم • ولماذا لا يكون الامر هكذا ؟ او لماذا لا يهتم الملوك بالحروب أولاً بأول كما يتسائل مؤرخنا ديهيه (ص ١٤٣) طالما أن الآلهة بالذات هي التي تريد ذلك ؟ وهي التي تريد النصر الذي يسعى اليه الملوك أبداً • فقد كان لكل مدينة الهة ولكل امبراطورية الهتها القومية التي لا بد من الدفاع عن مصالحها وتوسيع رقعة نفوذها • فمن أجل الهة آشور ، لم تتوقف جيوشها عن شن الحروب ، وبخاصة بدءاً من عهود الدولة الوسطى ، وذلك كي يعترف بسيطرتها جميع الشعوب وجميع الاعضاء • كما أن الآلهة يهوى هو الذي أمر شعبه بالقتال لاختضاع أهل فلسطين لقوانينه ورغباته ، (• • لأن الرب إلهكم سائر معكم ليحارب أعداءكم عنكم ويخلصكم) • (سفر التثنية والاشتراع ٢٠-٤) •

لقد بدا واضحاً أن الحرب أصبحت ضرورة تفرضها أوامر دينية إلهية • بدءاً من القرن الثاني عشر قبل الميلاد • وقد جهزت الحملات العسكرية باشتراع وأوامر دينية مقدسة أو حي بها ، وصدقت بعد معجزات سبقت أو رافقت كل حملة • وقد برع الذهن الكهنوتي والتشريعي الحثي على تبرير كل عمل حربي ، على أنه حكم الله • وكان الملك الحثي ، وقبل أن يسير الى الحرب كل ربيع ، يهتم أعداءه المرتقبين ،

أنهم خرقوا المعاهدات التي عقدت باسم الآلهة . ولم يكن ليبدأ عدوانه إلا بعد أن يتذرع بحجة عدم الاستجابة لإرادة الآلهة التي عثّيت وأهينت ، فكيف به لا ينتقم لها ؟ .

وقد حدث تبدل في هذا المفهوم الديني في العصر الأخميني ، حيث لم نعد نحس بأن الحرب ضرورة إلهية : إذ أن الآلهة أهورا مازدا « الذي خلق الإنسان ، وخلق السلام من أجل الإنسان » هو الذي كان يضمن النصر للملك الفارسي ، ولكننا لا نجد ما يدل على أن الآلهة هي التي أمرت بتجهيز الحملة .

إنه لمن الواضح أن الأدبيات الدينية وعباراتها الطنانة ، والتي تلونت بارادة إلهية خفية ، وبررت أعمال الحرب والفتوح ، كانت تخفى وراءها اهتمامات لا علاقة لها بالقداسة والروح ، أنها رغبة العواهل الآشوريين والمهويين وغيرهم الذين ترجعوا ذلك بنهم مادي .

إننا لا نملك معلومات كافية حول خفايا أسباب الحروب السومرية وبخاصة في عهودها الباكرة ، ولكن مما لا شك فيه أن العوامل الاقتصادية ذات تأثير قوي فيها . ولندكر أن اقتسام المياه كان وما يزال مجالا لاثارة الفتن والحروب بين الافراد والمدن والدول . أما حيازة المواد الأولية ، والسيطرة على مصادرها ، فقد احتلت مركز الصدارة في اهتمام الأقدمين ، وشنت من أجل ذلك حملات وحروب دائمة ، فمنذ العصر السومري والاكادي شنت الحملات باتجاه البحر المتوسط بقصد السيطرة على غابات الامانوس (سورية) ولبنان . وكان شروكين الاول مؤسس أول امبراطورية في التاريخ قد أعلن صراحة هذا الهدف ، وتبرز حفيده نارام سين بين خلفائه الاربعة الذي سيطر على أعالي الخابور ، وفتح بذلك طريق الأناضول الغني بالمعادن والغابات . أما قوى الهيمنة الاشورية في عهدها الوسيط والحديث ، فقد كان لها الاهداف ذاتها ، إذ لا بد ، ومهما بلغ الثمن من الحفاظ على طريق البحر المتوسط مفتوحا وآمنا ، وكان النزاع بينهم وبين جيرانهم الحثيين قائما وبصورة دائمة على شال سورية وبخاصة الامانوس وكيليكية . وكم

حاول الحثيون أن يخنقوا اقتصاد خصومهم من خلال مد سيطرتهم ونفوذهم في تلك المناطق . لقد كانت هذه المنطقة كنقطة تقاطع حيوية هامة لجميع قوى الشرق آنذاك . فهذه (أورارتو) في أعالي الأناضول وقرب بحيرة فان ، مثلها مثل آشور ، لا تملك واجهة على البحر ، ولذا دخلت في صراع المستميت مع آشور ، وسيطر ملكها المدعو (ساردور الثاني) على حلب ، ولكن تجلات بلاصر الثالث الآشوري وضع ثقل قواته كلها باتجاه الغرب إلى أن تحققت له السيطرة على منافذ البحر الأبيض المتوسط .

أما في بحر إيجه ، فقد كانت حروب مدينة طروادة الشهيرة من أبرز الأمثلة على حيوية العامل الاقتصادي واثره الذي ذهبت المدينة ضحيته . إذ يبدو أن طروادة قد مثلت خطراً اقتصادياً على الممالك المكنينية التي كانت تحتكر تجارة بحر إيجه مع القارة الأوروبية ، وبخاصة سهول الدانوب . لقد ظهر كثير من الدلائل الأثرية على قيام هذه التجارة ، ولكننا لا نملك دلائل على الخطر الذي كانت تمثله طروادة على طريقها . ولكن الموقع الجغرافي الهام الذي تحتله على ساحل الأناضول المطل على بحر إيجه ، يعد المنفذ الرئيس لبلاد القفقاس وترانسلفانيا . كما أن غنى المنطقة بالمكتشفات الأثرية إضافة إلى ما تتضمنه ملحمة الإلياذة والأوديسة من ذكر لحملات تجارية عسكرية . فأننا نستطيع أن نقدر أن أحد أهم أسباب تلك الحروب هو أسباب اقتصادية .

إضافة إلى حروب الدول والإمارات المتنافسة ، يجب ألا ننسى الحروب والغزوات الصغيرة التي قام بها البدو ضد القوافل التجارية والمدن الغنية . وقد سجلت لنا الوثائق الكتابية وبعض البراهين الأثرية منذ الألف الثالث قبل الميلاد قيام البدو المتنقلين وبعض سكان الجبال بشن غارات مفاجئة إما بقصد الحصول على الغنائم أو بقصد الاستقرار في أماكن خصبة ومنتجة . وبهذا فقد كان على الممالك والإمارات أن تكون جاهزة بصورة دائمة للرد على هذا الخطر الداهم ، كما كان عليها أن تجهز حملات تأديبية من وقت لآخر ، وتقيم نقاطاً دفاعية وتحصينية سواء على طرق التجارة أو حول المدن الهامة . ولكن هذا لم يحل دون انهيار كثير

من الممالك والمدن اثر الهجمات المتكررة للبدو ابتداء من الالف الثالث قبل الميلاد مرورا بمملكة أور الثالثة والمملكة الاورارتية حول بحيرة قان والفرجيية في الاناضول .

من جهة أخرى فقد ازدادت شهية العواهل والملوك على الحروب والفتوح وقويت النزعة النفوقية لدى بعض الدول اثر حصالاتها العسكرية الاقتصادية وتلك ضد البدو وسكان الجبال ، ولم يستثن من هذه النزعة سوى القليل من الملوك .

فقد عبر لوجال زاجيزى السومري وشروكين (صارجون) الاكادي صراحة عن رغبتهما بسيادة « الارض من مشرقها الى مغربها » . وبعد انهيار السلالة الملكية السومرية الجديدة (أور الثالثة) نحو نهاية الالف الثالث ق.م . دارت حروب متفرقة خلال قرنين من الزمان أدت الى تمزيق بلاد الرافدين بما فيها سورية وفلسطين ، لأسباب تتلخص بتغيرات سكانية (قدوم الأموريين) . وأزمات اقتصادية ، وقامت دول جديدة متفرقة في مدن إيسن ولارسا وآشور وشوباط انليل وبابل وماري وحلب وقطنة وأوجاريت : وتنازعت بخاصة المدن الست الاولى على سيادة المنطقة ، وتحولت العواصم الى مقرات سياسية وحرية جديدة برز من بين ملوكها أسماء كبرى منهم ريم سين وشمشي أدد وزمري ليم وحمورابي وباريم ليم . وكان طموح كل من هؤلاء يتطلع الى تحقيق شعارات الأسلاف في « سيادة البلاد من مشرقها الى مغربها » .

لم تشذ الحروب الحثية الآشورية الاورارتية عن تلك القاعدة ، وهي توسيع رقعة النفوذ والسيادة والسيطرة الاقتصادية . ولا يمكن تفسير الغزو الاشوري لمصر بعد إشعال الفراعنة الاثيوبيين للثورات في فلسطين الا من هذا المنطلق . حيث ظهرت بشكل واضح رغبة بالسيطرة على العالم آنذاك ، وتجلت هذا أكثر لدى الملوك الاخمينيين والفرس من خلال حملات قورش وداريوس حيث لم يكن لهما من أساس إلا ما تقدم . وكذلك الحال بالنسبة للحروب الميدية التي لم تكن تعبر إلا عن طموحات متعاقمة للملوك في السيطرة والهيمنة .

ولم تكن نتائج ذلك الطموح إلا إخضاع مزيد من السكان والشعوب للإرادة التفوقية الملكية التي لم تكن تشرق كثيرا بين السكان المتكويين فيما إذا كانوا من اصول واحدة أو لغة مشتركة أو دين واحد ! ولم تستثمر الانتصارات الحربية إلا لصالح الامة أو الشعب الفاتح ، وكان وما يزال الفاتح (الرحيم) الذي يتغاضى عن بعض مكتسبات النصر الضئيلة يشير ضجعة إعلامية لدى السكان أو بعض المؤرخين المحدثين أكثر مما هي الحقيقة على أرض الواقع ، وهذا كان حال بعض الاسماء النادرة التي لا تستحق الذكر ، مثل نبوخذ نصر و نابونيد و داريوس ، فقد اشتهر هؤلاء بفتوحهم أكثر مما اشتهروا بسلمهم .

لقد كانت الخسارة التجارية والزراعية من نصيب البلد المفتوح ، والمستفيد هم الفاتحون من آشوريين وبابلين وحثيين ومصريين الخ .. ولهذا فإن الثورات والفتن لم تتوقف ، بل كانت مدعاة لاتحاد المغلوبين ضد القوى الاكبر . ونرى هذا في سورية وفلسطين حيث توافرت شروط ملائمة للثورة ضد الاشوريين بصورة عامة ، ولعبت دمشق بدءاً من القرن الحادي عشر وحتى القرن السابع قبل الميلاد دورا بارزا في قيام جبهة ضد الاشوريين ، وانضمت اليها مدن اخرى مثل صيدون / صيدا وبعض مدن فلسطين . فكان على الاشوريين سحق هذا التحالفات بالحديد والنار . ولم يكن هنالك من مبررات هذا سوى الثورة لتسهيل الدماء دون رحمة . وهذا ما قام به دون استثناء آشوريون وبابلون وحثيون وأورانيون ومصريون و فرس اخمينيون . ونلاحظ أن صعود داريوس على عرش الامبراطورية الفارسية قد قاده أولا بأول الى سحق ثورات متعددة ضد عرشه وعرش أجداده في بابل وسوزة بالذات ، وميديا وأرمينيا ، ومناطق الباريين ، وكثير من قبائل الفرس أيضا . وامتدت الثورات حتى الجزر الايونية في بحر ايجة وأدت الى قيام الحروب الميديّة الاولى ، وعندما شارف داريوس على الموت كانت مصر قد بدأت الثورة ضده . وهذا ما تطلب مزيدا من الحروب والحملات ومزيدا من الدماء للحفاظ على هيبة الامبراطورية وهيمنتها .

لقد اقترنت الفتن والثورات بظهور الازمات الاقتصادية والداخلية ومؤامرات

القصر ، التي كانت تعاك من قبل الطامحين الى السلطة من عشيقات وملكات وامراء . كان يشجعهم على المضي ذلك الاستياء الشعبي ، وادعائهم بنصرة المظلومين . وكان الانشقاق في صفوف الجيش أمراً اعتياداً لنصرة جانب من حاشية القصر على آخر . وهذا ما كان يقود الى ما يسمى الحرب الاهلية . فقد نشب نزاع داخلي دموي في الايام الاخيرة من حكم شلمنصر الثالث بين ابنه . وبعد موته في عام ٨٢٤ قبل الميلاد ، توجب على شمش ادد الخامس أن يخوض حرباً لمدة ثلاث سنوات من أجل توطيد سلطته على عرش آشور . ولم تكن حملة عشرة الآلاف مقاتل التي رواها اكرنوفون الإغريقي إلا فصلاً بطولياً من الصراعات التي كانت تمرق حاشية القصر الاخميني .

كان على الملوك أن يؤمنوا بعبية الجيش واماتة أولاً ، وبفضل هذا استطاع تيجلات بلاصر الثالث أن يوطد دعائم الامبراطورية الاشورية التي تعرضت للهزات في القرن الثامن قبل الميلاد . وكان ثمن اخلاص الجيش هو الغنائم والمكاسب التي يحصل عليها القادة والجنود ، أكثر مما كان اخلاصهم مجرد احساسهم بواجب ما أو مبدأ ! فقد كان عواهل آشور وخاني (عاصمة الحثيين) يعلنون في كثير من السنين أنهم لم يستطيعوا دفع الرواتب والمجهودات المادية التي تتطلبها الجيوش وعلى هذا «فلتنتقل القوات الى القرى والارياف ولتسيطر على محاصيل الحبوب» ، هذا ما أمر به شمشي ادد الأول عندما وقعت به الضائقة .

وهكذا تتوطد الصلات بين الجيش والملك ، أضيف الى ذلك ما يقدمه الملوك من مكاسب وهدايا عينية للقادة والجنود . فقد قام حمورابي بتوزيع الأراضي على جنوده وضباطه مقابل ضريبة أيام السلم ولقاء خدماتهم القتالية أثناء الحرب . وكانت الارض تعد ملكية خاصة بالملك ما لم يقتل صاحبها . هذا ويجب التنويه أخيراً هنا أن ما تقدم ، لا يعني أنه لم تكن هنالك حروب دافعها الايمان والعقيدة . لقد سعى حمورابي الى تشكيل جيش دائم عن طريق سياسته سابقة الذكر ألا وهي تأمين مورد كاف لجنوده أيام الحرب والسلم ، يختلف عما نلمسه لدى السومريين ، حيث كان يساق جميع الرجال الى الحرب عند اعلانها ، ولا يستثنى

منها سوى بعض المتميزين ورجال الدين والكتابة . وقد عمد شمشي أدد في القرن الثامن عشر الى تجنيد جميع رجال القبائل جاعاً إياهم في حروبه المتعددة ضد حلب وماري واشنونا .

وتدلنا بعض معلومات التوراة على وجود مثل التنظيمات السابقة ، ولكنها لم تبلغ دقة التنظيم البابلي ، وظلت محتفظة بالاطار التقليدي حيث تتم المشاركة في الحرب عن طريق زعيم القبيلة (زيه ديهية ص ١٤٧) . ونلمس لدى الملك داود وجود قوات دائمة ، الى جانب استدعاء محاربي القبائل عند الضرورة .

إن التطور ، الذي قاد دول المشرق الى تشكيل قوات نظامية مسلحة ، لأول مرة في تاريخ البشرية ، لم يكن ليمنعها من تجنيد الرجال كافة عند الحاجة ، وهو ما ندعوه اليوم بالتجنيد الازامي . وكما تقتضي الضرورة ، فهناك استثناءات واعفاءات من الخدمة الالزامية فقد تستثنى مدينة بكاملها مثل مدينة نيبور السومرية المقدسة . وقد استثنى حمورابي الخزازين وصناع الجعة وبعض المهنيين كما تشير النصوص . ويبدو أن ظروفاً عائلية قد تعفي المكلف من الخدمة . كائن تدفع ضريبة أو أن يذهب آخر من أعضاء العائلة .

أضف الى ما تقدم ، فإن الدولة تفرض على السكان ضرائب حرية بصورة مباشرة تمثل بتقديم تجهيزات حرية . أما عن المواطنين والسكان الذين يتحملون هذه الاعباء الجسدية والضرائبية ، فهم كالعامة ، طبقة الفقراء التي تتألف من مواطني الدولة أو سكان البلاد المفتوحة .

وقد تشكل من هذه الطبقة الاجتماعية الفقيرة هيكل الجيش الدائم ، الذي كان يكلف من قبل الملوك بشن حملات دورية تأديبية واقتصادية بهدف الاستيلاء على المواد الاولية وطرق التجارة الدولية . ويجب الإشارة الى أن تجنيد القسم الاعظم من تلك القوات الدائمة يتم في البلاد المقهورة ، اذ أن المكاسب التي منحها الملوك لمواطنيهم كما فعل حمورابي عند توزيعه الاراضي على الجنود ، لم تكن لتشجع المواطنين على الانخراط في صفوف الجيش . وبدءاً من الالف الثاني ق.م.

فإن الدول والامارات التابعة للامبراطورية هي التي قدمت القسم الاعظم من جسم القوات المحاربة ، إضافة الى تحملها النفقات والتسلح ، وقد نصبت المعاهدات الآشورية والحثية الممقودة مع امراء البلدان المفتوحة على ما تقدم . وقد تلقى ملك اوجاربت الامر التالي من الملك الحثي : « (من) تالميتشوب : فارس قصر الشمس (القصر الحثي) ، سيأتي إليك ، فكم سيكون لديك من الجنود وعربات القتال . جهز قواتك وعرباتك التي ستضعها تحت تصرف القصر ، فإن الشمس (أي الملك الحثي) سيقوم باخصائها » . ولندكر أن بعض الحملات الملكية لم يكن لها من هدف سوى جمع المقاتلين من الارياف عنوة . وقد نصت المعاهدات الحثية على الحالات التي يتوجب فيها على الامير التابع أن يشارك بقواته في الحرب الملكية ، كالقيام بالهجوم أو الدفاع ضد خصم مجاور للتابع . ولقد غدا هذا النظام في تشكيل القوات الامبراطورية تقليدا تهتم به مؤسسات خاصة في العصر الفارسي . فقد توجب على كل مرزبان أو أمير أن يقدم عدداً محدداً من الجنود اضافة الى انفرس المقيمين في المناطق المفتوحة . وعند اعلان الحرب تشكل كل امانة قواتها بصورة مستقلة تندفع بها الى حيث يأمر الملك . وقد أدى هذا الى بروز أخطار فادحة ، ففي موقعة « سالامين » Salamine ، قاتل الفينيقيون والمصريون كل من خلال وحداته البحرية ، وهذا ما أضر بقوات حشويرش (خسرخص) . وعلى الرغم من حجم القوات الكبير الذي أعدته أمثال طرائق التجنيد السابقة في حالات الحرب ، إلا أن هذا ، لم يرفع الحاجة الى قوات نظامية دائمة لحفظ الأمن والقضاء على الثورات المحلية بالسرعة المطلوبة . وتأمين الحماية الخاصة بالقصر وبشخص الملك وعائلته .

لقد أظهر كثير من الوثائق الكتابية وجود القوات النظامية المسلحة في معظم دول المشرق العربي القديم وما جاوره من دول وامبراطوريات دون استثناء . ولربما تسبق دولة اخرى في الاعداد والتنظيم . ويمكن القول إن هذه القوات النظامية تتألف من قوات الحرس الخاص ، ومعظمه من رجال أشداء مجندين من المناطق المفتوحة ، وليس بالضرورة أن يكونوا من قبيلة الملك . وهذا كان تقليدا لدى ملوك آشور ، ونلاحظ أن كريت لجأت الى مثل هذا السلوك وعمدت الى تجنيد

القليل من الاجانب لحماية القصر والامراء المينويين ، ونلاحظ وجود حارس أسود في الرسم الجداري لقصر كنوسوس .

وهكذا نجد أن استخدام الاجانب في حماية القصر عادة قديمة ، ويعود أقدم ذكر لها ، الى عصر اور الثالثة ، حيث شكل شولجي أشهر ملوكها فرقة عيلامية اجنبية وهم من أسرى الحرب : وتآلف هذا التشكيل من فئات تضم كل فئة خمسة وعشرين جندياً . وقد استخدم السومريون فئات بدوية اسهما (سا + جز) أو (خباتسو) وأحياناً (خبرو) Hapru . أي الخطاين أو ، الاشداء . ولننوه هنا أن اسم هؤلاء القوم « خبرو » والذي يعني « خباتو » بالاكادية «خطاين» ، لا علاقة له بكلمة «عبري» كما روج الى ذلك علماء التوراة ، وأخذ بهذه المقولة عن خطأ وعدم فهم لجذور المشكلة كثير من المترجمين والمؤلفين العرب المحدثين . ولقد ظهرت المشكلة هذه في الخمسينات من هذا القرن مع ظهور اسم « خبرو » في الوثائق المسمارية ، وانتهت النقاشات حولها في الثمانينات بعدم جواز الربط بين « خبرو » والعبريين^(١) . هذا ولم يربط ديهيه (ص ١٤٩) بين الكلمتين .

لقد احتل المرتزة وتشكيلاتهم المحلية والاجنبية مكانة هامة في الامبراطورية بدءاً من العصر الآشوري وكذلك المصري الاوسط . وقد جندهم الآشوريون من بين فصائل البدو وسكان الجبال دون تفریق . فقد جند أسرحدون الآشوري فصائل الميرميين الايرانيين القدماء كما جند آشور بانيسال الفلسطينيين . كما قام الآراميون بدور هام في جيش آشور وبابل أدى في نهاية المطاف الى (تأريم) الدولة الآشورية والبابلية أي جعلها آرامية الثقافة . لقد كان خطر هذه السياسة واضحاً ، اذ يقع القصر الملكي تحت رحمة ضباط وجنود هذه الفرق ، وكان الشك والتآمر لا ينقطعان .

من جهة أخرى فقد تطور النظام العسكري الآشوري ، وتشكلت طبقة من القادة والضباط لأول مرة في التاريخ . وكان جهد تجلات بلاصر الآشوري واضحاً

١ - لمزيد من التفصيلات عن المشكلة انظر ف . عبد الله . خبرو خبرو - دراسات تاريخية ٣٢-٣٣ . ١٩٨٩ .

في تقوية الجيش وتحويل وظائفه الى مهنة حقيقية ، وعهد بالقيادة العليا الى اقرب الشخصيات من الحاشية ، وعهد القيادات الاخرى الى موظفين وحكام من الاقاليم . لقد شغل النبلاء والامراء القسم الاعظم من وظائف الجيش العليا ، وقد مارس هؤلاء عملهم بخاصة في ازمان الحرب . وكانت معاشاتهم تدفع على شكل اقطاعات من الارض وقسم من غنائم الحرب ؛ وقد رأينا كيف أن حمورابي أول من بدأ هذا التنظيم . وقد ظهرت في عهد تجلات بلاصر طبقة أخرى الى جانب قائد الجيش الذي يدعى تورثانو بالأكادية ؛ وهذه الطبقة تتألف من صغار الضباط وضباط العسف والجنود المحترفين . ولقد كان الاخمينيون أكثر الامم المجاورة حفاظاً على التقاليد الآشورية الحربية ، وعلى تدريب طبقة القادة وتقويتها . وقد افتتحت المدارس الخاصة في كل مرزبانة أو اقليم لتدريب صغار الضباط والقادة ، واشتهر عدد منها بتخريج دفعات لعبت أدواراً هامة في المعارك . وتوجب على المرزبان أو الحاكم الاشراف بنفسه على قوات الاقليم الخاصة به ؛ بينما كان يقود هو بالذات القوات اللازمة لحاجة القصر الأخميني .

لقد اعتمد الملوك الاخمينيون على قادة من أصل ايراني في معظم قياداتهم بعكس الاشوريين والمصريين . وشذ عن هذا اعتمادهم على القوات البحرية الفينيقية والاعريقية والمصرية التي لم تكن أمينة لهم مئة بالمئة ، فقد رفض الفينيقيون أن يقاتلوا أبناء جلدتهم القرطاجيين . بينما كانت قوات البر بقيادة فرس وميديين فقط . وشكل الحرس الخاص « الفدائي » من عناصر فارسية وحسب . من جهة ثانية فإن الملوك الاشوريين والعثيين والاورارتيين يقودون الحملات والمعارك بأنفسهم .

وكما شغل الملوك بتنظيم الجيوش وتدريبها واختيار قادتها ، فقد سعوا الى صنع الاسلحة وتكديسها في مستودعاتهم . وقد كشفت الحفائر في قصور كارمين بلور Karmin Blour وكلخ ونيوى وسوزة ، مخازن ملئت بالأسلحة البرونزية ، برغم النهب الذي تعرضت له . كما دلت النصوص الكتابية على انتقال كميات كبيرة من مادة البرونز الى المخازن الملكية بصورة عامة . وكان يحدث أن

يزيد الطلب عليه وتساق قوافل سريعة لنقله ، وتجهز الورشات لتصنيعه . ونهـذا فقد سعى الملوك الى السيطرة على طرق نقل مادة النحاس والقصدير الخام اللازمتين لصنع البرونز . ومنذ عصر ريم سين تشهد نصوص مدينة لارسا على استيراد كميات كبيرة من النحاس (سجل كمية ١٨ طناً في القصر الملكي) وهذا يسـجـم مع النشاط التجاري الذي عرف عن هذا العاهل . وفي نهاية القرن الثاني عشر أصبح امتلاك السلاح الحديدي ميزة كبرى انعكست بخاصة في النص التوراتي ، حيث احتكر الفلسطينيون صناعته وحرموه على بني اسرائيل .

لقد تطورت صناعة السلاح مادة وشكلاً عبر آلاف السنين حتى وصلت الى ما صلت اليه في العصور التاريخية ، حيث دخلت مرحلة تصنيعية متطورة بسرعة لتواكب كثرة الحروب التي نشبت في بلادنا .

لقد قدمت الحفائر الاثرية الشهادات على كثرة ما تركه الاقدمون من اسلحة . كان معظمها مصنعا من المعادن المعروفة وبخاصة البرونز ومن ثم الحديد ، بينما اختفى كل أثر للمصنوعات الحربية الجلدية والخشبية .

إن أقدم سلاح عرفه الانسان هو الحجر ، الذي شذب وصنع منه القدماء ، النصال ورؤوس النصال . واستخدم الخشب لصنع الرماح والسهام والجلود من أجل التغليف والحماية . وقد صنع القدماء قنابلهـم الخاصة . وهي كتل كروية حجرية أو فخارية قاسية ، كما أن المقلاع الذي عاد أهل فلسطين الى استخدامه في مقاومتهم للاحتلال الصهيوني يعد من أقدم الاسلحة التي عرفها الانسان . هذا ولم تكن الاسلحة تستخدم للحرب فقط ، فقد كانت ضرورتها من أجل الحصول على القوت والصيد . ونرى في أقدم الاعمال الفنية النحتية في أوروبا التي تعود لمطلع الالف الثالث ، مشاهد صيد وقد استخدمت فيها الحراب والسهام .

لقد شكل النحاس المادة الرئيسة لصناعة السلاح حتى ما بعد منتصف الالف الثالث ، والقليل ما كان يصنع من البرونز . لقد ظهرت البلطة الحربية بعيد القرن اثلاثين فقط . وتطورت بسرعة كبيرة في مرحلة ما قبل السلالات الباكورة . ولا شك

في أن اختراع الخوذة جاء لحماية الرأس من ضرباتها وضربات الأسلحة الأخرى .
لقد عثر على أنواع البلطات في كل من بلاد ما بين النهرين وسورية وغيلام وايران
الفريية وانتقلت عن طريق الرافدين الى الاناضول حتى وصلت الى القفقاس ثم الى
بحر ايجة وأوروبا في القرون الأخيرة من الألف الثالثة . وظل هذا السلاح مجهولاً
في حضارة وادي السند . وانهى دوره أخيراً بأن تحول الى قطعة تزيينية في
الاحتفالات والطقوس . ونراه بأيدي الملوك والآلهة النحتية . ومع تطور صناعة
أنواع السلاح في الألف الثاني عادت للبلطة بعض أهميتها القتالية .

لقد ظهر الخنجر أو المديية مع البلطة في آن واحد في بلاد الرافدين وايران
والاناضول وظهراً معاً في وقت متأخر في كل من وادي السند وبحر ايجة . وقد
صنع هذا الخنجر للقديم بشكل بسيط دون تعاليق أو زخارف ناتئة . وله مقبض
مزين كما في موكيني . وقد لعب دوراً هاماً في القتال بدءاً من ذلك التاريخ . وكان
يوضع في حزام الخصر كما ظهر في المنحوتات المينوية والآشورية والأخمينية .

لقد ظهر السيف بعد زمن قليل من الخنجر ، وقد وجدت أعداد جميلة منه في
آثار الاناضول ولكن لصله لم يكن من الحديد . ولم يأخذ دوره الفعال في الحروب
إلا بدءاً من منتصف الألف الثاني . وظهر المغتول وهو السيف الدقيق الحاد
في الطبقات السفلى من الحضارة الميكينية وحل محل الخنجر وانتقل منها الى أوروبا
وقبرص والسواحل الشرقية . وعثر في ايران ولورستان بالذات على أعداد من
السيوف المتطورة من البرونز والحديد فيما بعد . وظهر جنود آشور مقلدين هذه
السيوف بدءاً من عهد آشور ناصر بال الثاني . وفي العصر الأخميني صار السيف
السلاح التقليدي للجيش ، وهو سيف قصير وغمد يعلق بالخصر . وقد أخذ السيف
في اوجاريت شكلاً منحياً وبخاصة الغمد كسيف الآله أدد / حدد / هدد . وسيف
تينوى .

يبدو أن الصانع السومري في مرحلة ما قبل السلالات هو الذي صنع أولاً
ذلك السيف المقوس والحاد . وقد كان سلاح ، العراك والاستعراض في الاحتفالات
يحملة الملوك والآلهة المصورة وبخاصة في منحوتات آشور والكلدانيين . كما أن

الطَبَرُ المستطيل (بلطة طويلة المقبض) ذات نصل محدب يعود غالبا الى عصر
السلالات الباكورة في بلاد الرافدين و عيلام ، واستخدم مع الفأس المبلط للغرض
نفسه . وتوجد أشكالاً متنوعة من هذين السلاحين في سورية وفلسطين بدءاً من
منتصف الألف الثالث وفي لورستان بأعداد كبيرة بدءاً من الألف الاول ، ولم يعرفا
في بلاد السند أو بحر إيجة .

يبدو أن السومريين أول من ظهر لديهم سلاح الحربة أو الرمح الطويل . في
فترة السلالات الباكورة . وانتشر فيما بعد ، في الأناضول وسورية وقبرص
وتركستان ، ووجدت منه أشكال متعددة بنصل مسطحة أو مربعة . وقد لعب هذا
السلاح دوراً هاماً في معارك المشرق . كما ينسب حتى الآن ، الى السومريين صناعة
رؤوس السهام من البرونز ، وقلما وجدت مصنوعة من العظام أو الحجر الصواني ،
ولم يظهر هذا السلاح إلا في منتصف الألف الثاني في بحر إيجة .

لقد كان القوس والنشاب السلاح المثالي الخفيف للبذو ، وتوجد منه آثاراً
كبيرة في لورستان و إيران . وإذا تم العثور على كميات من رؤوس السهام ، إلا أن
القوس الذي صنع من الخشب على الأغلب لم يبق منه أثر . وقد استدل عليه من
خلال المصورات النحتية . وقد طور المصريون والكنعانيون القوس فأصبح
مزدوجاً مما زاد في فعاليته القتالية . إلا أن الأكاديين قد طوروا هذا السلاح
باستخدام القرون ، مما جعله خفيفاً وفعالاً في آن واحد . وكان سلاحهم الحاسم
والمفاجيء عند صعودهم الى المسرح السياسي ، فقد وصل قذف سهمه الى مسافة
٤٠٠ متر ! وبنهاية الألف الثاني كان هذا السلاح قد بلغ قمة فعاليته القتالية في
المشرق . لقد حمل المقاتلون القوس والنشاب على الظهر والاكتاف .

لقد عرف الاقدمون أنواعاً أخرى من الأسلحة الدفاعية التي صنعت من مواد
لم تقاوم الزمن سواء من الخشب أو الجلود أو القماش . فقد ظهر الدرع والترس
في وقت مبكر لدى السومريين الى جانب الحراب الطويلة . ويظهر الجنود
السومريون خلف دروعهم الطويلة في مصورات نحتية . وأغلب الظن أنها صنعت من

الجلود والخشب ولهذا لم يبق لها من أثر عبر خمسة آلاف سنة ! ويعود اختراع التروس الصغيرة الى ذلك الزمن ، والتي ظهرت فيما بعد في سورية وفلسطين وبحر ايجة . وقد طور الاشوريون أنواعا من الدروع استخدمت لحصاراتهم الحربية .

من جهة اخرى فقد تدرع الجنود بأنواع من الملابس الجلدية لوقاية الرأس والصدرين ، الصدر ، وادخل فيها بعض أنواع المعادن وبخاصة النحاس . وقد ظهرت الالبسة الواقية الدرعية بشكل متطور في بحر ايجة ومصر ولدى الكنعانيين في مصر بدءا من منتصف الالف الثاني . ولكن مثل هذه الالبسة ، تكلف غالبا ، ولذا لم يكن يلبسها جميع الجنود واقتصرت على القادة والضباط .

أما خوذة الرأس فقد صنعت من الجلد تارة ومن النحاس تارة اخرى . ووجد أقدمها في مدينة اور السومرية جنوب العراق . أما في الالف الثاني ، فقد صارت الخوذة البرونزية درعا مأثوفا للرأس ، وظهرت في بحر ايجة وغيرها من البلاد المجاورة للرافدين .

لقد تألف تسليح كل مجموعة من المقاتلين من أعدة منسجمة مع الوظائف الموكولة إليها في الحرب . وقد ظهر هذا التنوع في الاعمال النحتية لكل من الملك السومري أناتوم والاكادي نارام سين منذ الالف الثالث ، فقد أظهر النحات السومري في نصب الملك المذكور ، الجنود بخوذاتهم يتقدمون بصف متراص والرمح والفأس على الاكتاف . ويبدو أن كل فصيلة تتألف من ستة صفوف وكل صف من عشرة جنود . يقابل هذه فصائل المشاة الثقيلة هذه ، فصائل المشاة الاكادية الخفيفة ، حيث تسير الفصيلة بشكل متباعد حاملة القوس والنشاب ودونما دروع تحميها ، واكتفت بأسلحة خفيفة كالبلطات والحراش وقد لبس الجنود خوذة واقية . وهذا الاختلاف في العقلية العسكرية ، يرتبط أيضا بالاختلاف اللغوي ، وربما العرقي بين سومري وأكادي .

اذ ربما كانت اصول الاكاديين البدوية قد خلقت لديهم طريقة القتال المتباعد عكس السومريين المستقرين الذين يقاتلون بصفوف متراصة . ولهذا تطلب الاكاديون

مثل ذلك التسليح الخفيف التي يساعد على سرعة الحركة . ولكن ليس هناك ما يثبت ان الاكاديين لم يستخدموا قتال الصفوف المتراسة ، وأن المشاة الخفيفة قد خصصت لمعارك الجبال القاسية . وهذا ما عكسه نصب نارام سين المعروف . وبصورة عامة فقد استعمل هذان النظامان الخفيف المتباعد والثقيل المتراس في بلاد الرافدين خلال الالفين الثالث والثاني ، حتى المهود الاشورية ، حيث ظهر واضحاً أن لكل منهما هدفاً محدداً ، فالخفيف مهمته القتال في المناطق الجبلية والمناوشات وتتألف عادة من العناصر الغريبة بدوية أكانت أم مرتزقة . وسلاح هؤلاء هو القوس والشاب ويقاتلون دون أية دروع أو حماية خاصة . أما المشاة الثقيلة فقد شكلت من الجنود النظاميين الاشوريين ، وجهزت بأفضل السلاح والحماية . وشكلت بدءاً من القرن الثامن فصائل المقلعين ، والرماحيين والقواسين ويحميهم في المقدمة حملة الدروع . وصار السيف سلاح المشاة التقليدي . وانتقل هذا التنظيم الاشوري الى المناطق المجاورة ولمسناه لدى الكنعانيين وبني اسرائيل كما تروي اسفار التوراة ، وقد أدخل الفلسطينيون حملة السيوف الدقيقة الطويلة اضافة لما تقدم .

لقد قدم لنا المؤرخ الاغريقي هيرودوت Herodotus وصفاً لهجوم حشويرش (كسركيس) على بلاد الاغريق ، حيث تألف الحشد من فرس وميديين وآشوريين وقد حماهم درع حديدي يحمله المدرعون ورماحون وقواسون وسيافون ، وشكل القواسون والراجلون الخفاف من عناصر البدو وأنصافهم والسيت والعرب القوى السريعة خفيفة الحركة ، ولم يكن يحميهم سوى دروع خفيفة أحياناً .

لقد تطور دور المشاة بأنواعها منذ العهد السومري (بداية الالف الثالث) حيث كانت مجموعات ضئيلة وفعالة الى عهود البابلية (الالف الاول) حيث أصبحت تشكل قوام الجيوش وجسمها بتسليحها وعتادها . وقد ذكر الملك الحثي انتيتا أن عدد مشاته بلغ (١٤٠٠) رجل . بينما يقدر عدد مشاة الحثيين في معركة قادش بعشرة آلاف رجل . وكان شروكين الاكادي (المعروف بصرجون) أول «امبراطور» يعلن أن خمسة آلاف وأربعمئة مقاتل يأكلون من مائدته . وقسده استطاع بهذه القوة أن يطبع المشرق بالطابع الاكادي السلمي للعرب لأول مرة في

التاريخ ، فهو من هذه الناحية أول مؤسس لمملكة شاملة وأول « امبراطورية » موحد لأرض العرب وحضارتهم . وتلاه حمورابي الذي شكل جيشاً قوامه بين عشرة آلاف الى ثلاثين ألف مقاتل . واستطاع شلمنصر الثالث أن يؤلف جيشاً من مئة وثلاثين ألف مقاتل كما يذكر ليفتح بهم سورية وفلسطين وأخيراً فيلاني أرقام هيرودوت تصل الى مليون وسبعمائة ألف من المشاة الذين جاء بهم الفرس لغزو بلاد الاغريق . ولكن هذا الرقم يقسم عادة على عشرة من قبل معظم المؤرخين . ولربما يجب قسمته على مئة ليكون الرقم مئة وسبعين ألفاً . لأن الحروب الحديثة والتي تتوافر فيها مصادر متعددة وجيادية أحياناً ، عودتنا على مثل هذا التضخيم بالارقام فكيف الحال بالأقدمين .

لا توجد معلومات كافية عن كيفية تقسيم تلك القوات . ولكنها ، على الاغلب ، وضعت تحت قيادة ضباط وصف ضباط . ونعلم ان أصغر مجموعة مقاتلة تتألف من ١٠-١٥ مقاتلاً في العهود السومرية . ونعلم أيضاً أن مجموعة من (٣٠٠) رجل قد قسمت الى ثلاث سرايا . ولكن الآشوريين هم أول من اعتمد التقسيمات العسكرية المنتظمة ، وبخاصة بعد اصلاحات تجلات بلاصر الثالث . كما سجل لنا المؤرخون كثيراً من المعلومات عن تقسيمات الجيوش الفارسية ، اذ يبدو أنها كانت مقسمة على النظام العشري ، فأصغر وحدة هي ١٠ رجال هم ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٠٠ رجل .

يضاف الى قوة المشاة ، صنف هام آخر ، وهو القوات المحمولة على عربات الجر . وقد لعبت دوراً حاسماً في الحروب بدءاً من منتصف الالف الثاني ، ثم تراجعت أهميتها بدءاً من القرن الثامن . ونمتلك مصوراً نحشياً سومرياً (في مدينة اور) يظهر ان السومريين قد استخدموا العربات ذات الدواليين أو الاربعة . وكانت المعجلات مثلثة مؤلفة من الصاق نصفي دائرة ، وقد ثبتت المحاور على صندوق العربة عن طريق أربع عتلات ، وبمساعدة محور طويل حيث يربط بحيوان الجر . لا شك بأن مثل هذه العربة البدائية ، لم تكن لتسمح بمناورة سريعة ، كما أن حمولتها محدودة . ويصعد العربة مقاتلان هما السائق وآخر مسلح بالقوس والرمح

أو البلطة ، ويبدو أن تفهقراً لسبب غير معروف ، أدى الى تراجع استخدام العربية .
الى أن ظهر الحثيون بعربات أكثر رشاقة في غضون القرن السادس عشر ، وقد
تميزت بأنها مفرغة ومدعمة بشكل شعاعي . وقد ذكر الحثي أنيتا أنه يمتلك أربعين
عربة الى جانب ١٤٠٠ من المشاة .

هذا وينسب عادة وصول العربات المجرورة بالحصان الى القادمين الجدد
من الآريين بعيد القرن الثامن عشر . واستطاعوا أن يؤسسوا بعض الممالك المجاورة
لبلاد الرافدين . كما يعتقد أن الحصان قد تربى وأهل في السهول الآسيوية حيث
كان هؤلاء الآريون يقيمون . وقد عرف الحصان في وادي الرافدين (بابل)
وسهول حطب وحمص منذ القرن الثامن عشر بالتأكيد ، ولكن لم يحن على ما يبدو ،
دوره العسكري الهام . وتذكر بعض الكتابات على ألواح طينية تعود الى عصر
حمورابي أو خلفه ، قدوم جماعات تمتلك الحصان . ويظن أن هؤلاء من الآريين
الذين غزوا الهند قبلاً . وتحدثت عنهم ملحمة الراجفيدا الهندية فيما بعد . وما إن
انقضى القرن السابع عشر حتى انتشرت العربة بحصانين في معظم أنحاء المشرق .
ويبقى التاريخ الأكثر قدماً لوصول الآريين الى المنطقة مجهولاً ، ولكن حضورهم
أكيد بدءاً من منتصف الألف الثاني . كما أنه من المحتمل أن العربة الخفيفة قد
تطورت في المنطقة بالذات . ويبدو أن العربة الجديدة قد أذهبت المشاة وسبحت
للقادمين الجدد بتكوين بعض الامارات المتاخمة لبلاد الرافدين والتي أدت أخيراً
الى قيام الدولة الميتانية التي تألفت من اتحاد كبير من الامارات من نوزي الى
الامانوس . ويبدو ليس صدفة أن يستخدم نص حثي عبارات من أصل هندوآوري
في عملية ترويض الجياد وسياستها . ونعلم أخيراً أن بعض الحوريين ، الذين يعدون
— بحكم لغتهم — من أصل هندو أوري ، كانوا مهرة في تدريب الخيول وترويضها
سواء لدى الحثيين أو في الآلاخ والوجاريت شمال سورية . ويقدر الحثيون عدد
عرباتهم في معركة قادش بـ ٢٥٠٠ عربة أما رجالها فكانوا ٧٥٠٠ رجل .

لقد استخدم هذا السلاح الجديد كل من الكاشيين والآشوريين والكنعانيين
والمصريين على نطاق واسع . كما يبدو أن الآخيين قد عرفوه ، يستدل على ذلك من

نصب ميكيني يعود للقرن السادس عشر ، حيث تظهر عربة حربية بمجلتين وحصانين . ولكن يبدو أن الحصان كان مستخدماً في سورية قبل ذلك بقرون (بل سويحات) واستخدمت العربات لشن الهجوم ، وكمنصات لإطلاق المقذوفات من سهام ورماح . بينما وصف هومبروس في ملحمة أن الأمراء الأخيين قد استخدموا العربات للوصول سريعاً إلى ميدان المعركة حيث تدور رحاها على الأقدام . ويبدو أن الملكين سليمان وداوود قد قلدا النمط الكنعاني والفلسطيني عند تجهيز قواتهما بالعربات .

وعندما واجه شلمنصر الثالث تحالفاً من ملوك الآراميين في سورية وفلسطين ، بروى أن ملك دمشق حشد ١٢٠٠ عربة وحماة ٧٠٠ وحشد ملوك دول فلسطين ٢٠٠٠ عربة . وأنها كانت مقسمة إلى وحدات من ١٥٠ عربة .

لقد تميزت العربات الحربية برشاقتها ومستواها المنخفض إلى الأرض . وصنعت من الخشب الذي تم الوصل بين قطعه بحبال جلدية ، وكانت العجلات شعاعية وصغيرة ومتباعدة ، وبلغ عدد قضبان العجلة ستة ، وثمانية لدى الآشوريين والاورارتيين بدءاً من القرن الحادي عشر . أما جزع العربة فقد وضع في مؤخرة الصندوق لزيادة الحركة . ويجز العربة حصانان ، وغالباً ما يربط ثالث في المؤخرة احتياطاً . أما المقاتلون فهما اثنان إضافة للحوذي . وكان الآشوريون والسوريون يضعون القوس والكنانة في جيب بمؤخرة العربة ويضع الحثيون رمحاً طويلاً . كانت العربة من الممتلكات باهظة الثمن ، وإن الفئات الغنية وحدها القادرة على امتلاكها والاتفاق على خيولها . وكان التدريب العسكري على العربات والمناورة بها يستمر وقتاً طويلاً ، حيث قدمت بعض النصوص الحثية وصفاً حياً له . فإن سلاح العربات هو المفضل لدى الأرستقراطية أو الطبقات العليا التي كانت تشكل خطراً دائماً يهدد الدولة . وكان من أهداف أسلحات تجلات بلاصر الثالث تعجيم هذا السلاح وتقوية سلاح الخيالة وجعله بديلاً عنه . ولم يدرج استخدام الحصان على نطاق واسع إلا بعد القرن العاشر . وكان البدو أسرع من غيرهم بامتطائه والاستفادة من مزاياه الحربية . ولهذا فقد شكوا خطراً داهماً على الإمبراطوريات . وكان الآراميون أول من قدم لنا الشواهد النحتية المصورة على متطاء الجياد من

قبل المحاربين الملكيين في غضون القرن التاسع ، ولم يظهر الخيالة المحاربون لدى الآشوريين إلا في عهد نوكولتي نينورتا الثاني وآشور بانيسال الثاني وشلمنصر الثالث . وأخذ سلاح الخيالة يشكل قوة الصدمة الاولى في القتال ، في حين بدت العرب أكثر ثقلاً وضعفاً في المناورة . وسرعان ما تسلح به الآشوريون مقتبسين خبرة البدو في استخدامه ، وقاتلوا العيلاميين الذين استخدموا عربات تقودها أربعة جياد بمجالات ثقيلة وقضبان متعددة . واستطاع الخيال الآشوري أن يستفيد من مزايا هذا الحيوان لسيطر على أرض المعركة مهما كانت طبيعتها ، وهو مسلح بالقوس والرمح ومجن خفيف ، ولكن غياب ركاب الفارس من سرج ومهماز لم يؤمن جلوساً مريحاً للمقاتل . ولكن سرعة حركته جعلته هدافاً ناجحاً في المعركة . لقد تمكن الآشوريون من امتطاء الجياد وحسن استخدامها مما سمح لهم بالسيطرة في الحروب ، بخاصة بعد أن تحول هذا السلاح الى تنظيم تقليدي متقن .

أضف الى ما تقدم ، فقد نظم الآشوريون جهاز هندسة حربية مزوداً بالآلات خاصة لهدم التحصينات والجدران العالية أو تجاوزها . وفرق لبناء الطرق الحربية ومد الجسور السريعة على الأنهر والوديان . وجهزت قوافل التسوين الموصولة على الحمير والعربات بكل ما يلزم لتجاوز العوائق الطبيعية والاصطناعية والوصول الى أرض المعركة . بما في ذلك تأمين الورشات اللازمة لعمليات الترميم والاصلاح .

هذا ولم يتوقف الكلدانيون والفرس وغيرهم عن نقل التقنية الحربية الآشورية وتقليدها ، وهذا ما فعله الميديون قبل هجومهم على آشور . وقد هب الفرس وفق مصادر هيرودوت ٨٠٠٠٠ رجل بأعدتهم وعرباتهم في زحفهم على آشور ، واستخدموا الجمال حيث استخدمها العرب قبل نهاية الألف الثاني لأول مرة في التاريخ . وأدخل آشور بانيسال هذا السلاح الجديد في عداد تنظيمات الجيش . ونجح قورش باستخدامه في معركة ضد الليديين ، فقد جفلت الخيول من منظرها ورائحتها مما دب الذعر فيها . وأتاحت للفرس أن يتغلبوا على خصومهم .

ولقد حفل تاريخ المعارك في الشرق بالكماين واعداد المفاجئات التي تسبب العرب في قلوب الاعداء وتشتت صفوفهم . فلحظة بدء المعركة يقذف الاعداء

بسرّب كثيف السهام من قبل المشاة الخفيفة ثم يبدأ هجوم صاعق بالعربات • وتبدل هذا الهجوم في بدايات الالف الاول الى هجوم بصفوف من الخيالة والجمال • وهذا ما صار تقليداً في معظم حروب الشرق •

ومن المبلغات الأخرى في الحروب ، القيام بشن هجوم صاعق ليلي يبدأ قبل بزوغ الفجر بحيث يشتت الأعداء قبل تمكنهم من أسلحتهم • وهذا ما حدث في قادش عندما فوجئ المصريون بهجوم حثي مماثل •

وتبدأ الحروب عادة في الفصول المعتدلة • ثم يبدأ المسير الحربي في الربيع ، بعد أن تم الإعداد له طوال الشتاء • وهناك حالات شاذة مثل الهجوم الشتوي الذي قاد قورش الى النصر في ليديا • وإذا لم تتمكن الجيوش من العودة الى بلادها قبل فصل البرد القادم ، فإنها تنصب خيامها في أرض الأعداء حتى الفصل المناسب • وأفضل ما عرفناه عن هذه المخيمات هي الآشورية الدائرية والميضوية • وينتشر المعسكر الآشوري على مسافة مئة متر الى مئة وخمسين متراً يقطعه شارعان متعامدان يقسمانه الى أربعة أقسام متساوية • وتضرب الخيام والمعسكرات عند حصار المدن والقلاع ، الذي يجب ألا يدوم طويلاً ، وإلا فيلجأ المحاصرون الى الهجوم وتهديم الجدران أو فتحها عن طريق الخيانات والاعوان • فقد سلم كهنة مردوك بابل الى قورش بدون مقاومة • وتمدنا ملحمة الإلياذة عن حصار طروادة بمعلومات تبين مدى إمكان استمرار الحصارات • « صعد شلمنصر ، ملك آشور ، على السامرة وحاصرها ، واستولوا عليها بعد ثلاث سنوات » • (سفر الملوك الثاني ١٨/٩-١١) ، ورواية التوراة هنا تقصد حصار شلمنصر في فلسطين • ونجد سنحريب الآشوري يبحث عن وسيلة لاقتحام مدينة القدس وقهر ارادة حزقيا « ولا يجعلكم حزقيا تتكلمون على الرب بقوله : الرب ينقذنا ولا تسلم هذه المدينة الى يد ملك آشور » (مل ٢/١٨ - ٣١) •

وهكذا عندما تفشل المحاولات القائمة على الحرب النفسية في اقناع العدو بفتح أبواب مدينته • وتذهب كل الامكانيات في ايجاد متعاونين من داخل الحصن ، تبدأ عند ذلك الآلة الحربية بالعمل لتهديم الجدران والحصون ، أو تسليقها بالسلالم

حتى يومنا هذا على الاتفاق الكبير ، والتطوير الهائل لفنون العمارة التحصينية .
فمنذ عصر ما قبل السلالات رفع الملك الملحي جلعاش سوراً عظيماً حول مدينته
أوروك ، حيث يعتقد علماء الآثار أنهم وجدوا بعض بقاياه ! وكانت مدن ما قبل
التاريخ في فلسطين وسورية والعراق والاباضول قد حصنت بأسوار منيعة ، وكانت
المدن المحصنة تضم حينئذ سكاناً يضاف اليه سكان الريف المجاور وقت الازمات ،
ولهذا فقد ضمت المدن ساحات خاصة لاستيعابهم .

لقد تميزت العمارة الخاصة بالتحصين منذ الالف الثالث ، فقد عمرت الجدران
بالطوب القاسي في بلاد الرافدين ، وعمرت القواعد الجدارية من الحجارة المتوافرة
ومن ثم اكملت بالطوب في مدن أخرى سورية أو أناضولية ، وبنيت التحصينات
من الحجارة الخالصة في المدن المكنية . وظهرت الجدران والأسوار العالية ومزدوجة
السماكة في الالفين الثاني والأول . وعمرت الأبراج محيطة بالمدينة ومدعمة الاسوار ،
سامحة للمدافعين أن يكونوا أكثر منعة ضد مهاجميهم . لقد عرف الشرق في
النهاية نظاماً معمارياً يعد الأول في التاريخ الانساني .

فكانت آشور ونيوى وكر كيش وكل ليلان - شوباط اقليل وإبلا وأوجاريت
وأرواد أمثلة من مختلف العصور تشهد على جهد الانسان في تحصين المدن .
وحفرت الاتفاق في المدن المحصنة خارج الاسوار لتساعد على التمويه أو الهرب
وإرسال المبعوثين لطلب النجدة .

وكما أشرنا سابقاً فإن المدن المينوية هي الوحيدة التي لم تقدم لنا آثاراً تدل
على وجود التحصينات ، ولربما كان توزع هذه المدن في جزر بحر ايجه عامل
تحصين طبيعياً . أما مراكبها فلا توجد معلومات عن طبيعتها الحربية . ولكن مما
لا شك فيه أنها كانت مزودة بشراع بسيط ومجاديف مساعدة .

إن أولى معارك البحر في التاريخ القديم ، وصلت اليها أخبارها عن طريق
رعسيس الثالث عندما واجه غزوات شعوب البحر التي ضمت عناصر بشرية ايجية .
وبعد آلاف الاول تاريخ بدء تطور القوى البحرية الشرقية في البحر الابيض

المتوسط ، وخير من يمثل هذا التطور هم الفينيقيون . وقد صور لنا سنحريب في
بنوى مراكب البحر الحربية الفينيقية بصفين من المجاديف وبترس للحماية . وقد
اثار تطور بناء المراكب لدى مدن الساحل السوري شهية الامبراطوريات
البرية لبناء الاساطيل ومراقبة طرق التجارة البحرية . وكان الآشوريون والمصريون
والفرس في طليعة الدول التي بنت الاساطيل أو سخرت مالكيها لخدمتهم . ويعتقد
ان مئات المراكب الحربية الفينيقية ساهمت في معركة سلاميس Salamine
بين الفرس والاعريق . وكان هذا التحالف ، هو الثمن الذي دفعه الفينيقيون للفرس
للمحفاظ على نفوذهم ومصالحهم البحرية .

لقد حرمت دول الرافدين من شواطئ بحرية طويلة . ولم تكن تستطيع
لوصول الى المنفذ الضيق على الخليج العربي في كل العهود . فقد حرم حمورابي
من الوصول اليه لصدده عليه من القبائل المناهضة له . أما سنحريب فقد جهد الى
تجهيز مراكب بحرية سريعة سرعته استطاع بفضلها أن يفتقر أماكن السبخات
والمستنقعات التي توصله الى خليج العرب جنوبا .

لقد حفل تاريخ الشرق بالحروب وكما قلنا في البداية ، ولم يكن وقت السلم
إلا تحضيراً لشن حرب مقبلة . لقد أمضى الملوك والموهل أوقاتهم في التحضير لها ،
وبشوا العيون في مقدمة طلائعهم . ليختبروا قوة الخصم واستعداداته ، وكان
دافعهم التوسع وحل أزماتهم الاقتصادية تحت شعارات دينية . ثم تجلّى طموحهم
في بناء الامبراطورية العالمية ، وإقامة نظام شامل تحت سلطتهم . ولكن تحقيق هذا
الهدف كان صعب المنال ، في ظل طموحات الحاشية الملكية لتحقيق مكاسبها وغياث
تنظيم اداري يتخطى هدفه الاساسي وهو جني الضرائب والحصول على الموادالاولية
وحسب . إن الدرس الذي يجب أن نستخلصه من واقع تاريخ الحروب في مشرقنا
هو بقاء فكرة الوحدة اللغوية والتاريخية والاقتصادية لبلاد الوطن العربي القديم
برغم التنازع الرافدي بشقيه البابلي والآشوري مع المصري الفرعوني على سيادة
المنطقة .

ونقد شكلت الجزيرة العربية قديماً مسرحاً هاماً لهذا الصراع الذي نقصنا

كثير من المعلومات حوله بسبب قلة التنقيبات الاثرية والدراسات الميدانية • وشكل التدخل الخارجي المتمثل بالغزو الهندو اوروبي الذي تمثل أقدمه بالحشيين مروراً بالميتانيين والكاشيين والفرس عاملين أولهما ايجابي تمثل في الاختلاط والتمازج الحضاري بين شعوب من لغات مختلفة وشعوب منطقتنا ، وثانيهما العامل السلبي الذي تمثل بطموح هذه الشعوب في السيطرة والحصول على المكاسب ذاتها التي حققتها الامبراطوريات الشرقية القديمة في الوطن العربي القديم • ولعل هذا الدرس يخدمنا اليوم في رؤية واقع التنازع الاوروبي الامبركي للسيطرة على خيرات البلاد والنضاء على قوتها السياسية والاقتصادية والعسكرية •

الفصل الخامس

الحياة الدينية

١ - جذور العبادة فيما قبل التاريخ ومعتقدات الاخصاب والتناسل وشعائرها:

لا تشكل الوثائق الدينية المكتوبة أكثر من عشر بالمئة من مجموع الوثائق المتعلقة بحضارة الشرق ، التي يصل عددها الى نصف مليون . وللاحظ التباين الكبير بين وفرة الوثائق الاقتصادية والادارية والسياسية ، وقلت ما يتعلق بالحياة الدينية والادبية والفلسفية . ان الوثائق الدينية والادبية المتوفرة تسمح بفهم مقبول نسبيا لطبيعة التفكير في بلاد الرافدين وبلاد الشام وكذلك في الاناضول وغيلام . ولكن هناك بعض المناطق التي لم يتوافر فيها أي نوع من الوثائق المكتوبة ، ولذا فان المجال واسع للفرضيات المقبولة وغير المرضية أحيانا كثيرة . هذا وتندر المعلومات المكتوبة بالنسبة لبعض المناطق المتاخمة للرافدين في الالف الثالث ، وبداية الثاني قبل الميلاد . وهذه حال وادي السند الذي لم يعرف الكتابة إلا في غضون الالف الاول . وكذلك ايران لم تقدم لنا معلومات كافية حتى العصر الاخميني أي بعد منتصف الالف الاول . كما أن الحضارة الايجية قد شارفت على الزوال في نهاية الالف الثاني ولما تقدم كتابة أو نصوصا دينية أو أدبية هامة . إن غياب الشواهد الكتابية ، عن كثير من المناطق في الشرق القديم ، لم يكن مانعا لكثير من تفسيرات المؤرخين والفلاسفة والسياسيين التي تخدم أغراضا خاصة . حيث أن مجرد العثور على تماثيل أو مشخص صغير دون أي تدوين يدفع بعضهم الى نسج ديانة ما كانت

قائمة في المكان ! وفي الحالات التي استفدنا منها لفهم البدايات ما قبل الكتابة فإن مصادر معلوماتنا اقتصرت على بعض الشخصيات الاثوية وبعض هياكل المعابد ومحتوياتها من أدوات الطقوس . دون أن تمكن من فهم طبيعة هذا الدين ومحتواه الفكري . ويمكننا ان نتصور كنائس وجوامع خالية دخل اليها اناس من كوكب آخر لا يعرفون شيئاً مكتوباً عن المسيحية أو الاسلام فكيف بهم سيفهمون عقائدهما من خلال البناء أو الشخصيات وحسب ؟ كما أن بعض التشابه في وقائع أو أفكار بعض القصص والروايات الدينية لا يجب أن يدفعنا هذا وبصورة آلية ، الى ربطها بقصص أو روايات أقدم منها وجدت في مكان آخر .

إن معلوماتنا عن الدين ومعتقدات البدايات الانسانية الفلسفية نادرة ومعدومة في مرحلة ما قبل التاريخ ، أي قبل ظهور الكتابة . في القرن الثلاثين قبل الميلاد تقريباً . ولهذا يتسابق المنظرون وبعض الاثائيين في استقراء بعض اللقى أو نسج فرضيات لا تستند الى واقع . إن كل ما يقال عن عبادة الاشئ في مرحلة ما قبل الكتابة أو ما يقال عن العبادة السلفية القبلية « الطوطمية » . لا يستند في الواقع إلا الى عثورنا عن بعض الشخصيات الطينية أو الحجرية لاناث بأشكال قد ضخمت فيها وأبرزت الاعضاء الاثوية كالثديين والفخذين ، فقد ألهمت هذه الشخصيات المثيرة خيال بعض المتسرعين قعدوها شاهداً على قيام الديانة الامومية ، لا بل عدوها مرحلة تاريخية أسموها الامومية . وكذلك الحال فإن بعض الرموز والشخصيات الحيوانية والخيالية لدى بعض القبائل الافريقية وما عثر عليها من مشابهاة في التنقيبات الاثرية قد دفع بآخرين لخلق وابتداع ما يسمى الديانة السلفية « الطوطمية » .

لقد عثر على أعداد كبيرة من الشخصيات الاثوية آفة الذكر في معظم أضلاع المشرق في الهند ويران وبلاد الرافدين وسورية وبحر ايجة والاناطول ومصر . ويعود تاريخها الى حقبة مختلفة . وتمثل هذه الشخصيات ولا شك ، أهمية فكرة الانجاب والخصوبة لدى الانسان وفي الطبيعة . ومن البدهي ان تشغل هذه المسألة الانسان منذ أقدم العصور . ولربما كان لهذه الفكرة دور في تقديس مكانة

الأم المنجبة وقيام طقس ديني ما لتبجيلها نجد بعض مكوناته في مقوس وعبادات
أديان ما بعد التاريخ .

ثم لتساءل ألم تظهر المجتمعات القديمة في شتى أطوارها اهتمامها بالمظاهر
الاثوية ؟ انه لا امر طبيعي ان تحتل الاثى وطبيعتها الجمالية ووظيفة إنجائها مكانة
في محلة فناني العصور القديمة فيضعون لها الدمى والمشخصات .

لقد أثبتت اكتشافات الأثري ملارت Mellaart في موقع حجي لار Hacılar
وتشانتال هيوك في جنوب الأناضول المعطيات المتعلقة باحترام الاثى ومشخصاتها
في العصر الحجري الحديث . فلقد اكتشف عددا من زوايا العبادة المزينة بالرسوم
الملونة والثائرة ، المصنوعة من الجبس ، الى جانب عدد من الدمى والمشخصات
الاثوية الجميلة من الحجر والفخار المشوي ، وهي تشكل وثائق هامة لهذا الموضوع
أي اهتمام انسان العصر الحجري الحديث (نحو ٨٥٠٠ سنة قبل الآن) ، بالاثى
وجعلها رمزا من الرموز الهامة في حضارته البدائية .

نلاحظ من خلال دراسة المكتشفات آفة الذكر ، أن الفنان القديم قد أقام
التوازن بين النوع الحيواني والرمزين الجنسيين المتعارضين للانسان اللذين يقوم
عليهما وجوده . فقد مثلت الام المقدسة الى جانب النمر والفهد ، بينما مثل الجانب
الذكوري المعارض بالثور أو برأسه المقرن . ونلاحظ الدور المتبادل للعناصر الذكرية
بالمقارنة مع الام المقدسة اذ يكون الابن أو الحبيب أو الزوج . هذا ما لمسناه في
الدمية المكتشفة في حجي لار حيث شخصت الام مع مراهق . ان العناصر الفنية
السابقة سوف نجدها في الاعمال الفنية الدينية في العصور التاريخية اللاحقة .

يعكس لنا ما تقدم وجود نوع من العبادة والتقديس يشكلان مفهوما دينيا
أموميا منظما قائما على نظام قبلي ، حيث لكل قبيلة معبدها . هذا النظام سينعكس
على المستوى الديني في تقديس أسلاف القبيلة واحترامها . هذه العبادة للأسلاف ،
سنجدها واضحة في آثار تشانتال هيوك في الأناضول وفي مواقع أثرية سورية (تل
الرماد) وفلسطينية (أريحا) ، حيث عثر على جماجم انسانية محفوظة على جدران
معبد مزين . ويعتقد الأثري ملارت أن المعطيات الأثرية السابقة تدل على رؤية

الاقدمين وتفسيرهم لظاهرتي الولادة والموت ، حيث ظهر مجنح خيالي يمثل العالم الآخر .

ان اهتمام الاقدمين بعالم الحيوان والاستعانة به لتفسير مشكلة الولادة والموت أمر ظاهر في معظم حضارات الشرق القديم . وهناك مثال فريد من نوعه ، ظهر في موقع موهينجو دارو في وادي السند ، وهو عمل فني خيالي يمثل امرأة في وضع تزواج مع ثور . وليس أمراً مستغرباً أن الربة الموثقة تمثل الى جانب حيوانات أخرى كالفهد وغيره في مواقع حضارية تعود لفترة العصر الحجري الحديث (نحو ٦٥٠٠ ق م) . من جهة أخرى فقد قدم الاله المذكر ممثلياً ثوراً بصورة عامة ، هذا اذا لم يقدم مباشرة على هيئة ثور . أما الابن فقد يمثل في هذا كأمه . نجد مثل هذا الترميز في حضارة كريت أيضاً ، وهو بلا شك موروث من حضارة الاناضول الحجرية الحديثة . وسنجد في كثير من ملاحم الاغريق الادبية التي تقص تزواج امرأة هي (اوروبا) أو بازفاي Pasiphae مع ثور . تظهر الانثى بأشكال متعددة في أعمال الفن الديني امرأة وعذراء (ابنة) ، في معظم حضارات الشرق ، قبل ظهور الكتابة والتاريخ ، وهي رمز للخصوبة الانثوية بصورة دائمة . وقد ظهرت الانثى كأم وابنة في حضارة سومر وتنافستا في خيال وأعمال الانتاج الادبي الديني . وأشهر شخصية هي عشتارت وعشتار ، وأنان Anat لدى الكنعانيين ويعكس تعدد هذه الاسماء دون شك التنافس القبلي والسياسي بين السكان ، حيث لكل قبيلة أو مدينة ربة محبودة ، ازدهرت وزادت أهميتها مع التطور الاقتصادي والادبي الخيالي .

٢ - الالهة السماوية :

لا نستطيع تحديد تاريخ محدد لظهور الاقتصاد الزراعي ، وانتشاره الواسع منذ العصر الحجري الحديث ، والمترافق مع ظهور عبادة آلهة الخصب الزراعية التي ولا شك ذات صلة بعبادة الربة الام المنجبة في عصور أقدم . ولكن أهمية الزراعة في العصور التاريخية توضح لنا أهمية عبادة الخصب وانتشارها في معظم

حضارات الشرق القديم ومصر وسورية والرافدين أولاً ، فالزراعة هي سبب قيام الحضارات وموتها ، ولعل هذا الامر لم يتبدل رغم التطور الآلي الحديث . لقد ظهرت ربات كبيرات في بلاد الرافدين من أقدمها عشتار الاكادية ولها مظهر امومي قديم ما لبس أن درج ليصبح رمز الخصوبة عامة والزراعة بصورة خاصة ، وظهر الى جانب عشتار إله مذكر هو إله النبات والخصوبة ، وهكذا فإن هذين الزوجين يمثلان رموز الانجاب والاختصاب الانساني والزراعي فيما بعد . فقد سمي الكنعانيون رمز الخصوبة الذكري بعلاء ومنه ما تزال العربية تحتفظ بالكلمة لتدل على الاراضي البعلية أي غير المروية إلا من السماء وإرادة بعل رب الامطار كما وظفه الكنعانيون ، الذين عدوه زوجاً وأباً لربة الخصوبة أنات (عناث عند قدمي العرب) . أما في بلاد الرافدين وسورية الداخلية فقد كان الإله تموز / دموز الاكادي قد سجل ظهوره لدى السومريين وهو الآخر الزوج والرفيق لعشتار . وانتقلت الفكرة الى جزيرة كريت المينوية (Menon) من هذا المكان بالتأكيد (ديبيه ص ٢٣٩) . أما وظيفة هذه العبارة الرمزية فقد تجلت بالاحتفالات برأس السنة الجديدة السومرية والاكادية والبابلية التي تبدأ مع الربيع أو مع الخلق ، حيث يتبرعم كل شجر وتخضوض الارض . وتبلغ ذروة الاحتفالات هذه بالزواج الرمزي بين زوجي الخصب عشتار وتموز يمثلها في الاحتفال الملك وكبيرة قديسات معبد عشتار ، كل هذا مترافق مع الترانيم والدعوات والرموز التي تدعو لإعادة دورة الخصب والعطاء . ولقد حذا الكنعانيون حذو الاكاديين والبابليين في ابداعات أدبهم الديني في الاحتفال برأس السنة الجديدة دون ظهور ختام الاحتفال بالزواج بين الملك وقديسة معبد عشتار . ويأتي الصيف والشمس لتحرق الزرع ويموت الاله المذكر وبعودته في الربيع يتجلى دور عشتار الام في قضية الخلق والولادة .

وتحدث لنا مقطوعة بعل الكنعانية عن موت الطبيعة وغياب اله الخصب وضياع بقية الآلهة ، حيث لم يبق لها ما تأكل . ويتجلى لأول مرة « موت » وهو إله الموت عند الكنعانيين الذي يقتل بعلاء (وفق الرواية الكنعانية) بواسطة التنين ويبعث به إلى الجحيم ، وبذلك تنقطع الحياة فوق الارض ، عندما تتدخل الربة أنات وتهاجم إله الموت والقيظ والجفاف ، الذي يتحول هو بالذات الى ذرات ورماد

تعيد الخصوبة الى الارض وكأن بعل وموت من طينة واحدة . تقول المقطوعة
الكنعانية واصفة هجوم أنات على موت : « تمسك بموت ، بن ايل (الإله) »
وتمزقه بالسيف » .

وما إن ينتصر بعل ويعود حتى تدب الحياة على الارض وتعود الخضرة وينمو
النبات وتمتلئ أعشاش النحل بالعسل ، وتنساب مياه الينابيع في الوديان .
يقابل هذا الزوجان المخصبان عشتار / تموز ، وبعل / أنات لدى الفينيقيين
أدن / عدن / أدونيس Adonis (عدنان نقيض قحطان . عدن في القرآن نقيض
الجفاف ونار الجحيم) . ويقابله الفريجيون مع أتيس Attis .

بعد هذا العرض العام عن الحياة الدينية في المشرق العربي القديم لا بد لنا
من معالجة هذا الموضوع بتوسع أكثر في المناطق الكبرى الثلاث التي تشكل منطقة
المشرق العربي القديم وهي بلاد المرافدين وبلاد الشام ومصر القديمة .

١- الحياة الدينية في بلاد المرافدين :

تأثر الأكاديون الذين استوطنوا بلاد المرافدين بالحضارة السومرية وبخاصة
في المجال الديني . فاحتفظت الآلهة السومرية الكبرى بمكانتها لديهم ، فقط الاسماء
تغيرت فأصبح أوتو Utu إله الشمس السومري يدعى بالأكادية شماش ، وإشكور
إله الطقس أدد وإنانا إلهة الخصب والحب والحرب عشتار . أما صفاتها الأساسية
كآلهة حضرية فقد احتفظت بها .

حافظت المعابد على قدسيته المعروفة منذ الأزمنة القديمة ولم يطرأ تغير جذري
على أشكال العبادات القديمة . حتى إن اللغة المستخدمة في ذلك بقيت السومرية
خلال المراحل الزمنية المختلفة وبعد غياب السومريين عن المسرح السياسي . يبدو
أن تجسيد الآلهة على شكل حيوانات ، الذي لم يختف من مصر بشكل كامل ، كان
موجودا في بلاد المرافدين خلال الألف الرابع قبل الميلاد .

كانت الآلهة تجسد على شكل بشر بوضعيات مختلفة . والعلامة المميزة لها

هي غطاء الرأس على شكل مخروط أو قبعة وفوقها قرون ثور • ويبدو أن عدد القرون يشير إلى مكانة الإله المقصود (عادة اثنان) •

كان معظم الآلهة لا يحب البشر ويعدهم خدماً خلقوا ليؤدوا خدمات للآلهة •
غير أن بعضهم كان يظهر في بعض المناسبات الشفقة والرحمة على البشر كالإله
إنكي الذي نصح أوتنابشتيم ببناء سفينة عندما قررت الآلهة إرسال طوفان إلى
الأرض •

أسبق سكان بلاد الرافدين على الآلهة صفات إنسانية فهي تأكل وتشرب وتنام
وتحب وتغضب وتمرض ، لكنها لا تموت • فالصفة الأساسية التي تميزها عن البشر
صفة الخلود والبقاء الأبدي •

وقد اختلفت صفات ومجالات تأثير الآلهة الرافدية خلال الفترات الزمنية
المختلفة • ولكن يمكن القول بشكل عام إن الإله كان يمثل كسيد للمدينة أو
المنطقة التي يعبد فيها وكل الفيض الإلهي والطموح إلى القوة والحق والواجب •
وبالتالي كان النظام الأرضي للدولة والمدينة يشبه النظام السماوي ولكن بصورة
غير كاملة • ونمو المدينة وتحولها إلى دولة ومملكة كبيرة كان يتبعه خلق مجتمع
إلهي يقف على رأسه إله المدينة الحاكمة • فعندما أصبحت مدينة بابل عاصمة لمملكة
كبيرة مترامية الأطراف تحول مردوك إلهها بشكل تلقائي ليصبح إلهاً لكل تلك
المملكة •

كان عدد الآلهة كبيراً في بلاد الرافدين لكل منها اختصاصه المعروف فهذا
مسؤول عن الطقس وذلك عن الحكمة • الخ • وقسمها الكهنة البابليون إلى ستمائة
إله سماوي (أنو ناكو) وستمائة إله سفلي أي تحت الأرض (غيني) • وكانت
درجة عبادة كل إله وأهميته تختلف من مدينة إلى أخرى ومن زمن إلى آخر •

كان لكل مدينة سومرية إله أو آلهة مثل إنانا من أوروك ونيسابا من أوما
ولينجر سو من لاجاش وزبابا من كيش وتيشباك من إشنونا ونانا من أور • غير أن

ذلك لا يعني عدم انتشار عبادة الإله خارج مدينته الأم التي تعد بمثابة المركز لعبادته حيث يقوم معبده الرئيس فيها وتجري له الطقوس والاحتفالات الدينية .
ويعد هو بمثابة الحامي والمدافع عن مدينته ضد الاخطار الخارجية .

كما أسلفنا أسبق الانسان الرافدي صفات بشرية على الآلهة فهي تتزوج وتنجب أولاداً وتتخذ خليلات لها . وكل ذلك يظهر في الاساطير المختلفة . احتلت المركز الاول بين الآلهة الرافدية الآلهة الكونية الكبرى آن وإنليل وإنكي الذين كان مكان نفوذهم السماء والفضاء والارض مع محيط الماء العذب الحامل لها .
يعبد آن (بالأكادية أنو) إله السماء الإله الكبير وحامي النظام الكوني تسلم منه الآلهة قوانينها ، ورمزه التاج ذو القرون وحيوانه المقدس الثور .

أما إنليل فهو إله سומר الرئيس ومالك ألواناح القضاء خالق ومدمر في آن واحد . ويهدأب لعدد من الآلهة مثل أدد إله الطقس وسين إله القمر ونيرجال إله الطاعون والعالم السفلي وشماش إله الشمس . وكان مركز عبادته الرئيس في مدينة نيبور حيث كانت تجري له احتفالات سنوية هناك وتزور معبده مواكب من مختلف المدن السومرية .

والإله الثالث ضمن الآلهة الكونية الكبرى إنكسي (إيا بالأكادية) إله الحكمة والارض وسيد محيط الماء العذب الذي يغذي النباتات والانهار . مركز عبادته الرئيس مدينة إريدو Eridu في جنوب بلاد الرافدين (حالياً تل أبو شهرين) حيث عثر المنقبون على أقدم المعابد التي عرفتها البشرية والذي كان مخصصاً لعبادة هذا الإله .

إلى جانب تموز ونانشي يظهر الإله مردوك أشهر سليل لإنكي . بالإضافة إلى الآلهة الثلاثة الاولى الكبرى هناك مجموعة أخرى تضم نانا (بالأكادية سين) إله القمر وأوتو (شماش) إله الشمس وانا (عشتار) إلهة الحب والخصب والحرب .

يمثل الإلهان الأولان قوى طبيعية كبرى لها تأثيرها الكبير في حياة الإنسان ليس فقط في بلاد الرافدين بل في مختلف بقاع العالم حيث عبدت هاتان القوتان بأسماء مختلفة .

أما إنانا / عشتار فتتمثل خصوبة الطبيعة ومحبوبها التقليدي الراعي تموز إله النبات . واتحاد هذين الإلهين يطرح النموذج القديم للعرس المقدس الذي كان يحتفل به سنوياً في بلاد الرافدين ويرمز الى تجدد الخصب في الطبيعة . وقد وضعت حول ذلك أساطير متعددة . كان حيوانها المقدس الأسد ورمزها نجمة ثمانية . من الآلهة الرافدية الأخرى نيرجال إله الطاعون والعالم السفلي وإشكور (أدد بالأكادية) إله الطقس وسلاحه البرق والرعد والرياح والطوفان . هناك أيضاً مردوك إله بابل الرئيس وآشور إله آشور الرئيس ونابو إله الكتابة والكتاب .

وكان بعض الملوك والحكام يؤله نفسه كالملوك الأكاديين وملوك سلالة أور الثالثة وملوك عصر إسين ولارسا . والهدف من ذلك إظهار القوة والجبروت ولكن نيس الوقوف على قدم المساواة مع الآلهة المعروفة . عبر الإنسان الرافدي عن تقواه وخوفه من الآلهة بإقامة الطقوس والعبادات المختلفة في معابد مخصصة لذلك . فشيء الكثير منها منذ عصور ما قبل التاريخ ، وتحول بعضها مع مرور الزمن الى مراكز دينية هامة لها شهرتها الكبيرة كمعبد إكور ، معبد الإله إنليل في مدينة نيبور ، ومعبد ازانغالا معبد الإله مردوك في مدينة بابل ومعبد الإله سين في أور . كذلك كانت هناك معابد أخرى متعددة منتشرة في المدن المختلفة . كان الكهنة يشرفون على المعابد وإقامة الطقوس والعبادات والاحتفالات الدينية المختلفة ، ولهم مراتب دينية محددة أعلاها مرتبة الكاهن الأكبر الذي ينوب عن الملك في إقامة الصلوات العادية . أما الاحتفالات الدينية الكبرى كعيد رأس السنة فكانت تجري بحضور الملك الذي يعمد ممثل الإله على الأرض .

كان الأموات يدفنون في مقابر كمقبرة ملوك سلالة أور الثالثة وقبور الملوك الآشوريين من عهد الإمبراطورية الحديثة ، أو تحت أراضي البيوت . ولجعل الحياة محتملة في مملكة الأموات كانت الروح بحاجة الى أضحية

- ١١٣ -

تاريخ الحضارة - م ٨

كل سنة • وهذا ما دفع عديني النسل الى تبني أولاد من أجل هذه الغاية • ففكرة الناس عن الآخرة ملخصها أن كل الارواح تذهب الى العالم السفلي أو ملكة الاموات ولا تعود الى الارض ولا يوجد حساب • فالتقدر المظلم يخيم على الجميع الطيبين والسيئين • غير أن الذين لهم أولاد ويقدمون أصحابي عنهم يكونون في وضعية أفضل • وهكذا لا تقدم الآخرة شيئاً للإنسان • لذلك فإن تقوى الناس دينوية محضة هدفها كسب رضا الآلهة في الحياة الدنيا كي لاتصيبه بسكروه •

ب - الحياة الدينية في بلاد الشام :

نستمد معلوماتنا عن الحياة الدينية في بلاد الشام من مصادر متعددة سواء تلك المكتشفة في بلاد الشام أو في المناطق المجاورة كوادي الرافدين ووادي النيل •

تبين لنا نصوص إبلا التي ترقى الى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد أن سكان شمال سورية عبدوا آنذاك الكثير من الآلهة أشهرها نيدا كول الذي كان ربما إله القمر • وعبدوا أيضاً بعل إله الخصب ورَسَب إله الطاعون والنار والعالم السفلي ودجان الذي انتشرت عبادته أيضاً في بلاد الرافدين ، وإل الذي يظهر فيما بعد في نصوص أوجاريت وهدد إله الطقس وغيرها •

تجدر الإشارة الى أن أسماء الكثير من هذه الآلهة يعود الى الظهور في نصوص لاحقة في أوجاريت وفي كتابات فينيقية ، مما يؤكد أن عبادة هذه الآلهة بقيت مستمرة في سورية في العصور التالية •

فنصوص أوجاريت لا تذكر أسماء هذه الآلهة فقط بل تقدم لنا أساطير متعددة تتحدث عن الخلق وتعاقب فصول السنة وصراع الآلهة مع بعضها وغير ذلك • حسب هذه الاساطير يعد إل II ملك الآلهة وهو فوق الجميع وأب لكل الآلهة • تتج عن تزاوجه مع أشيرات (عشيرات) أم الآلهة الرئيسة المعروفة في أوجاريت • ومن ألقابه أيضاً « أب البشر » •

الإله التالي بعد إل والمحجب الى قلوب الكنعانيين كان هدد أو هددو Haddu

واهب الخصب وإله العاصفة والمطر والصواعق • وقد سماه الآراميون بهذا الاسم أيضاً • وسمي في أوغاريت وعند الفينيقيين بعلاً وتعني كلمة بعل في معظم اللغات السامية سيلاً ، مالكا ، زوجاً ، لأن الزواج في العصور البائدة كان يقوم على شراء الزوجة مقابل دفع مبلغ من المال فتنتقل ملكيتها عندئذ الى زوجها • وكل هذه المعاني توجد في اسم الإله بعل فهو سيد ومالك وإله الخصب ، ورمزه عند كل سكان سورية القدماء الثور دليلاً على خصوبته •

وتصف الاسطورة الأوجاريتية صراعه مع موت إله الفناء والموت ، والتي تعكس تعاقب فصول السنة •

كان داجان إله الخصب في أوغاريت قبل بعل وسماه الأوجاريتيون ابن داجان • غير أن بعل ورثه في هذه المهمة • ومما يؤكد أن داجان كان إلهاً للخصب وله علاقة بالزراعة أن كلمة دجن في اللغات الأوجاريتية والعبرية والفينيقية تعني حبواً ، قمحاً ، وفي العربية المطر الكثير ، السماء ملبدة بالغيوم • وكان داجان يعبد في فلسطين قبل قدوم الاسرائيليين القدماء إليها • ويذكر العهد القديم معابد له في أشدود وغزة الفلسطينية •

من الآلهة الأخرى التي كانت لها أهمية كبيرة عند الكنعانيين عشتار Ashtar الذي يقب بالمخيف وكان معروفاً في إبلا وفي جنوبي شبه الجزيرة العربية (عشتار) • وقد عبده الكنعانيون خلال تنقلاتهم وتحول عندهم الى رمز لقدر القبيلة وقوتها الحربية • بهذا الشكل نجده الإله الرئيس للمواييين باسم عشتار - كاموش ، وعند العمونيين باسم ميلكوم (ملك) وعند يوسني اورشليم باسم شاليم الذي ينسب إليه اسم المدينة أورشاليم Uru-Shalim • ويظهر الاسم بهذا الشكل في نصوص مصرية من القرن التاسع عشر قبل الميلاد وفي مراسلات العمارنة •

عبد الكنعانيون أيضاً رشيف Reshef (رَسَبْ في إبلا) الذي كان أصلاً سيد البرق والنار والحرارة والطاعون •

وهناك أسطورة أوجاريتية تمدح زواج إله القمر يريخ Yarich من نيكال Nikkal (نيكال محرف من اسم Ningal إلهة السماء السومرية) • وربما كانت الأسطورة تنشُد في احتفالات أساسها عبادة إله القمر التي كانت منتشرة بكثرة عند الكنعانيين • وقد سميت مدينة أريحا في وادي الأردن بهذا الاسم نسبة إلى إله القمر • وأظهرت الحفريات الأثرية أن عبادة إله القمر كانت معروفة أيضا في حاصور في شمال فلسطين في العصر البرونزي •

كانت عبادة الشمس معروفة عند الأوجاريتيين ولكنها مؤنثة وتدعى شيش Shapash : نور الآلهة • بينما كان معظم الكنعانيين يعدونها إلهًا مذكراً • وتذكر كتابة آرامية قديمة من السفيرة آلهة كشعود على اتفاق بينها شماش ونير إله الشمس وإله النور •

أما الآلهة المؤنثة فيظهر بعضها في أوجاريت مثل أشيرات (عسيرات) وأنات (عنات) التي اسمها ربما مأخوذ من أتنو الهة السماء الأكادية زوجة أنو • تشبه عنات عشتار المرافدية من وجوه متعددة وبخاصة صفاتها كآلهة للحب والحرب • وكانت تلقب بالعدراء •

وعُرفت إلهة الخصب والحب والحرب عند الفينيقيين باسم عشتارت ، وهو تأنيث لعشتار بإضافة التاء إليها • وعبدت من قبل اليونان والرومان باسم أفروديت وفيينوس •

على عكس ما كان عليه الحال في أوجاريت حيث تشير كلمة بعل إلى إله الخصب فإنها كانت عند الفينيقيين تعني إلهًا بشكل عام ، والمؤنث منها بعلة • وكونها تعني أصلاً سيداً ، مالكا فإنها كانت تطلق كصفة على أي إله فينيقي يعبد في هذه المدينة أو تلك كونه سيد المدينة ومالكها ، فهناك بعل حاصور وبعل صيدون وبعل لبنان وبعل بقت (أصل اسم بعلبك) وغيره •

كذلك كانت هناك صفات أخرى تطلق على الآلهة الفينيقية • فكلمة ميلك

Milk أو ميليك Melek معناها ملكا ، أطلقت على إله مدينة صور مضافاً إليها كلمة قرت : مدينة وبذلك يكون اسم إله مدينة صور ملك - قرت (ملقارت) : ملك المدينة .

تفود هذه الأمثلة الى الاعتقاد أن الآلهة الفينيقية لم يكن لها أسماء بل كانت تسمى سيذاً أو ملك المدينة . ولم يكن هناك إله فينيقي كبير يعبد في كل المدن الفينيقية بل كان لكل مدينة إلهها الخاص بها .

عرف الفينيقيون الآلهة المؤنثة أيضاً كعشتارت وبعلة جليل التي كانت تتمتع بقدسية كبيرة . وهي تماثل عشتارت وترمز الى الخصب والتوالد ويذكر هيرودوت أنه كان لها معبد في عسقلان يسميه معبد أفرديت السماء . من الآلهة الفينيقية المؤنثة الأخرى تانيت التي عبدت في قرطاجة وكانت قرينة بعل + جامون (المتأجج اللامع) ودعيت وجه بعل أي ممثله .

أخيراً لابد من الإشارة الى أدونيس الذي تذكره المصادر الاغريقية أنه إله كان يعبد في فينيقية وانتقلت عبادته الى الاغريق منذ القرن السابع قبل الميلاد . ولكن المصادر والكتابات الفينيقية المعروفة لا يرد فيها ذكر أي إله بهذا الاسم . والدراسة اللغوية تظهر أن الاسم متطابق مع الكلمة الفينيقية أدون adon : سيد مع الإس نهاية الاسم المألوفة في اللغة الاغريقية . لذلك يمكن القول إن أدون كانت تستخدم كصفة عند مخاطبة أي إله ، وسمعا الاغريق فاعتقدوا أنها اسم لإله معين يعبد في كل فينيقية . وتذكر المصادر الاغريقية أيضاً أن عبادة أدونيس كانت منتشرة بشكل واسع في العالم القديم (أثينا ، والاسكندرية ، وجيبيل وانطاكية) . وتقام احتفالات سنوية بذكرى موته وبعثه . وكان الاعتقاد أن تلون مياه نهر ابراهيم (نهر أدونيس) الذي يصب في البحر المتوسط جنوب جيبيل سبيه قطرات الدم التي سالبت من أدونيس عند موته . بينما السبب الحقيقي فهو التربة الحمراء التي تجرفها المياه معها من الجبال في فصل الربيع . ويمكن أن نرى في أدونيس صورة أخرى من تموز الراقدي أو بعل الكنعاني .

كانت أسماء الآلهة تدخل في تركيب أسماء الأعلام مثل ميكائيل وعبد عشتارت وعبد اللقارت وحن بعل (هانيبال) وبر هدد وغيره .

كانت الطقوس والعبادات تقام في معابد أقيمت على شرف هذا الإله أو ذاك . وقد كشفت الحفريات الأثرية عن الكثير منها كمعبد بعل ومعبد داجان في أوجاريت ومعبد ملقارت في صور ومعبد هدد في دمشق . وكان يدير تلك المعابد كهنة محترفون يشرفون على العبادات والاحتفالات الدينية وينظمون تقديم الأضاحي وإنشاد الأغاني والأناشيد الدينية .

ج - الحياة الدينية في مصر القديمة :

نظر المصريون القدماء إلى قوى الطبيعة نظرة قديمة ورأوا فيها آلهة يجب أن تعبد لتأثيرها الواضح في حياتهم ومصيرهم . فظهر لديهم عدد كبير من الآلهة يتناسب مع عدد المقاطعات والقبائل التي كانت تتألف منها مصر قبل التوحيد ، والتي بقيت تعبد في العصور اللاحقة ، لذلك نرى هيرودوت يعد المصريين أكثر الشعوب تدنيًا .

ويأتي في مقدمة الآلهة المصرية القديمة الإله رع إله الشمس ، ومن أهم مراكز عبادته مدينة إيونو Iunu (حاليًا ضاحية من ضواحي القاهرة) التي سماها الإغريق فيما بعد هيليو بوليس (مدينة الشمس) . ويتطابق رع خالق العالم مع الإله أتوم Atum (الكون) الذي يعد أحد أشكال ظهوره (شمس المساء) .

وقد خلق أتوم نفسه عن طريق النطق باسمه ثم أنجب التوأم شو (الهواء) وتيفنوت (الماء) . وهذان أنجبا بدورهما جب (الأرض) ونوت (السماء) . وتنج عن تزواج جب ونوت أربعة أولاد هم : أوزيريس Osiris (ماء الفيضان) وإيزيس Isis (الأرض الخصبة) وسيت Seth (الجفاف) ونيفتوس Nephtus (الصحراء) . كان أوزيريس في الوقت نفسه إله خصب وادي النيل وسيد العالم السفلي وقاضي الأموات الأعلى . وقد تزوج من أخته إيزيس حيث

كانت عادة زواج الاخوة من الاخوات شائعة ليس فقط بين الالهة بل بين الملوك المصريين أيضاً للحفاظ على نقاء الدم الملكي .

ويمثل الصراع الذي نشأ بين أوزيريس وعمه سيت صراعاً بين الخصب والجفاف ذلك الصراع الذي رأينا نماذج عنه في بلاد الرافدين (عشتار) وفي سورية القديمة (بعث وموت) وان اختلفت بعض التفاصيل .

قام سيت بذبح أوزيريس ووضع جثته في صندوق ورماه في البحر لكن إيزيس فتشمت عن الصندوق فوجدته بالقرب من جبل على الساحل السوري . غير أن سيت انتزع الصندوق منها وحول الجثة الى قطع رماها في أمكنة متعددة . فراحبت إيزيس تبحث عن القطع وتدفنها في مكانها . وهكذا نشأت معابد في كل مكان دفنت فيه قطع من الجثة . وبذلك انتشرت عبادة أوزيريس في كل أنحاء مصر .

خشب الاسطورة هربت إيزيس بعد مقتل زوجها مع ابنها حوروس الى مستنقعات مصر السفلى حيث خبأته بين أوراق البردي خوفاً عليه من أذى سيت . استطاع حوروس فيما بعد التار لموت أبيه وخلفه على الأرض . لذلك نرى كل فرعون مصري يتقمص شخصية حوروس ككائن حي للدلالة على أنه يستمد سلطته من الإله ، ويذهب عند الممات الى أوزيريس ، أي أن له صفة إلهية في حياته وبعد مماته .

بالإضافة الى ما تقدم عبد المصريون آلهة أخرى مثل بتاح إله الحرفيين والفنانين ومركز عبادته ممفيس ، وتحوت إله الحكمة ومعلم البشر الكتابة والكلام والصيد والزراعة ، وهو كإله للنسر مسؤول عن قياس الزمن . وعبدوا أيضاً حتحور ملكة السماء الام المغذية للعالم . وأحياناً كانت بعض الآلهة تتحد مع بعضها لتشكيل معبوداً جديداً كما في حال آمون - رع الذي اتخذ من طيبة مركزاً له .

صور المصريون القدماء آلهتهم على شكل بشر أو على شكل حيوانات أو على شكل بشر وحيوانات معاً . فصوروا حوروس على شكل إنسان له رأس صقر،

وأمون إله مدينة طيبة على هيئة إوزة وبتاح على شكل ثور وأمون - رع على شكل كبش .

يعكس هذا التصوير مرحلة انتقال الإنسان المصري للقديم بفكره الديني من مرحلة العبادة الطوطمية الى مرحلة عبادة الآلهة البشرية التي كانت قوتها بادیء الامر من آثار الآلهة الحيوانية التي حطت محلها .

آمن المصريون القدماء أيضاً بالكا التي هي بمثابة الروح لكل إله تعطيه قوته وتبقيه على قيد الحياة وتحميه من الفناء وتحدد صفاته . غير أن هذا التعدد الكبير في الآلهة تعرض لهزة كبيرة في عهد الامبراطورية الحديثة . اذ نادى أمنحوتب الرابع (القرن ١٤ ق م) بعبادة إله واحد هو آتون ورمزه قرص الشمس الذي تخرج منه أيد كثيرة كدليل على توحيده جميع الآلهة في شخصه . وسمى أمنحوتب نفسه أخناتون أي المفيد لقرص الشمس ، وألف التراتيل والابتهالات لتمجيد الإله الجديد . وبني عاصمة جديدة سماها أخيت آتون (أفق آتون) لتكون مقراً للملكة ولديانته الجديدة . وقد وصلت إشعاعات هذه الديانة الى سورية فكانت الخطوة التمهيدية لظهور أول ديانة توحيدية فيما بعد . سعى أخناتون من خلال الدين الجديد الى القضاء على نفوذ كهنة آمون في الحكم والادارة والاقتصاد . لذلك أظهر هؤلاء مقاومة كبيرة لدينه لأنهم رأوا فيه تهديدا خطيرا لمصالحهم . أما الطبقات الشعبية فلم يكن بوسعها التخلي بسرعة عن معتقداتها القديمة . لذلك مات الدين الجديد بموت مؤسسه وعادت الديانات القديمة الى ما كانت عليه .

اعتقد المصريون القدماء بالحياة الآخرة التي تشبه الحياة الدنيا لذلك وضعوا مع الاموات ما يحتاجونه من أوان وأدوات . واهتموا بالمحافظة على الجسد كي تعود إليه الروح فيما بعد فأوجدوا التحنيط الذي كان يتم بعناية ووفق تقاليد خاصة تختلف حسب امكانات المتوفى المادية . بعد ذلك يوضع الجسد المحنط تبعا للامكانات المادية أيضا إما في تابوت حجري أو خشبي أو في لفائف من البردي، ثم يدفن في قبر حجري أو في حفرة في وسط الرمال والأتربة .

الفصل السادس

الاقتصاد والمجتمع

أدى اكتشاف الإنسان للزراعة الى نشوء الاستقرار البشري وتطور المجتمعات وممارسة الإنسان للفاعليات الاقتصادية المختلفة . وعثر على أولى الدلائل التي تشير الى معرفة الإنسان للزراعة في مواقع متعددة من المشرق العربي القديم أقدمها موقع المربط على الضفة اليسرى للفرات الأوسط والذي غمرته مياه سد الفرات . وترقى الدلائل المكتشفة هناك الى الألف الثامن قبل الميلاد (نحو ٧٧٠٠ ق م) . كذلك عثر على آثار مزاولة الإنسان للزراعة في مواقع أريحا في فلسطين وجرمو في العراق وشتال هيوك في الأناضول وبعض مناطق وادي النيل .

مكن هذا الاكتشاف العظيم الذي يسمى من قبل بعض الباحثين الثورة الزراعية ، والذي حدث في العصر الحجري الحديث ، مكن الإنسان من الانتقال الى مراحل حضارية أعلى ومن ممارسة نشاطات اقتصادية أخرى كالصناعة والتجارة والتي أدت بدورها الى جانب الزراعة الى تطور المجتمعات البشرية وتحقيق الإنسان خطوات أرقى في مجال الاستقرار وبناء التجمعات البشرية . فنشأت القرى والتجمعات السكنية في مواقع متعددة من الشرق القديم ، تطورت مع الزمن الى مدن وممالك لها أهميتها ودورها الفعال ليس فقط في المناطق التي نشأت فيها بل في المناطق المجاورة أيضا . وعلى الصعيد الاجتماعي تزايد عدد السكان وأخذت الفروق الاجتماعية تظهر بوضوح ، وتشكلت فئات اجتماعية متميزة داخل كل مجتمع .

وضمن هذه التطورات الاقتصادية والاجتماعية يلحظ الدارس بعض السمات الخاصة للاقتصاد والمجتمع في المشرق العربي القديم . فالزراعة في بلاد الرافدين وبخاصة في الجنوب ، وفي وادي النيل كانت تعتمد على مشاريع الري الصناعية القائمة على الانهار الكبرى النيل ودجلة والفرات . بينما اعتمدت في بلاد الشام على مياه الامطار . غير ان المحاصيل الاساسية كانت واحدة (القمح والشعير) . أما الاراضي فكانت تعود ملكيتها في المناطق الثلاث الى الملك الذي يقطعها لاتباعه سواء الاعيان أو الموظفين أو الجنود لاستغلالها وذلك مقابل دفع جزء من المحصول أو مبلغ من المال . وتوجد الى جانب ذلك ملكية خاصة وملكبة للمعابد .

أما الصناعة فكانت في مصر وبلاد الرافدين لسد حاجات السكان والقصر والمعبد بشكل أساسي ، بينما بالنسبة لسورية القديمة يضاف الى ذلك هدف التصدير . فسكان سورية القدماء اهتموا بالتجارة بشكل كبير . وساعد على ازدهارها عندهم موقع بلادهم المناسب بين مناطق المشرق القديم ، وغناها بالمنتجات المختلفة . ومع أن التجارة ازدهرت في مصر وبلاد الرافدين أيضا فانها لم تبلغ الشأن الكبير الذي وصلته في سورية القديمة .

ونظهر المناطق الثلاث تشابها كبيرا في التركيب الاجتماعي ، فالاسرة عماد المجتمع الذي يتألف أساسا من أحرار وعبيد . وينقسم الأحرار الى فئات مختلفة كالموظف والفلاح والحرفي وغيرهم ، بينما تشكل الحروب والبيع والشراء مصادر أساسية للحصول على العبيد .

وفيما يلي تقدم عرضا موجزا عن الاقتصاد والمجتمع في بلاد الرافدين ومصر القديمة وبلاد الشام :

١ - الاقتصاد والمجتمع في بلاد الرافدين :

٢ - الاقتصاد :

معظم الوثائق المسماة المكتشفة حتى الآن وثائق اقتصادية تعالج قضايا

مختلفة زراعية وحرفية وتجارية • وتظهر من خلالها حيوية الحياة الاقتصادية الريفية خلال العصور القديمة • ويلحظ المرء من خلال ذلك أن منطقة بلاد الرافدين عرفت تقريباً كل الأشكال والنماذج الاقتصادية المعروفة اليوم ، من الاقتصاد الجماعي القائم على التعاون والمشاركة إلى الاقتصاد المطلق القائم على الاستعباد حتى الظواهر الرأسمالية •

كان النموذج الاقتصادي الأساسي في الألف الثالث قبل الميلاد اشتراكية الدولة القائمة على أساس ديني لمدينة المعبد ، والتي تسمى اقتصاد المعبد • وقد وجد في المدن السومرية المختلفة •

شكل معبد إله المدينة مركزاً ومقرّاً للحكم ويملك كل الأراضي المزروعة والصالحة للزراعة • ويقوم كل السكان بخدمة المعبد والعمل في ممتلكاته • وبذلك لم يكن المعبد مركزاً دينياً فقط بل أيضاً مركزاً اقتصادياً وإدارياً وقانونياً للجماعة السومرية التي تعيش حوله • كممثل للإله يقيم في المعبد أمير كاهن يدعى إنزي

أو ملك (لوجال) • يعطى كل عضو من جماعة المعبد قطعة من الأرض تؤمن له قوته ، وعليه أن يورد للإله جزءاً من المحصول والحيوانات أو من منتجاته الحرفية • وقد وُجد الأمير الكاهن في شخصه المركز الروحي والقانوني والعسكري والإداري ، بينما يشرف كاهن أو عدة كهنة على العبادات الخاصة ، وكتائب على فروع الإدارة • كذلك توصل المواطنون إلى تقسيم أكبر للعمل فيما بينهم • فكان هناك إلى جانب الفلاحين والصيادين الرعاة والحرفيون والكتائب أي الموظفون الإداريون • وكان كل عضو من هذه الجماعة يزود بما يحتاجه للعيش من قبل المعبد • بينما توضع المواد المخزنة (التي أعطاها الجميع) تحت تصرف المعبد لأغراض العبادات ولسد حاجات الأمير الكاهن والكهنة والموظفين ، وللتجارة أيضاً • وكانت الملكية الخاصة للمواطن تشمل بيت السكن وبعض الأملاك المنقولة • وألقيت ثلاثة واجبات أساسية على عاتق كل فرد في الجماعة (وبقيت هذه حتى بداية الألف

الثاني) وهي : المحافظة على أبنية العبادة القديمة وإنشاء أبنية جديدة، إقامة منشآت ومشاريع للري والعناية بها ، والخدمة العسكرية .

خضع هذا الشكل الاول والاساسي لمدينة المعبد كمركز للعمل والاقتصاد وكمركز ديني ودولة في شكل واحد لتأثيرات وتحولات مختلفة نتيجة للتطورات التاريخية . فمستوطنات المعابد القريبة من بعضها نمت نتيجة لتزايد عدد السكان واتصلت مع بعضها بشكل سلسي (أوروك مثلا تألفت من مستوطنين ، ولا جاش من أربع كان لكل منها معبدها الخاص بها) . بعد ذلك قادت الحاجة الى إقامة مشاريع مائية كبرى ، مرتبطة باتجاهات للسيطرة والنفوذ ، الى تشكيلات كبيرة للدولة كما في كيش قبل منتصف الالف الثالث ، وربما قبل ذلك في أوروك .

بذلك أصبح الانزي أو اللو جال كممثل لاله المدينة سيدا على مستوطنات معابد متعددة في مدينته ، وسيدا أيضا على أماكن أخرى وعلى معابدها . وفي الوقت نفسه رأت المعابد المستقلة نفسها مجبرة على تحويل ميزانيتها الى ميزانية خاصة منفصلة عن ميزانية القصر . نتيجة لهذا التطور يظهر أعضاء عائلة الحكم دعائم لهذا النظام . فزوجة الانزي أو الملك أصبحت الكاهنة الكبرى لزوجة إله المدينة ومديرة اقتصادها . وصار الامراء والاميرات يعتنون بمعابد أولاد إله المدينة .

كانت واردات المعبد تتألف من المنتجات الطبيعية كالحبوب والزيت والبيرة والصوف ، ومن المنتجات الحرفية المختلفة . يضاف الى ذلك القرابين والهدايا . أما ثمار التجارة الداخلية أو الخارجية التي يمارسها تجار المعبد فتعود الى المعبد إما على شكل نقد (معادن ثمينة) أو على شكل مستوردات يحتاجها المعبد . استخدمت واردات المعبد في سد النفقات مثل بناء معابد جديدة وتجهيزها وصناعة تماثيل وألبسة للآلهة والكهان ومصاريف للعبادات والاضاحي وغيرها . كذلك كان قسم من الواردات يذهب الى الانزي وعائلته لسد احتياجاتهم . ان اقتصاد الجماعة المرتبط بالمعبد أخذ مع الزمن يتحول الى اقتصاد خاص تابع للقصر الملكي . ففي عهد لوجالاندا Lugalanda الذي حكم في لاجاش قبل المصلح

الاجتماعي أورو إنيمجينا (أورو كاجينا) كان للقصر ثقل كبير ليس في مصلحة الجماعة • واستطاع القصر في كيش (نحو ٢٦٠٠ ق م) أن ينفصل عن المعبد ليس سياسيا فقط بل على الصعيد الاقتصادي أيضا • وبذلك دخل اقتصاد القصر كوحدة مستقلة الى جانب اقتصاد المعبد أو المعابد • فالأراضي التي كانت أصلا تحت تصرف الأتزي ، والتي كانت كبيرة غالبا ، أصبحت ملكية مطلقة للملك • وتحولت حصة الحاكم من واردات اقتصاد المعبد الى ضرائب يجب ان تدفع من قبل المعابد عن أراضيها ، ومن قبل المواليين عن حصصهم الأصلية من أراضي المعبد وعن ممتلكاتهم الخاصة • واقتصرت ملكية المعبد بالتدريج على ممتلكاته الخاصة وعلى التبادلات الدينية • وتحول المواطن عبر تطور بطيء من رجل يعمل لصالح المعبد الى تابع للدولة •

كانت واردات القصر تشبه واردات المعبد • وتأتي في المقام الأول محاصيل الممتلكات الخاصة ثم الجمارك وغنائم الحروب وأرباح التجارة •

وهكذا انجزت مع قيام اقتصاد القصر كؤسسة مستقلة وتراجع ميزانية المعبد الخطوة الأولى الى الاقتصاد الخاص ، وأصبحت اشتراكية الدولة نظرية محضة • غير ان الاقتصاد الجماعي بقي قائما في مجال الري فقط بسبب عدم القدرة على القيام به بجهود فردية • واستغل الملوك بناء المعابد للدعاية لحكمهم وللتأكيد على تقواهم وشرعيتهم •

بدءا من بداية الألف الثاني قبل الميلاد تظهر في بلاد الرافدين الوحدات الاقتصادية المستقلة للمعابد وللأفراد ، وفوق كل ذلك الاقتصاد الكبير للقصر أي للدولة • وتبين المادة ٣٢ من قانون حمورابي أن القصر كان أغنى من المعبد •

الزراعة وتربية الحيوان :

احتلت الزراعة وتربية الحيوان المقام الأول في الاقتصاد في كل فترات التاريخ الرافدي • وكان الفلاح يعتمد ، وبخاصة في سومر وأكاد ، على الري الصناعي ،

لذلك فإن إقامة مشاريع الري من قنوات وسدود ودرء خطر الفيضانات وغير ذلك كان يتطلب وضع كل الامكانيات المتوافرة تحت تصرف ادارة مركزية قوية . فكان هناك المعبد أولا ثم جاء القصر . وتتحدث الوثائق المختلفة عن اهتمام الملوك الدائم بحفر الآنية وإقامة السدود والطرق المائية والعناية بها طوال فترات التاريخ الراقدي (مثل أورنانشي من لاجاش ونارام سين الاكادي وجوديا وحمورابي وغيرهم) .

وكان نجاح هذه الاعمال يخدم ثلاثة أهداف : زراعة أراض جديدة ، وتوسيع شبكة المواصلات المائية وزيادة محصول الاسماك .

كانت إقامة المنشآت المائية في العصر السومري أعمال شاقة ، وصارت هذه من الالف الثاني تنفذ من قبل العبيد وعمال بالاجرة .

وكدليل على القيمة الكبيرة للأراضي الزراعية نجد أنها كانت تقاس بدقة في العصر السومري من قبل موظفي المعبد وتسجل حدودها واسم صاحبها أو مستأجرها في السجلات الرسمية بشكل دقيق .

كانت أراضي القصر تعطى كإقطاعات (إلكو Iku) إلى أفراد يتوجب عليهم تأدية الخدمة العسكرية عند الحاجة ويخدمون في أوقات السلم كقوات شرطة أو وساعة أو مراقبين ، وتكون الأرض ملكية غير قابلة للبيع أو الرهن أو التوريث .

استخدم الإنسان الراقدي أدوات متعددة في العمليات الزراعية كالمحراث الخشبي الذي تجره الثيران والمجرفة والمعزقة والفأس والمنجل . وزرع أنواع الحبوب المختلفة كالقمح والشعير والذرة البيضاء والسهم الذي كان يستخرج منه الزيت ، وربما زرع الكتان أيضا . ويذكر الملك الآشوري تيجلات بيلىصر الأول زراعة القطن في بلاده ويسمي نبتته الشجرة التي تحمل صوفا . كذلك زرعت الخضراوات المختلفة كالبصل والخيار واللفت والنعنع والشمرة .

أما الأشجار المثمرة فتأتي في مقدمتها شجرة النخيل وبخاصة في الجنوب .

وكانت تحظى باهتمام كبير لفوائدها الكثيرة • فشرها يؤكل طازجاً ومجففاً •
ويستخرج منه الدبس وشراب مسكر يشبه الخمر • زرع الانسان الرافدي أيضاً
الزمان والتين والعنب •

وربى سكان بلاد الرافدين الحيوانات المختلفة واستخدموا الموسم لتحديد
ملكيتها • فمعابد عشتار استخدمت كوسم لحيواناتها النجم ، بينما استخدمت
معابد مردوك المجرفة • وبيت الابقار للاستفادة من منتجاتها ولاستخدامها في
الاعمال الزراعية • كذلك كان هناك الحمار كحيوان للركوب والحمل والجر •
ولعبت الحيوانات الصغيرة (الاغنام والماعز) الدور الرئيس كمورد للحم والصوف
والحليب ومشتقاته ، وكانت هناك أنواع متعددة منها •

وكان الخنزير البيتي معروفاً حيث تذكره النصوص المختلفة ، ويظهر رعاة
للخنزير في قوائم المعابد السومرية • وربى السكان أيضاً الوز والبطل حيث توجد
الأقنية والبرك والبحيرات المناسبة له •

وعرف سكان بلاد الرافدين الحصان منذ الالف الثالث قبل الميلاد لكنه لم
يقطن إلا للتباهي والتفاخر وكانت استخداماته محدودة لجر العربات الإلهية
والمسكية • لكنه اكتسب منذ منتصف الالف الثاني قبل الميلاد أهمية كبيرة كحيوان
لجر العربات الحربية ذات الدولاين • ويعتقد أن أواسط آسية موطنه الاصلي ،
ودخل بلاد الرافدين من الشرق مع الحوريين • وأصبحت المنطقة فيما بعد منطقة
لترتيته في عهد الكاشيين •

مع بداية الالف الاول دخل الجمل بلاد الرافدين من شبه الجزيرة العربية •

وكان لصيد الاسماك أهمية كبيرة في بلاد الرافدين • وبخاصة في اقتصاد
المعبد السومري • وتسمي الوثائق أكثر من خمسين نوعاً منه • وكانت مدينة
لارسا محطة تجارية هامة لاسماك الجنوب التي كانت تباع إما طازجة أو مجففة •

وقد احتكر القصر والمعبد حق الصيد وكان يمنحه لمن يدفع الضرائب المفروضة ويقوم بمراقبة عملية الصيد بدقة .

الصناعة والحرف :

عرفت بلاد الرافدين عددا كبيرا من الحرف . فكان هناك الخبازون والخمارون وصانعو السلال والفخاريون والدباغون والحذائون والصباغون والنساجون والخياطون . كان هؤلاء يقومون بتصنيع المواد الأولية الموجودة لسد حاجة البلاد وللتصدير . وقد وجد الى جانبهم حرفيون يعتمدون في حرفهم على استيراد المواد الأولية كالحدادين والنحّاتين وقاطعي الاحجار . وارتبط هؤلاء في العصرين السومري والبابلي القديم بالمعبد والقصر بشكل وثيق . اذ وجب عليهم سد حاجات هاتين المؤسسات من منتجاتهم الحرفية . لذا فان ورشهم كانت ملحقة بهما . كان الحرفيون غالبا من الاحرار يورثون حرفهم الى ابنائهم وأحفادهم من بعدهم . وحددت بعض القوانين أجور الحرفيين بشكل واضح (المادة ٢٧٤ من قانون حمورابي) . وكان تعليم الحرفة يدوم من سنة ونصف السنة الى خمس سنوات .

أحيانا كان يأتي حرفيون من الخارج إما بشكل طوعي أو كأسرى حروب فأثروا بذلك في الحرف الموجودة . فنقرأ في نصوص ماري عن حرفيين كثيرين كانوا يأتون اليها من مدن مختلفة . ويذكر الملك الآشوري سنحريب أنه جلب حرفيين من فينيقية لبناء السفن . وانتقل فن النحت على العاج من مدن الساحل السوري الى المدن الآشورية في العصر الآشوري الحديث .

كانت أدوات العمل تتطور مع الزمن . ففي عصر أوروك (٣٠٠٠/٢٩٠٠ ق.م) عرف دولاب الخزاف ، وبعد ذلك بفترة قصيرة اخترع مثقب الاحجار لتجويف الاواني الحجرية . واستخدم المغزل والنول في صناعة المنسوجات الصوفية والكتانية التي اشتهرت بها الكثير من المدن الرافدية وكانت تجسد طريقها أحيانا للتصدير الى المناطق المجاورة .

التجارة :

عرفت بلاد الرافدين التجاريين الداخلية والخارجية وازدهرت الاسواق وأرسلت القوافل الى أماكن بعيدة • وكانت الفضة مقياس القيمة حيث استخدمت على شكل سبائك أو صفائح لها أوزان محددة • ولضمان نقاوتها ووزنها كانت تمهر بخاتم الملك أو الحاكم • ووجد في كل مدينة سوق خاص بها ، وتحدد الاسعار فيه من قبل الملك • ويمكن تمييز عدة فئات بين التجار فهناك التاجر الكبير وتاجر المفرق والتاجر الجوال الذي يحمل بضائعه من مكان الى آخر •

وصلت العلاقات التجارية الرافدية الى أماكن بعيدة • فالأسطورة السومرية إن ميركار ومسيد أراتا التي تعود الى الالف الثالث قبل الميلاد تبرهن على وجود علاقات تجارية آنذاك بين بلاد سومر والبلاد العجبية الواقعة الى الشمال الشرقي منها • ويذكر أورناشي ملك لاجاش (نحو ٢٥٠٠ ق م) أنه جلب أخشاب أرز من الامانوس لبناء معابده • وتظهر في العصر الاكادي اختتام مستوردة من وادي السند ويفتخر شاروكين الاكادي أن سفنا من ديلمون وماجان وميلوخا كانت ترسو في ميناء أكاد • واسس التجار الآشوريون الكثير من المستوطنات التجارية في آسية الصغرى في القرن التاسع عشر قبل الميلاد أشهرها كاروم كانيش • وأرسل جوديا حاكم لاجاش (٢١٤٣ - ٢١٢٤ ق م) بعثات تجارية الى ايران وسورية للحصول على المواد الاولية اللازمة لمشاريعه العمرانية (أحجار وأخشاب ومعادن) • خلال الالف الثالث قبل الميلاد كانت التجارة تتم باسم المعبد أو القصر وزاولها التجار كموظفين يتقاضون أجرا عن عملهم • غير أن هذا الوضع تغير مع بداية الالف الثاني قبل الميلاد حيث وجد الى جانب تجارة القصر أو المعبد تجار أحرار يزاولون عملهم لحسابهم الخاص كما يظهر ذلك واضحا من قانون حمورابي • غير أن الملك كان يشرف على التجارة الخارجية وتمتع التاجر بحمايته عندما كان يسافر خارج حدود وطنه • ويبدو أنه كانت توجد اتفاقات دولية ومعاهدات تضمن سلامة القوافل والسفن التجارية في المناطق التي تمر بها مقابل أن يدفع التجار أتاوات عن البضائع التي يتاجرون بها الى ملوك البلاد وحكامها التي يتاجرون معها أو يمرون

عبر أراضيها • وهناك أمثلة متعددة عن اتخاذ بعض الملوك اجراءات لحماية رعاياهم من التجار في البلاد الاخرى وذلك باحتجاز رعايا تلك الدول في بلادهم •

شملت الصادرات الرافدية الجيوب وزيت السمسم والتمور وربما الاسماك الجافة ، ووصلت الاصواف والمنسوجات والالبسة الرافدية الى آسية الصغرى • وفي العهد الكاشي كانت الخيول واللازورد تصدر الى مصر •

أما الواردات فتألفت من الاخشاب بأنواعها المختلفة (الارز والسرو والصنوبر والصندل) من جبال طوروس والامانوس ولبنان ، ومن الاحجار الكاسية من المناطق الجبلية الواقعة في الشمال الشرقي ومن سورية ، ومن المعادن كالفضة والذهب والنحاس والقصدير حيث كانت الفضة تجلب من جبال طوروس ، والذهب من مصر وآسية الصغرى وميلوخا ، والنحاس من قبرص وعمان ، والقصدير من شمال غرب ايران • واستورد سكان بلاد الرافدين اللازورد من أفغانستان والعقيق من ميلوخا وانعاج من فينيقية ومصر •

كذلك كان يتم استيراد العبيد أحيانا • وتختلف أسعارهم حسب الجنس والصحة والعمر والجمال واتقان حرفة أم لا •

كانت القوافل التجارية تتعرض لافطار كثيرة كالسرقة والتوقف عن المسير أثناء الحروب وغرق السفن نتيجة لاسباب مختلفة ودفع الجمارك للملوك والحكام وغير ذلك • ولكن على الرغم من كل ذلك فقد ازدهرت التجارة الرافدية في كل الاتجاهات وفي مختلف العصور وجنى التجار من وراء ذلك أرباحا كبيرة • وكدليل على قوة الحياة الاقتصادية الرافدية وحيويتها وبخاصة التجارية نجد أسماء الاوزان السومرية والاكادية تنتشر في المناطق المجاورة وتصل الى بلاد اليونان كالمثقال والمينة والتالنت •

ـ المجتمع في بلاد الرافدين:

تعد حضارة بلاد الرافدين حضارة مدن • ويعتقد بوجود ثلاثة أسباب اجبرت

السكان على الاستيطان الجماعي والسكن بجانب بعضهم بعضاً وهي : التهديد المستمر من قبل البدو والطوفانات الدورية المدمرة ومشاريع الري الصناعية التي لا يسكن انقيام بها الا بشكل جسامي والتي تضمن المحصول والحياة .

كانت قطعة الارض المجاورة للنهر المكان المثالي للاستيطان البشري . ونجد مدناً كثيرة بنيت على ضفاف نهرى دجلة والفرات . ولم تكن المدن الاولى محاطة بأسوار ولكن بدأ ذلك اعتباراً من عصر السلالات الباكورة (نحو ٢٦٠٠ ق م) كما تظهر ذلك نتائج الحفريات الاثرية . وتألفت المدن الاولى من السوق والمعبد ومستودعات الجبوب ، تحيط بها بيوت السكن ثم الاسوار . من أسوار المدن المعروفة سور أوروك الذي أجبر جلجاميش سكان المدينة على بنائه من الطوب المشوي وبنيت الحفريات الاثرية أجزاء منه .

كان بناء الاسوار عملاً جماعياً يقع على عاتق كل المواطنين . ويدخل ضمن المهام الاساسية والضرورية لامراء المدن وحكامها الذين يفتخرون في كتاباتهم بمثل تلك الاعمال .

مكننت الدراسات المقارنة لاتساع المدن وبيوت السكن فيها من الاستنتاج أن المدينة السومرية في منتصف الالف الثالث قبل الميلاد كانت تعد وسطياً نحو سبعة عشر ألف نسمة .

أما التركيب الاجتماعي في تلك المدن فكان نتيجة تطور تاريخي طويل نجسم عن تقسيم العمل منذ عصور موغلة في القدم . فقد وجد في عصر السلالات الباكورة تركيب دولة المدينة مع نظام مركزي شديد يملك فيه الاله كل شيء ويؤلف معبده مركز الادارة والحكم . كان المعبد ثم أصبح القصر مقر المثل الذي يعينه الاله نائباً له ويدعى بالسومرية انزي Ensi (في مدينة أوروك إن En) . وتحول الانزي مع الزمن نتيجة كسبه السيطرة على مدن متعددة ومعابد اخرى الى لوغال Lugal : ملك (حفيداً الرجل الكبير) وبنى لنفسه قصراً مستقلاً عن المعبد ليكون مركزاً للادارة والحكم .

وتسلم المحاربون الاكفاء أو الموظفون الكبار منه مساحات واسعة من الاراضي كهدايا واقطاعات . وبذلك نشأت طبقة من ملاك الاراضي . وزاد عدد الكهان وصاروا يتمتعون بحقوق امتيازات كبيرة ، وتشكلت منهم طبقة روحية - اجتماعية - اقتصادية لها نفوذها الكبير .

أما المألحة فالمعلومات عنها قليلة (تدعى بالسومرية Nin وبالأكدية شراتوم sharratum أو بملاتوم) وهي لا تظهر الا قليلا في العصر البابلي القديم مثل شيننو من ماري والثاني من كرانا . بينما لعبت دورا بارزا في العصر الآشوري الحديث وبخاصة في مجال تعيين ولي للعهد مثل سمورامات Sammuramat وأدد غوبي Adad guppi . أيضا يظهر في العصر الآشوري الحديث ولي العهد كمشارك في الحكم وكان يلعب دورا سياسيا هاما .

كان في بعض دويلات المدن السومرية مجالسا للشيوخ ومجالسا للشباب ومهمتها استشارية في الادارة والقضايا التنظيمية .

أما المواطنون الاحرار فقد شكلوا طبقة كبيرة من السكان (الفرد يدعى أولوم) خرج منها القادة العسكريون والموظفون والكتاب والكهان وينتسب اليها أيضا التجار والصناع والفلاحون وصيادو الاسماك والرعاة .

نستقي معلوماتنا عن الوضع الاجتماعي في العصر البابلي القديم وفي العصر الآشوري الحديث من القوانين بشكل رئيس . تظهر في قانون حمورابي طبقة وسطى ما بين طبقة الاحرار وطبقة العبيد وهي طبقة الموشكينوم التي يمدنها بعضهم طبقة العوام أو الفقراء من الاحرار ، بينما يرى بعضهم الآخر فيها طبقة عاملة مرتبطة بأراضي القصر .

أما العبيد فكانوا أحط الطبقات الاجتماعية في بلاد الرافدين ، وخدموا في المعابد أو القصور أو لدى الاغنياء من الاحرار . وعددهم قليل بالنسبة لعدد السكان وموسمين ببسبب العبودية (شكل الشعر أو كتابة على معصم اليد) .

وكان يخدم كعبيد أسرى الحروب ومن وقع في العبودية نتيجة عدم مقدرته
على تسديد دينه أو من ولد عبداً • ولكن كان بإمكان العبد أن يصبح حراً بإطلاق
سراحه أو شراءه •

تعد العائلة (قنو qinnu ، كيمتو kintu) أساس المجتمع الرافدي وتقوم
على الزواج من رجل واحد فقط ، ولها ثلاثة أهداف : هدف اقتصادي : تأمين
متطلبات الحياة ، وهدف حيوي : المحافظة على قبيلة الرجل واستمرارها ، وهدف
ديني : المحافظة على عبادة الأسلاف • وكانت تتألف من :

٢ - الآباء : ولهم حق الموت والحياة على العائلة • ولكن الدولة وضعت
قيوداً على ذلك • حسب قانون حمورابي كان يحق للاب في حال تراكم الديون عليه
أن يرهن زوجته وأولاده عن الدائن • ولكن يطلق سراحهم بعد خدمة ثلاث سنوات
في بيت الدائن (مادة ١١٧) •

٢ - النساء : ونجد بينهن الزوجات الشرعيات والخطيلات • حسب قانون
حمورابي كان يمكن للزوج أن يتخذ امرأة ثانية زوجة له إذا كانت زوجته الأولى
عاقراً أو مريضة مرضاً عضالاً • لكنها تبقى أقل مرتبة من الزوجة الأولى (المسواد
١٣٨ - ١٤١) •

وكان بإمكان الرجل الزواج من كاهنة (entu , naditu) ولكن لا يسمح لها
بإنجاب الأطفال • غير أن بإمكانها إعطاء زوجها أمة من أجل إنجاب الأطفال
(مادة ١٤٤) • والامة التي تتزوج حراً تصبح حرة مع أولادها بعد موت زوجها
(مادة ١٧١) •

٣ - الأولاد : ونجد بينهم البنين والبنات الصرخاء والأولاد المتبنين وأولاد
الإماء والموالي والمتجنين للعائلة • وكان الرجل يعترف بأبوة الطفل بعد الولادة
بقوله : آت ولدي • وقد تألفت العائلة بشكل وسطي من ٢ - ٤ أفراد لأن نسبة
الوفيات كانت مرتفعة •

واتقن سكان بلاد الشام القدماء صناعات أخرى متعددة كصناعة الزجاج والسفن والاولاني المعدنية . ومما ساعد على ازدهار هذه الصناعات توافر المواد الأولية اللازمة لها كالرمل والاشخاب التي كان يمكن الحصول عليها من الغابات الغنية في طوروس والامانوس والجبال الساحلية وجبال لبنان .

وتمتد التجارة الركن الثالث من أركان الاقتصاد في سورية القديمة وكانت لها أهميتها الكبيرة في تاريخ سورية القديم . ومما ساعد على ازدهارها غنى سورية بالمنتجات الطبيعية (كالاشخاب والخضر وزيت الزيتون والحبوب) وموقعها المتوسط بين بلاد الرافدين ومصر وآسية الصغرى والبحر المتوسط . فقد كانت تمر عبرها الطرق التجارية العالمية . يضاف الى ذلك شهرتها بعدد من الصناعات .

وقد بينت محفوظات ابلان ان التجارة كانت أساس قوة مملكة ابلان التي أقامت علاقات تجارية وثيقة مع الكثير من الممالك المجاورة سواء في بلاد الرافدين أو مصر أو قبرص أو آسية الصغرى . وكان التجار يأتون اليها من مختلف المدن القريبة والبعيدة لعقد الصفقات التجارية .

ويمتد أن تفوقها التجاري كان السبب الذي أدى الى اصطدامها مع الاكاديين الذين أسسوا لهم مملكة في جنوب بلاد الرافدين نحو ٢٣٥٠ ق م وبدأوا يطمحون بالسيطرة على شمال سورية . وقد أدى ذلك الصدام الى سقوط ابلان ونهاية قوتها الاقتصادية والسياسية .

وعلى الرغم من ذلك بقيت التجارة تلعب دورا هاما في حياة الممالك التي نشأت في سورية خلال العصور اللاحقة . فأوجاريت كانت عاصمة للتجارة العالمية آنذاك يؤمها التجار من مختلف الاصقاع للبيع والشراء . واشتهر الفينيقيون والآراميون في الالف الاول قبل الميلاد كتجار عالميين حملوا معهم البضائع الى الاصقاع البعيدة . فقد وصل الفينيقيون الى سواحل الاطلسي وبنوا الكثير من المستوطنات التجارية أشهرها قرطاجة التي لعبت دورا سياسيا واقتصاديا بارزا في تاريخ بلدان حوض المتوسط خلال الالف الاول قبل الميلاد .

وكان من نتائج النشاط التجاري العالمي الذي مارسه الفينيقيون بحراً والآراميون برّاً انتشار اللغات الفينيقية والآرامية والكتابة الأبجدية الفينيقية وكثير من الأفكار والمبادئ الدينية إلى مناطق بعيدة .

ب - المجتمع :

إن البنية الاجتماعية في سورية القديمة هي نتيجة لجملة من التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها المنطقة خلال العصور التاريخية القديمة . فقد كانت هناك حركة تنقل واستقرار مستمرة . والموجات البدوية لم تنقطع من القدوم إلى سورية . غير أنها سرعان ما كانت تتحول إلى الاستقرار وبناء الحضارة . فمع نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد نجد الآموريين يستقرون في سورية بأعداد كبيرة ويؤسسون الكثير من الإمارات الحاكمة في المدن السورية متخليين بذلك عن حياة البداوة والتنقل والترحال التي كانوا يعيشونها في بادية الشام . وكذلك فعل الآراميون فيما بعد مع نهاية الألف الثاني قبل الميلاد . ونجم عن كل ذلك تشكيلات اجتماعية مستقرة مارس فيها الإنسان النشاطات المناسبة والملائمة لحياة الاستقرار كالزراعة والصناعة والتجارة .

وعلى الرغم من وجود فروق بين التركيبات الاجتماعية التي نشأت في سورية القديمة خلال الفترات الزمنية المختلفة فلاحظ انقسام المجتمع إلى طبقتين رئيسيتين هما طبقة الأحرار وطبقة العبيد . ونجد ضمن طبقة الأحرار فئات متعددة كالنخبة الحاكمة ويمثلها ملك أو أمير بيده سلطة شبه مطلقة لا يجد منها إلا مصالح كبار رجالات الدولة من تنفيذيين أو قادة عسكريين أو أغنياء . وهناك أيضاً الموظفون بدرجاتهم المختلفة (كالمستشارين والولاة والموظفين الإداريين وغيرهم) والفلاحون والصناع والتجار . ويمارس هؤلاء نشاطهم إما في خدمة الملك أو تحت إشرافه ويخضعون للأوامر والترتيبات الملكية . وتوجد أيضاً فئة الكهنة أو رجال الدين الذين كانوا يخدمون في المعابد ويشرفون على إقامة الصلوات وتقديم القرابين والإضاحي للالهة . وكان لهم دور كبير في حياة الناس كونهم القادة الروحيين لهم .

أما طبقة العبيد فتألف من أسرى الحروب الذي تحولوا الى عبيد نتيجة أسرهم ومن عبيد حصل عليهم المرء عن طريق البيع والشراء . وطبعاً لا يتمتع أفراد هذه الطبقة بأية حقوق ، فيبتاعون ويشرون كأية بضاعة أو سلعة .

الاقتصاد والمجتمع في مصر القديمة :

أ - الاقتصاد :

كانت الزراعة عماد الاقتصاد المصري وتعتمد اعتماداً أساسياً على مياه نهر النيل . ولا نبالغ إذا قلنا إنه لولا نهر النيل لما نشأ استقرار وقامت حضارة في وادي النيل . فمصر كما قال هيرودوت هبة النيل . فالإنسان منذ عصور ما قبل التاريخ قام بتجفيف المستنقعات وبناء السدود للاستفادة من مياه النيل وزراعة أنواع مختلفة من المحاصيل لسد حاجات حياته اليومية . وكانت ملكية الأرض ثلاثة أنواع : ملكية للفرعون حيث يملك مساحات واسعة من الأراضي الزراعية يقطعها لمن يشاء لاستغلالها مقابل دفع ضريبة أو تأدية خدمات للدولة ، وملكياً للمعابد تتبع معبد هذا الإله أو ذاك ويجري استغلالها إما بتأجيرها أو بتسخير العبيد للعمل فيها . والنوع الثالث ملكية خاصة ولكن مساحتها صغيرة بالمقارنة مع النوعين الأولين . وكدليل على أهمية الزراعة عند المصريين القدماء نجد أنهم قسموا السنة الى ثلاثة فصول حسب وضع مياه نهر النيل والعمليات الزراعية التي تتم في الأرض . فالفصل الأول هو فصل فيضان النيل يمتد من تموز حتى تشرين الثاني وتكون فيه الحقول مغمورة بالمياه ، والفصل الثاني هو فصل بذر الحبوب ونمو النبات ويمتد من تشرين الثاني حتى نهاية شباط ، والفصل الثالث هو فصل الحصاد وتخزين المحصول ويمتد من آذار حتى حزيران .

زرع المصريون القمح والشعير اللذين شكلا المحصولان الرئيسيين . وزرعوا أيضاً العدس والبقول والذرة البيضاء والخضراوات كالبصل والثوم والخيار وغيره . ومن الأشجار المثمرة زرعوا النخيل والكروم .

الى جانب الزراعة اهتم المصريون القدماء بتربية الحيوان فربوا الأبقار والاعنام والماعز والحمير . وانتشر استخدام الحصان عندهم بعد دخول الهكسوس الى مصر نحو ١٧٠٠ ق.م . وكان للصيد البري وصيد الاسماك دور هام في حياة السكان نظرا لوجود مساحات مائية كبيرة تطل عليها مصر أو موجودة داخلها .

ولعبت الصناعة دورا هاما في حياة المصريين القدماء الاقتصادية . فعرفت حرف النسيج والتجارة والدباغ والفخاري منذ عصور مبكرة . واستخدم الناجم لسد حاجات السكان المحليين ، واعتمدت على مواد أولية محلية . الى جانب ذلك وجدت حرف كانت تمارس في ورشات خاصة ملحقة بالمعابد والقصور وتعتمد على تصنيع المعادن والاحجار الكريمة والاحجار . وبعض هذه المواد كان يستخرج من المناجم في مصر أو يستورد من الخارج . فالاحجار المختلفة وجدت في كثير من من المقالع داخل مصر . واستخرج الذهب من مناجم في الصحراء الشرقية وفي النوبة وفي السودان . وساد اعتقاد عند القدماء أن الذهب موجود في مصر كالتراب . وكان يصدر الى بعض البلدان المجاورة . أما الزمرد والفيروز فكان يستخرجان من سيناء .

إن الحصول على هذه المواد الأولية من المناجم كان عملا صعبا ويقوم به غالبا العبيد وأسرى الحروب ثم يحول فيما بعد في ورشات الحرفيين الى أدوات وتحف فنية مختلفة تستخدم في سد حاجات المعابد والقصور وفي إرضاء رغبات الطبقة المترفة الغنية .

وأهم الصناعات المصرية صناعة الزجاج والانسجة الكتانية والسفن التي اعتمدت على أخشاب مستوردة ، ومادة الكتابة من نبات البردي الذي كان ينمو بكثرة في وادي النيل .

الى جانب الزراعة والصناعة ازدهرت التجارة في مصر القديمة . ومما ساعد على ازدهارها امكانيات الاتصال السهلة وبخاصة الطرق المائية مع بلدان العالم

الخارجي • وتجدر الإشارة الى أن التجارة الخارجية كانت حكرا حكوميا وتقوم أساسا على تأمين حاجات الطبقة الحاكمة • فالعمليات التجارية الكبرى كانت تتم بتكليف من الفرعون وتحت إشرافه ، وأحيانا من قبل المعابد • لذلك اتخذت شكل بعثات تجارية حكومية يرسلها الفرعون او المعبد الى البلاد الاجنبية •

وتأتي الاخشاب على رأس قائمة المستوردات ولا سيما من الساحل الفينيقي حيث تنمو الغابات الغنية بأشجار الصنوبر والسرور والارز والسنديان الصالحية لصنع السفن • ولعبت مدينة جبيل دورا رئيسا في التجارة مع مصر وارتبطت معها بعلاقات قوية منذ القديم • وكانت مقصدا لبعض الرحلات التجارية (رحلة وينامون كاهن الاله آمون في القرن الحادي عشر قبل الميلاد) •

وكانت لمصر القديمة علاقات تجارية قوية مع جنوب غرب شبه الجزيرة العربية وسواحل افريقية الشرقية عن طريق البحر الاحمر • وقد أرسلت عدة بعثات تجارية الى تلك المناطق أشهرها بعثة حتشبوت الى بلا البنط (Punt) (ربما سواحل افريقية الشرقية) عام ١٤٨٢ ق م للحصول على منتجات تلك البلاد من الصمغ والمر والبخور والطيوب وريش النعام وغير ذلك • ونظرا لاهمية تلك الحملة أمرت حتشبوت بنقش أخبارها على جذران معبدها في دير البحري •

وأرسلت حملات أخرى الى النوبة للحصول على الذهب •

استوردت مصر النحاس من قبرص التي اشتهرت بعناها في العصور القديمة، وارتبطت بصلات تجارية قوية مع اليونان وبلدان بحر ايجة • واستقر تجار اغريق في مصر في العهد الصاوي وأسسوا مستوطنة تجارية اغريقية في غرب الدلتا (نوكراتيس) • واستقر أيضا تجار فينيقيون في مصر وكان لهم دور بارز في الملاحة البحرية • فقد قاموا بتكليف من الفرعون نيخو الثاني في بداية القرن السادس قبل الميلاد بالدوران حول افريقية انطلاقا من البحر الاحمر حتى البحر المتوسط •

أهم الصادرات لفائف البردي والذهب وبعض الاحجار الكريمة والتحف

الفنية والقمح (بخاصة الى بلاد اليونان) ، أما الواردات فشملت الاخشاب
والخمور والزيوت والنحاس والخيول واللازورد .

ب - المجتمع :

تألف المجتمع المصري القديم من طبقتين هما طبقة الاحرار وطبقة العبيد .
وشمل الاحرار فئات مختلفة كالفلاحين والحرفيين والعساكر والكتائب ورجال
الدين .

كان الفلاحون يشكلون غالبية الشعب المصري . وتقع على عاتقهم أعباء القيام
بالعمليات الزراعية المختلفة ويرتبون بأراضي الفرعون أو أراضي المعابد التي
يعملون عليها . وعليهم تقديم الجزء الأكبر من المحصول للفرعون أو دفع ضريبة عن
ذلك . ويسخرون خلال فترات توقف العمليات الزراعية للعمل في مشاريع
الفرعون العمرانية كبناء الاهرامات أو المعابد أو ما شابه ذلك . الى جانب هؤلاء
كان هناك فلاحون احرار يعملون في أراضيهم الخاصة بهم . لكن عدد هؤلاء كان
قليلا ومساحات الاراضي التي يملكونها صغيرة بالمقارنة مع المساحات المملوكة من
قبل الفرعون أو المعابد .

أما أصحاب الحرف فكانت أحوال من يعمل منهم في الورشات الملحقة
بالقصور أو المعابد أفضل من أحوال من يعمل مستقلا لحسابه الخاص .

وبالنسبة للعساكر فكانت تقع على عاتقهم العمليات العسكرية ، وكان القادة
من الاسر المتنفذة القوية . ولكن لم تكن الروح العسكرية منتشرة بشكل كبير
بين أفراد الشعب المصري بسبب المعتقدات الدينية الفرعونية التي تدعو الى الدعة
والاستسلام للفرعون . لذلك استعان القراعة بالمرتزقة الاجانب على نطاق واسع
أثناء الحملات العسكرية الكبيرة . وكانت تقطع لهم اقطاعات من الاراضي لتأمين
معيشتهم . واستطاعوا في بعض الاحيان الوصول الى السلطة (الاسرة ٢٢) .
وتورث اقطاعاتهم الى ابنائهم شرط أن يؤدي هؤلاء الواجبات العسكرية المطلوبة
منهم . وبذلك كان هناك مصدر دائم للعساكر .

وكان للكتاب ورجال الدين قيمة كبيرة في المجتمع المصري فينظر اليهم باحترام ويعفون من أعمال السخرة والضرائب . وتمتع بخاصة رجال الدين بنفوذ كبير بين افراد الشعب بسبب عدهم حراساً للعقائد والتقاليد الدينية .

أما العبيد فكان أكثرهم من غير المصريين (نوبيين وآسيويين وليبيين) كأسرى الحروب وانقراصنة وعبيد التجارة . ورغم كون هؤلاء أجانب فقد كانت تطبق عليهم أساء مصرية . وكان عدد العبيد يزيد أو ينقص تبعاً للاتصارات العسكرية الخارجية التي يحققها الفرعون . ففي عهد الامبراطورية الحديثة كان عددهم كبيراً نتيجة للمعارك المظفرة الكثيرة التي خاضها الفرعون آنذاك . وبما أن الفرعون هو المالك الاول لعبيد أسرى الحروب فكان هؤلاء يسخرون للعمل في قصوره أو بملكاته أو يهديهم الى المعابد حيث يعملون هناك .

الفصل السابع

الحضارة الحثية

قامت الحضارة الحثية في آسية الصغرى المحاطة بسلاسل جبلية عالية في الشمال والجنوب والتي تفصل المناطق الساحلية عن المناطق الداخلية .

لمحة تاريخية :

دلت المكتشفات الاثرية أن الانسان استوطن في آسية الصغرى منذ الالف السادس قبل الميلاد (شاتال هيوك) . ولكن الوثائق الكتابية لا تظهر الا ابتداء من الالف الثاني قبل الميلاد (الوثائق الاشورية القديمة من القرن التاسع عشر قبل الميلاد) . أما الوثائق الحثية فتظهر في القرون التالية . قدم الحثيون ، وهم أقدم شعب هندو أوروبي معروف ، الى آسية الصغرى التي كانت تسكنها جماعات الخاتيين الباكرين في بداية الالف الثاني قبل الميلاد . إن اسم « الحثيون » ليس هندو أوروبياً ، وربما كان مشتقاً من اسم خاتي ، وقد عثر من خلال الكتابات الاشورية ومرويات التوراة .

أسس الآشوريون في القرن التاسع عشر قبل الميلاد مستوطنات تجارية لهم في آسية الصغرى ، وكان أشهرها كاروم ، كانيش Karum Kanish (حالياً كوتله بالقرب من قيصريه) ، حيث كانوا يتاجرون بالمنسوجات والقصدير مقابل الذهب والفضة من آسية الصغرى .

تعليلنا نصوص كاروم كانيش الاشورية القديمة ، التي معظمها نصوص اقتصادية ، بعض المعلومات عن المنافسات التي كانت قائمة بين الامراء المحليين في آسية الصغرى والتي انتهت بسيطرة أنيتا Anitta حاكم إمارة كوشارا على الامارات الاخرى .

بعد فترة تاريخية مظلمة دامت نحو قرنين من الزمن أسس الملك لابارنا الاول Labarna للمملكة الحثية القديمة (١٦٤٠ - ١٣٨٠ ق م) . وأصبح اسمه لقباً للملوك الحثيين اللاحقين .

في عهد حاتوشيلي الاول خليفة لابارنا أصبحت العاصمة حاتوشا Hattusha (حالياً بوغازكوي) . قام حاتوشيلي الاول بحملات متعددة على شمال سورية واحتل الألاخ . خلفه مورثيلي الاول الذي استأنف سياسة التوسع الحثية في شمال سورية فاحتل حلب ومن ثم سار باتجاه بابل عاصمة السلالة البابلية الاولى فاحتلها عام ١٥٩٥ ق م وأنهى بذلك حكم تلك السلالة . بعد اغتياله أصبحت الامبراطورية الحثية ضعيفة نتيجة للفوضى والاضطرابات الداخلية مما أجبرها على التخلي عن المناطق المحتلة . أعاد اصلاح تيليپينو Telipinu آخر ملوك الامبراطورية القديمة (نحو ١٥٢٥ ق م) الهدوء والنظام الى الامبراطورية من جديد . فقد أصدر هذا الملك قانوناً ينظم وراثة العرش في الامبراطورية الحثية ، وأبقى على امتيازات النبلاء . وقد سمي ذلك القانون باسمه .

مرت الامبراطورية الحثية القديمة بعد تيليپينو بفترة تاريخية مظلمة ، وصلت خلالها الامبراطورية الحورية - الميتانية الى درجة كبيرة من القوة ودخلت في صراع مع مصر من أجل السيطرة على سورية .

يبدأ تاريخ الامبراطورية الحثية الحديثة (١٣٨٠ - ١٢٠٠ ق م) مع شوبيلوليوما الاول Shuppiluliuma I. (١٣٨٠ - ١٣٤٦ ق م) الذي جعل الامبراطورية الحثية الحديثة قوة كبيرة وأخضع أجزاء كبيرة من آسية الصغرى واحتل سورية حتى لبنان حيث كانت تبدأ منطقة النفوذ المصرية .

استمرت سياسة التوسع الحثية خلال عهد مورشيلي الثاني (نحو ١٣٤٥ - ١٣١٥ ق م) ومواتالي Muwatalli (نحو ١٣١٥ - ١٢٩٠ ق م) ، وبخاصة في سورية وأدت في النهاية الى الدخول في نزاع مع مصر حول مناطق النفوذ في سورية والذي وصل الى الاوج في معركة قادش عام ١٢٨٥ ق م . بعد ذلك بعشر سنوات (١٢٧٥ ق م) عقدت معاهدة سلام وصداقة بين رعسيس الثاني الفرعون المصري وحاتوشيلي الثالث الملك الحثي .

أخذت قوة الحثيين بعد هذا التاريخ بالانحدار وانهارت امبراطوريتهم في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد (١٢٠٠ ق م) نتيجة غزوات شعوب البحر التي اقترنت بمشكلات سياسية داخلية وبكوارث طبيعية .

الحياة السياسية والادارية :

كان الملك يشغل المركز الاعلى في امبراطورية الحثيين الاقطاعية ويحمل لقب « لابارنا » وهو اسم أول ملك حثي . وقد تحول هذا الاسم الى تابارنا Tabarna في العصور اللاحقة . كذلك تلقب الملك باللقب أخرى مثل « الملك الكبير » و « الشمس » في عهد الامبراطورية الحديثة . وربما يكون لقب « الشمس » مأخوذا من المصريين الذين كانت عندهم عبادة الشمس شائعة جدا .

كان الملك يتحول الى إله بعد موته ويدفن مع الملكة في ضريح واحد . وتقام له عبادة خاصة .

كانت الملكية في الامبراطورية الحثية وراثية فالملك يعين خليفته ، ولكن لا يعد هذا التعيين ساريا إلا بعد موافقة كبار رجال البلاط والنبل الذين يشكلون مجلسا يدعى بانكوش Pankush . وكان على الملك أن يراعي قرارات هذا المجلس الذي يعد هيئة قضائية عليا لمحاكمة أعضاء العائلة المالكة وطبقة النبلاء . وقد أصبح دور البانكوش ضعيفا في عهد الامبراطورية الحديثة .

كان الملك ممثلا للإله على الأرض ويحكم باسمه ، وكان قائدا أعلى للجيش

يقود الحملات العسكرية ، وكثيرا ما كان يضطر الى البقاء خارج مملكته فتسرة طوبيلة كما هو الحال مع شوبيلويوما الذي قضى عشرين عاما في سورية . شغل الملك أيضا وظيفة الكاهن الاعلى الذي عليه أن يرعى الاعياد والاحتفالات الدينية للآلهة . وكانت الملكة تشارك غالبا وولي العهد في ذلك . بالإضافة الى المهمات المذكورة كان الملك قاضيا أعلى ينظر في القضايا الكبرى .

لعبت الملكة الى جانب الملك دورا هاما في الامور الدينية والسياسية وكانت تحمل لقب تاوانانا Tawananna وهو اسم زوجة لابارنا أول ملك حثي . كان للملك زوجات أخريات أيضا الى جانب الملكة (أي الزوجة الاولى) ، وقد رتب هؤلاء في مراتب معينة ، ومرتبة الزوجة تحدد مرتبة ابنها ، فيأتي أولا أبناء الملكة ثم أبناء النساء الأخريات . ويشكل أبناء الملك مع أبناء الملك السابق العائلة المالكة التي ينتسب اليها أيضا من يرتبط معها بمصاهرة .

كانت ادارة بعض المقاطعات توكل أحيانا الى امرأء من الاسرة الحاكمة ، الذين يحكمون كملوك صغار ضمن الامبراطورية الحثية ويخضعون للملك الحثي الأكبر . وتشكلت طبقة النبلاء الكبار من الملوك الصغار وحكام المقاطعات ووجهاء الامبراطورية الكبار . وكان على أصحاب الوظائف والاقطاعات الكبرى أن يؤدوا للملك وولي العهد يمين الولاء .

نشأت في الامبراطورية الحثية الحديثة طبقة خاصة من الموظفين مهمتها تسيير مختلف شؤون الملكة . كانت العاصمة حاتوشا تحكم من قبل « سيد » تنحصر وظائفه الاساسية في الاشراف على حراسة القلاع والابواب ومشاريع العمل الكبيرة .

بالنسبة للبلدان الصغيرة كانت هناك هيئة تسمى « الشيوخ » مسؤولة عن الادارة المحلية .

الجيش :

تبين النصوص المختلفة أنه كان للجيش والامور العسكرية أهمية خاصة في

الامبراطورية الحثية ، فالمحافظة على كيان الدولة والقيام بعمليات عسكرية تطلب وجود تنظيم عسكري جيد .

كان لدى الملك ، بالإضافة الى حرسه الخاص ، فرقة على أهبة الاستعداد باستمرار . وتألف الجيش الحثي منذ عهد الملكة القديمة من المشاة ومحاربي العربات . وكان النبلاء هم الذين يستخدمون العربات الحربية غالبا في المعارك . وقد استخدمت الخيول لجر العربات الحربية التي كان يتألف طاقم الواحدة منها من ثلاثة رجال : قائد العربة وحامل الترس ومحارب أسلحته الرمح والقوس والسهم . أما اسلحة جندي المشاة فكانت الرمح والسيف . وقد شكلت المشاة الجزء الأكبر من الجيش ، وكان أفرادها من سكان المملكة الحثية ومن الدويلات التابعة لها . اذ كان على كل دويلة أو إمارة خاضعة للجيش أن تقدم عددا معيناً من الجنود المشاة ومن العربات الحربية في أوقات الحرب وذلك حسب الاتفاقات المعقودة . كذلك استخدم الحثيون المرتزقة في جيوشهم ، وبخاصة في الممارك الكبرى التي خاضوها مثل معركة قادش .

كانت تعبئة الجيش تحدث في الربيع ويتسلم الملك القيادة في عرض كبير أو يكلف أحد قادته ذلك . وتسمى الحويلات الملكية الحثية عددا من هؤلاء القادة بأسمائهم ، وكان الكثير منهم ينتسب للعائلة المالكة . وتفرد الحويلات والاتفاقات المعقودة مكانا كبيرا للحديث عن غنائم الحرب . كان الحثيون يقومون أحيانا باجلاء السكان عن بلادهم واسكانهم في مكان آخر لمنع قيامهم بثورات ضدهم .

كانت الحرب في نظر الحثيين أمرا إلهيا ، لذلك تستشار الالهة قبل البدء بها . وكان الحثيون يقبلون بخضوع الاعداء اذا اعترفوا بسلطتهم وتوضع لذلك معاهدات خاصة .

الحياة الاجتماعية :

إن التنظيم الاجتماعي للامبراطورية الحثية هو نتيجة تراكبات إثنوغرافية

وتمازجات ثقافية متعددة • ويقسم المجتمع الحثي الى طبقتين أساسيتين هما : طبقة
الاحرار وطبقة غير الاحرار •

١ - الاحرار : وتشمل النبلاء الكبار (البانكوشس) وموظفي البلاط
وسيدات القصر وطبقات الكهنة والعسكريين والقضاة والفلاحين وسكان المدن •
ارتبط بالنبلاء الكبار مجموعات من المرتزقة الاجانب الذين شكلوا مع الزمن
طبقة اجتماعية خاصة (لولاخي والخابيرو) •

٢ - غير الاحرار : وهم أسرى الحروب والمهجرون من بلادهم والعبيد •
وكان العدد الكبير من الخدم في البلاط الملكي يتألف من المهجرين ومن أسرى
الحروب • والقانون الحثي لا يذكر المهجرين كطبقة خاصة بجانب الاحرار والعبيد •
كان المهجرون يوضعون في مكان محدد كفلاحين أو حرفيين من قبل الملك الكبير
وعليهم البقاء هناك • ويمكن بيعهم كعبيد أو اهداؤهم كماليك • وكانت ادارة
الدولة تزودهم بما يحتاجونه من أجل القيام بالاعمال الزراعية المطلوبة أو غيرها
من الاعمال • أما العبيد فكانوا يعملون في مؤسسات الدولة المختلفة وعند الناس
العاديين ، ويميز القانون بينهم وبين الاحرار ، ولكن كانت حياتهم مصانة قانونيا ،
وفي حال قيامهم بأعمال مخالفة للقانون كانت تفرض عقوبات بحقهم ، مثلاً في حال
سرقة جوب يدفع الحر ١٢ شيقيل فضة والعبد ستة • وكانت هناك عقوبات جسدية :
إذا أحرق عبد يتاودفع سيده عنه تعويضاً فإن المرء يجدد ألف العبد وأذنيه ويعيده
الى سيده • كان يتم بيع العبيد وشرائهم كالبضائع ولهم أسعار محددة • ولا تذكر
القوانين الحثية العبيد المهرة مثل الفخاري والحداد والنجار والنساج • كان الزواج
بين الاحرار والعبيد ممكناً ، ولكن في حال الطلاق هناك فرق في توزيع الاطفال •
ولا يتحدث القانون الحثي عن امكان اطلاق سراح العبيد •

تعد الاسرة الابوية أساس المجتمع الحثي ، ولكن القانون الحثي لا يعطي
معلومات عن حقوق العائلة والتبني والوراثة وغير ذلك •

تطورت الحرف في المدن الحثية فكان هناك الفخاري والنجار والحداد والنساج

والدباغ • أما في الريف فقد سكن الفلاحون ومارسوا الزراعة وتربية الحيوان •
وتشير عدة فقرات من القانون الحثي الى الحياة الريفية •

بالإضافة الى سكان المدن والفلاحين كانت هناك أيضا مجموعات من البدو
وأشباه البدو الذين مارسوا تربية الماشية وعاشوا في الخيام •

الحياة الاقتصادية :

كانت القاعدة الاقتصادية للمملكة الحثية تقوم على الممتلكات الخاصة للأراضي
وهي صغيرة ، وعلى الممتلكات الكبيرة وتعود للقصر والمعبد ، وتشير اليها معظم
الوثائق المكتشفة • وتشير القوانين الحثية المكتشفة أيضا الى الممتلكات الخاصة من
الأراضي والبيوت والحيوانات •

المحاصيل الرئيسية التي زرعها الحثيون القمح والشعير اللذان كانا أساسين في
التغذية ، وزرعوا أيضا الكرمة والتفاح • وحظيت تربية الحيوان باهتمامهم فربوا
الحصان الذي كان ضروريا للحروب ، والحمار والغنم والماعز والبقر والغنمير
والنحل • وقد حدد القانون الحثي أسعار هذه الحيوانات وأسعار المحاصيل الزراعية
منعا للتلاعب بها •

كانت الفضة وسيلة التعامل الأساسية في المعاملات التجارية التي تتم حيث كان
يجري تبادلها حسب نظام الأوزان البابلي كالثقل والمينة والوزنة •

مارس الحرفيون والصناع مهنتهم في ورشات ملحقة بالقصور والمعابد وبالتالي
كانت مهمتهم تنحصر في إنجاز تماثيل للآلهة والملوك أو أي تحف فنية أخرى
تطلب منهم •

المعتقدات الدينية :

كان للدين عند الحثيين ، كما هو الحال عند الشعوب القديمة الأخرى ، أهمية
كبيرة • وقد عبدوا عددا كبيرا من الآلهة موزعة الى فئات كثيرة •

يجلس على قمة الباشيون الحثي الرسمي إله الطقس والمواصف Taru الذي كان يحمل لقب ملك ، وزوجته إلهة الشمس من أريننا Arinna أحد أماكن العبادة الرئيسية في البلاد ، ولم يُعرف موقعه حتى الآن ، وقد سميت إلهة الشمس نسبة إليه .

ومن الآلهة الأخرى المشهورة تيليپينو Telipinu ابن إله الطقس والمواصف ، وهو الشخصية الرئيسية في الأسطورة التي تحمل اسمه وتتحدث عن غيابه ومن ثم عودته ، وتعكس بالتالي توالي فصول السنة . وهي بذلك تشبه أسطورة بعل وغيرها من الأساطير التي عرفها الشرق القديم ، والتي تعكس تعاقب الفصول .

وكان للزوج الإلهي الرئيس أولاد متعددون منهم إله الطقس من نيريك Nerik والإلهة ميزولا Mezulla .

وقد عبد الحثيون أيضاً آلهة شعوب أخرى مثل الإله تيشوب Teshup وزوجته الإلهة خيبات Hepat الحوريين . وكانت آلهة الشعوب المغلوبة تدخل في الباشيون الحثي كدليل على خضوعها للآلهة الحثية . أقام الحثيون معابد للآلهة ونصبوا فيها التماثيل وأشرف على رعايتها وخدمتها الكهان .

كان لكل إله حثي عيد خاص به يحتفل به وتقدم فيه الاضاحي له ، وأهم هذه الأعياد عيد رأس السنة .

تأثر الحثيون في المجال الديني بالعبادات والطقوس البابلية فأدخلوا بعضها في ديانتهم . كذلك أخذوا السحر عن البابليين .

اللغة والآداب :

أخذ الحثيون الكتابة المسماة من بلاد الرافدين وكتبوا بها لغتهم الهندو-أوروبية . واستخدموا أيضاً ما يعرف بالهيريوغليفية الحثية ، ولكن على نطاق محدود .

وترد في النصوص الحثية كلمات وتعابير بابلية وسومرية متعددة • ولكن يبدو أن هذه الكلمات والتعابير الأجنبية كانت تُقرأ باللغة الحثية •

تعد اللغة الحثية أقدم لغة هندو أوروبية معروفة حتى الآن • وقد اكتُشف في حاثوشا العاصمة الحثية عام ١٩٠٩ عدد كبير من الرقع الطينية التي كتبت بها • وتتضمن هذه الرقع الطينية نصوص المعاهدات التي عقدها الحثيون مع حكام الدول المجاورة مثل المعاهدة مع رعمسيس الثاني الفرعون المصري عام ١٢٧٥ ق م • ومعاهدة مع حاكم كيزواتنا (كيليكية) وغيرها • وتشمل أيضا حوليات الملوك الحثيين كحوليات مورشيلي الثاني وشوبيلوليوما • وقوانين وأوامر ملكية وغيرها • كذلك هناك رسائل أرسلها ملوك حثيون إلى بعض حكام الممالك والدول الأخرى كالرسائل الموجودة ضمن أرشيف العمارة المكتشف في مصر •

بالنسبة للأدب الدينية تأثر الحثيون بالأساطير الرافدية فأخذوا أسطورة جلجاميش وأدخلوا عليها بعض التغيرات • من الأساطير الحثية أسطورة تيليسينو التي تتحدث عن غياب الإله تيليسينو وعودته جالبا معه الخير والخصب والحياة •

الفصل الثامن

الخصارة الايرانية

ينتمي الايرانيون الى مجموعة الشعوب الهندو أوروبية التي بدأت بالقدوم الى ايران منذ بداية الالف الاول قبل الميلاد . وكانت الشعوب الهندو أوروبية قد بدأت بالهجرة من موطنها الاصلي في آسية الوسطى وجنوب روسيا منذ الالف الثاني قبل الميلاد . اتجه الايرانيون نحو الجنوب واستقروا في منطقة الهضاب ما بين بحر قزوين والخليج العربي ، وكان الفرس والميديون أهم مجموعاتهم .

ان كلمة ايران وايرانيين لها علاقة بكلمة آري وآريين . والآريون فرع من فروع مجموعة الشعوب الهندو أوروبية التي ينتمي اليها أيضا اليونانيون والهنود . ويرد ذكر ايران لأول مرة عام ٢٤٣ ق م في كتابات ملكية على الشكل التالي Eran وتعني « بلاد الآريين » .

استوطن الميديون المنطقة الواقعة الى جنوب غرب بحر قزوين وسموها ميديا ، وهي منطقة أذربيجان الحالية . واستطاعوا تشكيل دولة في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد . وتمكنوا بالتعاون مع الكلدانيين من القضاء على الامبراطورية الآشورية الحديثة واحتلال نينوى وتدميرها عام ٦١٢ ق م .

قام عام ٥٥٠ ق م قورش الثاني بالقضاء على مملكة الميديين وضمها الى مملكته الفارسية . كان الفرس قد بدأوا بالاستقرار في المنطقة الواقعة الى الشرق من منابع نهر قارون منذ بداية القرن الثامن قبل الميلاد . وأسسوا فيما بعد مملكة صغيرة

بقيادة زعيمهم أخامانيش في منطقة فارس جنوب غرب إيران الحالية على شواطئ الخليج العربي . وأصبح اسم هذه المنطقة يطلق على الامبراطورية الفارسية كلها مسجدا لها كونها موطنها للسلالة الاخمينية الحاكمة .

اتسعت مملكة الفرس في القرون التالية وأصبحت تشمل مناطق واسعة . فقد استطاع قورش الثاني ، أحد ملوك الاخمينيين ، الاستيلاء عام ٥٥٠ ق م على مملكة الميديين ووحد بذلك الفرس والميديين في امبراطورية واحدة هي الامبراطورية الفارسية . وقام فيما بعد باخضاع آسية الصغرى والمناطق الواقعة إلى الشرق من إيران حتى نهر السند ، واحتل بابل عام ٥٣٩ ق م . خلفه في الحكم ابنه قمبيز Kambyse (٥٣٠ - ٥٢١ ق م) الذي قام باحتلال مصر عام ٥٢٥ ق م . وخلف هذا داريوس الاول (Darius I. : ٥٢١ - ٤٨٦ ق م) الذي استطاع تثبيت أركان الامبراطورية وإشاعة الأمن فيها . وقد خلد هذا الامبراطور انتصاراته في نقش على صخور بهيستون كتب بثلاث لغات هي الفارسية القديمة والعلامية الحديثة والبابلية . وحاول داريوس الأول احتلال اليونان ولكنه فشل وهزم في معركة الماراثون الشهيرة عام ٤٩٠ ق م .

بقيت الامبراطورية الفارسية قائمة حتى قضى عليها الاسكندر المقدوني بعد انتصاره على آخر ملوكها في معارك ايسوس عام ٣٣٣ ق م ، وأرييل عام ٣٣١ ق م .

الحياة السياسية والإدارية :

على الرغم من أن الامبراطورية الفارسية قامت على القوة والتوسع فإن حكامها اهتموا بوضع نظام إداري ثابت لها . كان الملك رأس الدولة ويسمى الملك المحارب . وهذا يدل على الصبغة العسكرية للامبراطورية . ويصل الملك إلى العرش عن طريق الوراثة ، وفي بعض الأحيان بالقوة ، ومن حقه اختيار خليفة له من بين أبنائه ، وكانت سلطته مطلقة من الناحية النظرية ولكن عمليا مقيدة بتقاليد وعادات كثيرة ، وبقوة الاشراف والاعيان الذين كانوا يؤلفون مجلسا استشاريا للملك .

كانت الامبراطورية الفارسية مقسمة الى ولايات (واحدها ساترايه أو مرزبة Satrapien) تدار كل منها من قبل ساتراب Satrap أي حاكم (مرزبان) مسؤول عن الشؤون المدنية ، ومن قائد عسكري مسؤول عن الشؤون العسكرية . وكان عدد الولايات يتفاوت خلال حكم داريوس الاول ما بين العشرين والاثنتين وعشرين ولاية عدا ولاية فارس التي كانت تشكل ولاية مستقلة كونها موطن الاسرة الحاكمة . وفرض على كل ولاية أن تقدم متدارا معيناً من الضرائب الى الملك شيوا باستثناء ولاية فارس التي أعفيت منها .

كان تحت تصرف الملك موظفون خصوصيون يدعون «عيون الملك وآذانه» وتوكل اليهم مهمات مراقبة تنفيذ القوانين والامامر الملكية في الولايات بشكل صحيح .

كان القانون في الامبراطورية الفارسية مستمداً من الارادة الالهية و يجوز الخروج عليه لان ذلك يعد خروجاً على ارادة الآلهة .

بالنسبة للقضاء عد الملك القاضي الاعلى ولكنه كان ينوب عنه في تسيير الامور القضائية أحد العلماء الشيوخ ، وكانت هناك محكمة عليا مؤلفة من سبعة قضاة . أما في الولايات فتألفت محاكم محلية للنظر في القضايا المعروضة .

الحياة الاقتصادية :

اهتم ملوك الفرس بالحياة الاقتصادية فأمروا ببناء منشآت مائية ضخمة وشجعوا على زراعة الكثير من المحاصيل والاشجار المثمرة . ونشأت حول القصور الملكية في برسبوليس Persepolis وسوسة Susa واقباتان Ekbatan (همدان حالياً) مدن ازدهرت فيها روابط الحرفيين واتسعت التجارة معتمدة على هيئة مصرفية تستخدم ما يشبه الشيكات . وولدت التجارة والرحلات حسب المغامرة . فأبحر مكتشفون فارس من نهر السند حتى مصر . وغامر المدعو ساتاسيس Sataspes نحو عام ٥٠٠ ق م عبر المتوسط ووصل حتى غرب افريقية .

الزراعة :

الزراعة من وجهة نظر الكتب الفارسية الدينية أفضل عمل يزاوله الانسان . وكانت هناك أملاك خاصة يقوم أصحابها بزراعتها ، وأملاك اقطاعية تخص النبلاء والاشراف ويقوم بزراعتها المستأجرون أو الارقاء الاجانب . كان القمح والشعير أهم المحاصيل الزراعية . أما زراعة الرز فقد أخذها الفرس عن الهنود بعد احتلالهم أجزاء من الهند .

الصناعة والتجارة :

لم يهتم الفرس بالصناعة وتركوا ذلك للشعوب والامم الاخرى التي حكموها . أما التجارة فقد ازدهرت بسبب استتباب الامن في مختلف أرجاء الامبراطورية ، واهتمام الملوك ، وبخاصة داريوس الاول ، بفتح الطرق وتعميدها لأهداف حرية واقتصادية . وقد سهلت هذه الطرق عملية المبادلات التجارية بين أرجاء الامبراطورية المختلفة . ولكن كانت الشعوب الخاضعة للفرس كالبابليين والفينيقيين والآراميين هي التي تمارس التجارة غالبا لان الفرس كانوا يحتقرون التجارة ويرون في الاسواق بؤرة للخداع والكذب . ومن الاجراءات التي سهلت عملية التبادل التجاري في الامبراطورية الفارسية قيام داريوس الاول بسك عملة من الذهب والفضة سميت الداريق . وربما اقتبس داريوس سك النقود عن المدن الايونية على الساحل الغربي لآسية الصغرى .

الحياة الدينية :

عبد الايرانيون في بداية تاريخهم قوى الطبيعة المختلفة كالشمس والقمر والماء والنار وغيرها . وكان أهم الآلهة الايرانية قبل ظهور الديانة الزرادشتية مثراس Mithras إله النور والشمس و ماه Mah إله القمر وأيتا Anita إلهة الغصن وزام Zam إله الارض .

اكتسبت الامبراطورية الفارسية المزدهرة مصدرا جديدا من القوة مع الدين القومي الذي جاء به زرادشت (زراتوسترا Zarathustra) في القرن السادس قبل

الميلاد • في البداية آثار ايمان زرادشت بإله واحد غضب الكهنة الفرس الذين كانوا
يرعون عبادة الآلهة التقليدية • ولكن فيما بعد اعتنق داريوس الاول الزرادشتية
وجعلها دين الدولة الرسمي ليدعم بها وحدة امپراطوريته •

تقوم الزرادشتية على الايمان بإله واحد للعالم هو أهورا مزدا Ahura Mazda
(السيد الحكيم) إله النور والسماء والحق والعدل والخير ، وترى أنه يوجد صراع
بين مبدئه الخير ومبدأ الشيطان أهريمان Ahriman الشرير • فالعالم مسرح لصراع
طويل ما بين الخير ممثلاً بأهورا مزدا والشر ممثلاً بأهريمان • ولكن سيفوز أهورا
مزدا في النهاية ويستصر الخير على الشر •

وقد جمع أتباع زرادشت أقوال وأدعية معلمهم في كتاب يعد كتاب الزرادشتية
المقدس الذي سمي فيما بعد الأبستا (الابستاق عند المؤرخين العرب) •

لم تكن للديانة الزرادشتية هياكل وأصنام ، ولكن كانت تقام لها المذابح المقدسة
على قسم الجبال وفي القصور أو في قلب المدن حيث توقد فيها النار تكريماً لأهورا
مزدا إله الخير والنور • كانت النار مقدسة ووجب على كل أسرة أن تبقي ناراها
متقدة لأن انطفائها يعني البؤس والاضمحلال للأسرة • وكانت هناك بيوت للنار
تقام على مرتفعات صخرية •

عادت عبادة الإله متراس إله النور والشمس الى الانتشار من جديد في القرون
الاولى الميلادية بينما كانت الديانة الزرادشتية في تراجع وانتقلت فيما بعد عبادة
متراس الى روما •

الكتابة والآداب والعلوم :

استخدم الفرس لغات وكتابات متعددة في امپراطوريتهم التي أنشؤوها • فقد
كانت اللغة الآرامية اللغة الرسمية في الولايات الغربية من الامپراطورية الفارسية
حيث دونت بها الوثائق والمراسلات الرسمية المختلفة •

وكذلك فانهم استخدموا اللهجة البابلية المتأخرة واللغة العيلامية الحديثة كما يظهر من نقش الملك داريوس الاول على صخور بهيستون .

استعمل الايرانيون الكتابة المسمارية لكتابة لغتهم الفارسية القديمة وذلك بعد أن بسطوا وأنقصوا عدد رموزها الى ستة وثلاثين رمزا تحولت تدريجيا الى حروف هجائية مسمارية .

كانت اللغة الفارسية القديمة لغة البلاط والاعياد في عهد داريوس الاول وهي تظهر تشابها كبيرا مع اللغة السنسكريتية . وقد تطورت مع الزمن وانقسمت الى لهجتين هما : الزندية والبهلوية التي تعد لغة هندية ، وقد نشأت منها اللغة الفارسية الحالية .

بالنسبة للعلوم فانها لم تتطور عند الفرس بسبب عدم عنايتهم بها لان اهتمامهم الاساس كان منصبا على الحروب والتوسع . فكان الطب يعتمد على السحر ويمارس من قبل الكهنة . ولكن مع الزمن ازداد الاهتمام به ، وأنشأ داريوس الاول مدرسة للطب في مصر . وكان على الطبيب الناشئ أن يبدأ مهنته بعلاج الكفرة والاجانب . فاذا أثبت كفايته يسمح له بمعالجة الفرس .

ايران في عهد الفريثيين والساسانيين :

على الرغم من التركيب السياسي والاقتصادي والديني القوي الذي كانت تقوم عليه الامبراطورية الفارسية فانها لم تستطع أن تصمد أمام الاسكندر المقدوني الذي هزم الملك الفارسي داريوس الثالث عام ٣٣١ ق م .

خضعت ايران بعد وفاة الاسكندر المقدوني للسلوقيين الذين حكموا سورية وآسية الصغرى وبلاد الرافدين . في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد أسس الفريثيون Parther مملكة لهم في شمال ايران اتسعت مع الزمن وشملت كل ايران وبلاد الرافدين ، ودخلت في حروب طويلة لم تحسم مع الرومان .

أصبحت فارس في أوائل القرن الثالث الميلادي تحكم من قبل أسرة ذات أصل كهنوتي مجوسي هي الأسرة الساسانية . وقد استطاعت هذه الأسرة بقيادة ملكها أردشير الأول (Ardachir I. ٢٢٦ - ٢٤٠ م) من القضاء على الحكم الفرثي وتأسيس الامبراطورية الساسانية (٢٢٦ - ٦٥٢ م) . ونتيجة إصلاحات في القيادة العسكرية والتسليح تشكل جيش قوي في الامبراطورية الجديدة امتدت فتوحاته من الهند حتى آسية الصغرى . هذا وقد قامت حكومة مركزية قوية وازدهرت التجارة ما بين الشرق والغرب . وبسرعة أصبحت إيران غنية بالقضة الرومانية ومشهورة بتجارة الحرير الصيني . وتأثرت الحضارة الايرانية في الوقت نفسه بمؤثرات أجنبية . فقد جلب رحالة وعلماء كتابات فلكية هندية ، وأعمالا طبية يونانية الى إيران . بالمقابل أثرت الحضارة الايرانية في حضارات البلدان الأخرى ووصل ذلك التأثير الى الصين .

وقد حدث انتعاش ديني جديد بظهور المانوية التي سميت باسم مؤسسها ماني (Mani ٢١٥ - ٢٧٣ م) . كان على المانوية أن تنهي المنازعات ما بين الكهنة حيث أنها خلقت من ثلاث الديانات الأكثر انتشارا في ذلك الوقت ، وهي الزرادشتية والبوذية والمسيحية ، دينا قوميا جديدا . ولكنها لم تستطع أن تصمد أمام الديانات العالمية . غير أن مبشرها بشروا الحضارة الايرانية في البلاد البعيدة التي وصلوا اليها مثل الصين ومصر .

عاشت الامبراطورية الساسانية نحو أربعة قرون ظلمت خلالها بنجاح الهجمات المتكررة لقبائل الهون من الشمال الشرقي وبعدها الهجمات الرومانية وأخيرا هجمات الامبراطورية البيزنطية من ناحية الغرب .

قضى العرب المسلمون في منتصف القرن السابع (٦٥١) على الامبراطورية الساسانية وأصبحت إيران جزءا من الدولة العربية الاسلامية . وهكذا افادت إيران كقوة سياسية ، لكنها شكلت طوال ثمانية القرون التالية جسرا حيا للثقافة والتجارة بين الشرق والغرب .

حضارات الشرق الأقصى

قامت في الشرق الأقصى، وتطورت حضارات متعددة منها حضارتان هامتان ازدهرتا في الهند والصين، وتنتظران اليوم إلى تاريخ عمره أكثر من ثلاثة آلاف عام . فمنذ وقت مبكر توصل فلاحون صينيون وهنود ويابانيون وجنوب شرق آسيين إلى إنتاج مواد غذائية كافية لإعالة عدد كبير من السكان يقطنون في بقعة صغيرة من الأرض نسييا . وأحرز الهنود قبل ما يزيد على ألف سنة تقدما كبيرا في الرياضيات والطب والفلك . ونشأت في الهند ديارتان عالميتان هما البوذية والهندوسية . أما الصينيون فقد ظهرت عندهم الفلسفة الكونفوشيوسية وتوصلوا قبل قرون متعددة من العالم الغربي إلى عدة اختراعات مثل صنع الورق وإنتاجه وطباعة الكتب وصب الحديد ومعرفة البارود وإنتاج البورسلان . وقد عرفت أوربة هذه الاختراعات وغيرها عن طريق إيران وبلدان المشرق العربي ونشأت بينها وبين أقطار المشرق الأقصى اتصالات ثقافية واقتصادية منذ القري الثالث عشر الميلادي .

الفصل التاسع

الحضارة الهندية

شبه جزيرة الهند منطقة واسعة الأرجاء كثيرة السكان تحيط بها من الشمال جبال الهيمالايا ، ومن الجنوب المحيط الهندي ، بينما تقع في الغرب الهضبة الإيرانية ، وفي الشرق بلدان جنوب شرق آسية . وتوجد فيها بعض الانهار الكبرى مثل السند في اقليم البنجاب في الشمال الغربي (حاليا في باكستان) ، والغانج في الشمال . وقد نشأت أولى المراكز الحضارية في الهند في وديان هذه الانهار .

الهند خلال عصور ما قبل التاريخ :

أصبح معروفا من خلال اللفظ الاثرية أن انسان العصر الحجري القديم في الهند لم يعرف السكن في بيوت ثابتة ولا الزراعة أو صنع الفخار . ولكن هذا الوضع تغير في العصر الحجري الحديث حيث حقق الانسان بعض التطورات في صنع أدواته الحجرية وبدأ بزراعة الارض وتربية الحيوانات وتعلم صناعة الفخار . وخلال العصر المعدني عرف الانسان النحاس أولا ثم البرونز واستخدمهما في صنع أدواته . ومن أهم حضارات هذا العصر حضارة وادي السند مشثلة بمنطقة هارابا Harappa وموهينجودارو Mohenjodaro ، التي تعود الى نحو ٢٥٠٠ ق م .

حضارة وادي السند :

لقد تم الكشف عن هذه الحضارة عن طريق المصادفة وذلك عندما كانت شركة انكليزية تمد سكة الحديد في غرب شبه القارة الهندية (باكستان حاليا) عام ١٨٣٦ فعثرت على خرائب مدينة قديمة . بعد ذلك جاء علماء آثار الى المنطقة وأسفرت الحفريات التي تمت في عشرينات هذا القرن وأربعيناته بقيادة السيرجون مارشال J. Marshall والسير مورتيمر ويلر M. Wheeler عن اكتشاف مدينة قديمة تدعى هارابا . كذلك اكتشفت الى الجنوب منها على بعد نحو ٥٥ كم في وادي السند مدينة أخرى هي موهينجو دارو .

كانت هاتان المدينتان مع أكثر من أربعين مدينة أخرى وقرية تتبعان مملكة واحدة ازدهرت على ما يبدو في الفترة ما بين ٢٢٠٠ - ١٧٠٠ ق م . وكان لهذه المملكة مدينة ذات ميناء وتدعى لوthal وتقع على خليج كمبي Cambay . كشف عنها بين ١٩٥٥ - ١٩٦٢ ، وتبين أن الميناء كان كبيرا ترسو فيه ٥٥ سفينة . من هنا كانت السفن تنطلق عبر الخليج العربي الى بلاد الرافدين حاملة الاحجار الكريمة والمنسوجات القطنية والتوابل والجلود .

وتبين الآثار التي اكتشفت أن هارابا وموهينجو دارو كانتا منذ البداية مدنا منظمة فيها بيوت للسكن وقلاع وشوارع متعددة وشبكات للمياه والمجاري . وكثير من البيوت كان فيها حمامات . كانت مادة البناء المستخدمة الاجر ، وهذا يقود الى الاستنتاج ان خشب الوقود كان متوافرا في المنطقة مما ساعد على شي اللبن الطري .

ان مدن وادي السند نشأت وازدهرت نتيجة لمزاولة السكان الحرف المختلفة والتجارة . الى جانب ذلك زرع قلاحو وادي السند القمح والشعير والقطن الذي غزلوه وصبغوه ، وربوا الحيوانات المختلفة كالاغنام والماعز والابقار التي كانت تعطي اللحم والحليب . ونسجوا صوف الاغنام وصنعوا منها اقمشة . واستخدموا الجواميس والبقيلة والحمير والجمال للنقل والجر .

كان الفلاحون ينقلون منتجاتهم الى المدينة بواسطة عربات تجرها الخيول
ويبادلون بها هناك منتجات الحرفيين .

صنع الحرفيون من النحاس والبرونز أدوات مختلفة مثل السكاكين والبلطات
وغيرها بالإضافة الى تحف فنية كتمائيل صغيرة لراقصات ونماذج لعربات . وأنتج
الصاغة من الذهب والفضة واللازورد والعقيق طاسات وأسلور وعقود وغيرها . علما
بأن جزءا صغيرا فقط من الاحجار الكريمة كان يمكن الحصول عليه من وادي السند،
أما الباقي فقد جلب من مناطق بعيدة . فكانت قوافل الحمير والجمال تسير باتجاه
الغرب نحو بلوشتان لجلب القار ، وباتجاه الشمال الى أفغانستان للحصول على
الرصاص . وربما كانت السفن تجلب النحاس من الخليج العربي .

هذا وقد وجدت أختام لتجار من وادي السند في سومر . وتذكر النصوص
السومرية والاكادية قيام علاقات تجارية منظمة ما بين جنوب بلاد الرافدين وميلوخوا
Meluhha التي كانت تقع على الاغلب في وادي السند .

ان هذا النشاط التجاري الواسع لمنطقة وادي السند يفترض وجود طبقة منظمة
من التجار وطرقات تجارية آمنة . ويبدو أن مدينتي هاربا وموهينجو دارو اللتين
كانتا تقعان على انهار قد لعبتا الدور الرئيس في هذه التجارة الواسعة وحصلتا على
الجزء الأكبر من الارباح .

عرفت حضارة وادي السند نوعا من الكتابة اكتشفت بعض نماذجها على
أختام تجري دراستها ، ولكن لم يتمكن العلماء من تفسيرها حتى الآن .

بدءا من النصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد بدأت مجموعات آرية
باللخول الى الهند من جهة الشمال الغربي . وكانت الخيول تجر عرباتهم الحربية،
وسهامهم مزودة برؤوس معدنية . وقد قاموا بالهجوم على مدن وادي السند
ودمروها ، ولم يستطع السكان الدراويديون Drawida بناء هذه الحضارة مقاومتهم،
وانهارت بذلك حضارة وادي السند نحو ١٥٠٠ ق م . ومن الاسباب الاخرى

التي ساهمت في انهيارها العوامل الطبيعية مثل الفيضانات وتعرية الطبيعة من غطائها النباتي .

أصل الآريين : (تعني كلمة arya بالهندية القديمة «النيل») : بعد أن قضى الآريون على مقاومة السكان المحليين احتلوا السهول الشمالية الخصبة وصاروا يدخلون البلاد على شكل موجات مصطحبة معها ماشيتها .

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو : ما هو الموطن الأصلي للآريين ؟

في الواقع توجد نظريات متعددة حول هذا الموضوع . يقول بعض العلماء إن هضبة البامير كانت الموطن الأصلي للآريين ، بينما يرى بعضهم الآخر أن غرب سيبيريا كان موطنهم الأصلي . ولكن الرأي الغالب الذي يؤيده كثير من الباحثين يعد منطقة أوراسيا الواقعة بين بحيرة بلكاش والدانوب الموطن الأصلي للآريين .

أظهرت الدراسات والبحوث المختلفة أن الآريين كانوا في أواخر تاريخهم المشترك رعاة متنقلين . أما في العصر المعدني فقد استخدموا الحصان لجبر العربات ، وهذا أعطاهم تفوقا على الحضارات الأخرى التي لم تكن تعرف بعد هذا الحيوان . كانت لغة الآريين السنسكريتية وتعني «النظيفة» أو «الصالبة» ، وهي إحدى اللغات الهندو أوروبية .

عصر الفيدا :

عاش الآريون في الهند في مجموعات قبلية منفصلة وزرعوا الحبوب وربوا الخيول والابقار . وكانت تحدث منازعات بين القبائل في مناطق الرعي الحدودية ، والتي نقلت أولا شفويا ثم كتابيا . وتسمى الفترة ما بين ١٥٠٠ - ١٠٠٠ ق م عصر الفيدا وذلك لأن مصدر تاريخ هذه الفترة هو مجموعة من الأغاني الهندية القديمة والاقوال المأثورة التي تدعى الفيدا Veda ، والمكتوبة باللغة السنسكريتية . وتعني كلمة فيدا « معرفة » والمقصود بذلك المعرفة التي تمكن الإنسان من كسب رضا الإله . وتنقسم الفيدا الى ثلاثة أنواع هي :

١ - الريغفيدا Rigveda أو فيدا الاناشيد *

٢ - السامافيدا Samaveda وهي فيدا النغمات والتراتيل الدينية التي
تنشد عند شرب شراب السوما المقدس *

٣ - الياجورفيدا Yajurveda : وهي فيدا القرابين *

تتضمن الفيدا ، بالإضافة الى المعلومات الدينية ، معلومات اقتصادية
 واجتماعية أيضا عن الآريين في الهند في الفترة المذكورة . فتعطي الريغفيدا مثلا
 صورة تقريبية عن حياة القبيلة . فقد كان زعيم القبيلة القائد الحربي الاعلى المنتخب
 من قبل القبيلة . ويلي في المركز الثاني الكهنة الذين كانوا يمارسون طقوس
 العبادات الالهية . بالإضافة الى ذلك كان هناك التجار والرعاة والفلاحون في القبيلة .
 كانت الديانة تقوم على عبادة قوى الطبيعة ممثلة بعدد كبير من الالهة مثل : فارونا
 Varuna آلهة القمر ، سوريا Surya آلهة الشمس ، اندار Indra الهة العواصف ،
 أغني Agni إله النار الذي يرمز الى الشمس في السماء والى النار المقدسة على
 الارض *

مارس الآريون في عصر الفيدا الزراعية ورعي المواشي وكانت غالبية السكان
 من الفلاحين . وازدهرت الصناعات اليدوية في المدن حيث كان الحرفيون منظمين
 في نقابات خاصة بهم . كذلك ازدهرت التجارة ، سواء البرية أو البحرية ، وكانت
 السفن تسافر الى شبه الجزيرة العربية محملة بالتوابل والقطن والحرير والاحجار
 الكريمة . ومما تجدر الاشارة اليه أن التجارة في هذه الفترة كانت تقوم على مبدأ
 المقايضة *

تبين الفيدا أن المجتمع الهندي كان منقسما الى أربع طبقات هي :

١ - طبقة الكهنة أو البراهميون نسبة الى الاله براهما Brahma . وكان هؤلاء
 يحتكرون إنشاد الفيدا ويعتقدون أنهم أتوا من رأس الاله براهما أو من
 فمه . وكانت هذه الطبقة أعلى طبقات المجتمع *

٢ — طبقة المحاربين (كشاتريا Kshatriya) : ويعتقد أن أفرادها خلقوا من كتفي
الاله براهما ويديه .

٣ — طبقة الفلاحين والتجار وأصحاب الحرف (فائشيا Vaishya) : وجاء
أفرادها من فخذي براهما .

٤ — طبقة الخدم (شودرا Shudra) : وأنت من قدمي براهما وينحدر أفراد هذه
الطبقة من نسل سكان الهند الأصليين أي الدراويدين .

كان نظام الطبقات هذا مغلقا بحيث لا يمكن الانتقال من طبقة الى أخرى ، كما
أنه لا يجوز الزواج لأفراد من طبقتين مختلفتين .

بالإضافة الى هذه الطبقات ، كان هناك المنبوذون (پاريا Paria) الذين
لا ينسبون الى طبقة اجتماعية ، وهم غالبا من الدراويدين سكان البلاد الأصليين
الذين كانوا يقومون بالأعمال القذرة .

عصر البطولة والديانة البراهمية : (١٠٠٠-٥٠٠ ق.م)

مصادر تلخيص هذه الفترة ملحمتان هما المهابهاراتا Mahabharata أو قصة
أسرة بهاراتا ، والراماياتا Ramayana أو تاريخ رام . تتألف المهابهاراتا من مائة
وسبعة آلاف بيت شعر ، وهي بذلك أطول قصيدة في العالم . وتحدث عن حرب
كبيرة تدور بين فرعي قبيلة بهاراتا في منطقة دلهي الحالية . وتكمن أهميتها في أنها
تروي حكايات عن الملوك والحكماء الهنود القدامى . وينسب تأليفها الى حكيم يدعى
فياسا Vyassa ، الذي ربما كان شخصا أسطوريا .

أما ملحمة الراماياتا فتشبه أوديسة هوميروس وتصف مالاقاء أحد الأبطال من
صعاب ومخاطر خلال أسفاره وانتظار زوجته له حتى يعود . وتنسب هذه الملحمة
الى رجل اسمه فالميكي Valmiki .

ولكن يبدو أن الملحنتين كانتا من تأليف عدد من الشعراء والمنشدين من فروع مختلفة . وقد كتبتا كالتقيد باللغة السنسكريتية .

يتضح من هاتين الملحنتين أن الهند في هذه الفترة أي في عصر البطولة كانت تتألف من عدد من الممالك الصغيرة التي يحارب بعضها بعضا ، وإن المدن كانت تحاط بالأسوار للدفاع عنها .

ساد في عصر البطولة ثلاث الهى مؤلف من براهما الخالق سيد الآلهة ، وشيفا Shiva المهلك اله القسوة والتدمير ، وفيشنو Vishnu الحافظ اله الحب .

إن « المعارف السرية » التي هي كتابات دينية صوفية دونت لأول مرة بين ٦٠٠ - ٣٠٠ ق.م ، وتقول ببدا التخص أي ميلاد الانسان مرات متعددة في شكل راقٍ أو منحط من الحياة بناء على أعماله السابقة .

البوذية والجانية :

كانت الغالبية العظمى من الآريين من أتباع الديانة المبراهمية ، التي كان كهنتها يتمتعون بقوة وثقود كبيرين . كذلك فإن طقوسها تعقدت ، وكان الناس يجهلون اللغة السنسكريتية لغة الكتب المقدسة . وهذا جعل الكهنة يفعلون ما يحلو لهم . ومع الزمن أصبح نظام الطبقات الذي كانت الديانة المبراهمية تقول به غير مقبول . يضاف الى ذلك ان بعضهم وجد عقيدة البراهما الدينية تترك أسئلة اخلاقية وفلسفية كبيرة بغير جواب . كل هذه الاسباب أدت الى الثورة على الديانة المبراهمية على أيدي شخصين من طبقة المحاربين هما سيد هارتا جاوتاما Siddharth Gautama ومهافيرا Mahavira .

كان سيد هارتا جاوتاما (٥٦٠ - ٤٨٦ ق.م) ابناً لاحد امراء شمال الهند . وقد كره مظاهر البؤس والفقر وترك حياة النعيم والبذخ في القصور وراح يبحث عن الحقيقة والنور . لقد بحث سيد هارتا جاوتاما عن أسباب الام الانسان فوجد أنها

تكمُن في المطالبة الذاتية بأشياء كثيرة بدءاً من الغنى وانتهاء بالخلود . لذلك أعلن
ان الانسان يستطيع أن يجد الخلاص بنيل الشهوات والرغبات ، واذا استطاع تجاوز
الغرور والمعاناة فإنه يستطيع أن يصل الى النيرفانا Nirvana ، بمعنى انه لا يعود
يولد مرة أخرى ، وهذه أعلى درجات السعادة .

ويمكن الوصول الى النيرفانا بصفاء الفكر والقول والعمل الصالح وتجنب
السرقه والقتل والزنى والكذب والطمع وما الى ذلك من الصفات السيئة . بهذا
الدين الجديد البسيط الذي لا يطلب ايمانا بآلهة غير مرئية وبطقوس وعبادات
ولا يؤمن بوحدات اجتماعية جامدة وثابتة كسب سيدهارتا جاوتاما أتباعا متعددين
أطلقوا عليه اسم بوذا Buddha أي « المستير » أو الذي اهتدى . وسمي الدين
الجديد الذي جاء به البوذية .

كانت البوذية ليبرالية منذ البداية ودفعت البشر الى النظر الى العالم بعيون
فاحصة لمعرفة على حقيقته .

قاوم البراهميون الدين الجديد الذي هدد بمبادئه البسيطة قوتهم وثقوتهم
وتعاليمهم الدينية ، فصاغوا نظام الطبقات الاجتماعية الموجود لديهم بشكل أشد .
ولكن على الرغم من ذلك انتشرت البوذية وكثر عدد أتباعها .

أما الشويزة الثانية على البراهمية فجاءت على يد شخص يدعى مهاقيرا
Mahavira (٥٥٠ - ٤٤٧ ق م) الذي كان أميراً لكنه ترك امارته وراح يعيش
حياة تقشف وزهد لتطهير نفسه من الادران وتفهم أسرار الوجود . وبعد أن عاش
على هذا النحو قرابة ثلاثة عشر عاماً أطلقت عليه جماعة من أتباعه لقب « جنا »
Jina أي الغالب أو الفاتح . لذلك سميت طائفته الجاينية وأتباعه الجاينيين .

أقام مهاقيرا نظاماً للرهبنة قوامه رجال ونساء عليهم أن يبتعدوا عن زواج .

أنكرت الجاينية ، مثلها مثل البوذية ، سلطة القيدا والكهنة البراهميين

واهتمت بالأخلاق والسلوك القويم ولم تعد اهتماما للطقوس والشعائر الدينية • وقد خاطبت كالبودية الشعب بلغته التي يتكلمها والمسماة براكريت Prakrit وليس بالسسكريت لغة الكهنة البراهمين ، وكان هذا من الأسباب التي ساعدت على انتشارها •

تختلف الجاينية عن البوذية بتشجيع الزهد وامانة النفس بينما تفضل البوذية الاعتدال في ذلك •

انتشرت الجاينية في الهند فقط بينما شقت البوذية طرقها الى بلدان متعددة في اسية كالصين وكوريا وغيرها على أيدي مبشرين ، وكان لها أثر كبير في نشر المدنية في بلاد الشرق الأقصى •

أله مهافيرا وبوذا بعد موتها من قبل أتباعهما • وجمعت تعاليم بوذا وأقواله بعد وفاته من قبل خمسمائة راهب من أتباعه في ثلاثة كتب مقدسة هي : نظام الرهبنة أو الطريقة البوذية - أقوال المعلم - القضايا الفلسفية •

على الرغم من ظهور البوذية والجاينية وانتشارهما بشكل كبير فان الديانة البراهمية لم تتلاش وبقي لها الكثير من الاتباع ، بخاصة في المناطق الريفية •

امبراطورية موريا Maurya الكبرى في الهند :

كانت الهند في القرن السادس قبل الميلاد ، أي في القرن الذي ظهر فيه بوذا ، مؤلفة من عدد من الممالك أهمها مملكة مغادا Magadha التي حكمتها سلالة من ٦٥٠ - ٤٥٩ ق.م ، ثم تسعة من المغتصبين حتى عام ٣٣٥ ق.م • استطاع الاسكندر المقدوني عام ٣٣٧ ق.م احتلال شمال غرب الهند وتاكسيلا Taxila عاصمة البنجاب التي كانت فيها جامعة تدرس القيدا والطب والقانون • ثم التقى الملك الهندي بوروس Porus في إحدى المعارك وهزمه • فيما بعد عقد صلح بينهما ونصب الاسكندر بوروس ملكا على الهند المفتوحة كتابع له • ولكن الحكم المقدوني زال

بعد ذلك بسبعة أعوام بفضل النضال ضد المحتلين بزعامة شخص يدعى تشاندراجوبتا موريا Tshandragupta Maurya الذي كان ينتمي الى طبقة المحاربين .

كان تشاندراجوبتا (٣٣١ - ٢٩٧ ق م) حاكما لاحدى الدول الصغيرة في شمال الهند ، ثم قام بفتح كل شمال الهند شرق دلتا الغانج ، وأفغانستان ، وأنشأ بذلك أول امبراطورية هندية كبيرة (نحو ٣٠٠ ق م) حكمتها سلالة الموريا حتى عام ١٨٠ ق م .

أدار تشاندراجوبتا امبراطوريته الكبرى بمساعدة مستشارين وموظفين وقام بإنشاء شبكة من الطرقات ، وبناء عدد كبير من المنشآت المائية كالسدود والخزانات والآبار . فكسب بذلك رضا الفلاحين . وازدهرت التجارة وساد الرخاء في كل شمال الهند .

بلغت امبراطورية موريا الكبرى ذروة قوتها وازدهارها على عهد خفيد تشاندراجوبتا ، أشوكا Ashoka (٢٧٤ - ٢٣٢ ق م) حيث أصبحت تشمل كل الهند ما عدا أقصى الجزء الجنوبي منها .

اشتهر أشوكا ليس فقط كحاكم لامبراطورية قوية ولكن أيضا كمشرع قانوني . واعتنق البوذية لكنه لم يجبر رعاياه من اتباع الديانة البراهمية على اعتناقها . غير أنه أيقظ فيهم الشعور بالولاء للامبراطورية ودعا الى مبدأ الدارما Dharma (شريعة الدين) الذي كان يقوم على الصدق والتسامح مقابل كل المعتقدات الدينية ، واحترام كل حي واجلال الوالدين . وقد أصدر أشوكا مبادئ المحبة والصدق والتسامح الديني هذه على شكل مراسيم نُقشت على صخور وأعمدة حجرية في كل أنحاء الامبراطورية . وقد كتبت بعبارة بسيطة وباللغات التي يفهمها الناس .

اهتم أشوكا بالديانة البوذية فبنى لها المعابد وبعث مبشرين الى أجزاء الهند المختلفة والى سيلان (سريلانكا) وبورما وسيام التي أصبحت بوذية نتيجة لذلك .

وأرسلت بعد وفاته بعثات تبشيرية الى الصين والتبت ومنغوليا لنشر الديانة
البوذية في تلك الاصقاع .

كان أشوكا يهدف من وراء مراسيمه التي أصدرها تحقيق الوحدة
الدينية للبلاد . لكن ذلك لم يتحقق . بل حدث اتساع للهوة الاجتماعية
والدينية القديمة القائمة بين البراهميين والبوذيين . ونتيجة للانتشار السريع للبوذية
خاف الكهنة البراهميون من أتباع الناس للبوذية وبالتالي فقد انهم سلطتهم ونفوذهم .
وكانوا مصممين على الاحتفاظ بالقيادة الدينية . لذلك حددوا أسماء آلهتهم وأبرزوا
الآلهة التي اتحدت فيها عناصر الآلهة الآرية والآلهة الدرافيدية سكان الهند
الأصليين ، وشكلوا بذلك الاعتقاد أو الدين الذي عرف فيما بعد بالهندوسية
(دين الهند) . بذلك انتهى العصر الآري في الهند وبدأ عصر الحضارة الهندوسية .
تزامن نشوء الهندوسية تقريبا مع زوال الامبراطورية الكبرى الاولى في الهند أي
امبراطورية الموريا .

شهدت الهند على عهد أشوكا ازدهارا كبيرا حيث كانت الطرق التجارية البرية
والبحرية تربط بينها وبين بلدان الشرق الأدنى وأوروبا كانت التجارة منظمة وتخضع
لنظام ضريبي معين ، وكانت تشاهد في أسواق العاصمة باتالي يوترا Pataliputra
(حاليا باتنا) منتجات من جنوب الهند ومن أواسط آسيا ومن بورما والصين .

هذا وقد انتشر التعليم على عهد أشوكا بفضل المعابد البوذية ، ويقال إن
الامية كانت منتشرة في الهند على عهد الانكليز بشكل أكبر من انتشارها على عهد
أشوكا .

بعد موت أشوكا تداعت الادارة والحكومة المركزية ، وقام أحد القادة
العسكريين المتمردين بملقضاء على آخر حاكم من سلالة الموريا عام ١٨٠ ق م . أعقب
ذلك نحو خمسمائة عام من التمزق السياسي . ولكن على الرغم من ذلك استمر
التقدم الاقتصادي والحضاري . فازدهرت التجارة بين الشرق والغرب ، أولا على
الطريق البري الواصل بين شمال غرب الهند والمناطق الخاضعة للنفوذ الاغريقي في

الغرب ، ثم على الطريق البحري بين ممالك جنوب الهند والامبراطورية الرومانية .
وقد أدت زيادة الاعتماد على الملاحة الى تقدم علم الفلك عند الهنود . صدرت الهند
الى الغرب المنسوجات والتوابل وقطع الحلي والطواويس بينما أثر علم الفلك والفن
والمرحبة اليونانية وصناعة الفخار والزجاج الرومانية في الحضارة الهندية . وفي
القرن الاول قبل الميلاد حمل رهبان بوذيون من الممالك البوذية في شمال غرب الهند
منتجات وأفكار هندية وأوروبية حتى الصين .

علوم الهند القديمة :

عرفت الهند العلوم المختلفة كالطب والرياضيات والفلسك وغيرها . فالتب
والجراحة مورسا منذ القرن السادس قبل الميلاد . وكانت توجد في الهند منذ عهد
بوذا جامعتان هما جامعة كاسي Kasi أو بنارس في وادي الغانج ، وجامعة تاكسيلا
في وادي السند .

نحو ٣٠٠ ق م ظهر عالم النحو البراهمي بانيني الذي وضع قواعد اللغة
السنسكريتية . وظهر في القرن الاول الميلادي الطبيب شاراكا Sharaka ، وفي القرن
الخامس الميلادي الطبيب سوسروتا Susruta الذي كان يدرس في جامعة كاسي .
وقد اشتهر هذان الطبيبان وترجمت كتبهما في القرن الثامن الميلادي الى اللغة العربية ،
وعرفهما فيما بعد العالم اللاتيني .

برع الهنود في الطب وعرفوا العمليات الجراحية في الجسد والعين . كما كانت
معروفة عند بعض مبادئ التشريح والفسولوجيا وأمراض النساء والاعطال .
وعرفوا أيضا التداوي بالأعشاب .

الهند في عهد سلالة الجوبتا : Gupta

عادت الوحدة من جديد الى الهند في القرن الرابع الميلادي وذلك بقيام سلالة
الجوبتا في منطقة شرق وادي الغانج والتي حكمت ما بين ٣٢٠ - ٥٣٥ م ، وأسست

الامبراطورية الهندية الكبرى الثانية • توصل الامبراطور تشاندرا جوبتا الاول
 Ashandragupta I. مؤسس سلالة الجوبتا عام ٣٢٠ م عبر فتوحات عسكرية الى
 أن يخضع لسيطرته جزءا كبيرا من سهول الغانج الخصبة في شمال شرقي الهند •
 وخلفه في الحكم ابنه سامودرا جوبتا Samudragupta الذي حكم نحو خمسين
 عاما • وبسبب حروبه وفتوحاته لقب حديثا « نابليون الهند » حيث وسع رقعة
 مملكته في شمال الهند وجنوبها • واهتم بالأدب والعلوم والفنون وكان نفسه شاعرا
 وموسيقيًا •

على الرغم من أن سلالة الجوبتا سادت أراض واسعة فانها لم تحكمها بشكل
 مباشر وإنما بمساعدة ضباط امبراطوريين ففوق أمراء كانوا يسمون سامانتاز
 Samantas ، وكان عليهم توفير جزء من الضرائب الى الامبراطور •

باستعمال بلطات ومجازيث حديدية قطع الهنود مساحات واسعة من الغابات
 في سهل الغانج وبمحاذاة المجاري النهرية في هضبة الدكن وزرعوها • قادت الزراعة
 المزدهرة في عهد أباطرة سلالة الجوبتا الى تجارة واسعة ونمت بسرعة المدن التي
 عاش فيها التجار والحرفيون •

ويمكن قياس كبر المدن بالاعتماد على أبعاد عاصمة سلالة الجوبتا باثالي بوترا
 التي كانت محاطة بسور فيه أربعة وستون بوابة وخمسمائة ومبعمون برج حراسة
 وتمتد بعرض ٣ كم وطول ١٤ كم على شاطئ نهر الغانج • ونتيجة للازدهار
 الاقتصادي في عصر الجوبتا كانت مدن الهند تنتمي الى مجموعة أكبر مدن العالم في
 ذلك الوقت • هذا الازدهار اكده مشاهدات الراهب الصيني البوذي فاهايان
 Fa - hian الذي أقام في الهند بين ٤٠٥ - ٤١١ م • ووجد وسط الهند وشمالها
 منطقة فيها مدن كثيرة وأديرة بوذية كبيرة وطرق تستعمل بكثرة وتوجد عليها
 محطات لاستراحة المسافرين • وحيثما ذهب وجد فاهايان حكومة عادلة وتسامحا
 دينيا • في ظل هذا الحكم والتسامح شهدت الحضارة الهندية عصرها الذهبي الذي
 سمي عصر النهضة الهندية وذلك لازدهار العلم والأدب والفن • وظهر شعراء كتبوا

قصائد اسطورية مقفاة باللغة السنسكريتية . وظهر في القرن الخامس الميلادي الشاعر كاليداسا Kalidasa الذي لُقّب بشكسبير الهند، وكتب الروايات المسرحية والتي أشهرها الساكونتالا Sakuntala وهي دراما عشق ذات نهاية سعيدة . وكانت له أيضا أشعار غنائية ، منها شعر « رسول الغيوم » الذي يرسل فيها رجلا بنفي رسالة مع الغيوم الى زوجته في منطقة الهيمالايا .

وظهر في هذه الفترة أيضا الشعر الفلسفي المعروف بأغنية الحرب ، وهو من المؤلفات الدينية المشهورة المكتوبة بالسنسكريتية . ووضعت في عصر الجوبتا المجموعة القانونية التي تسمى Manava Dharma sastra التي تحدد حقوق طبقات المجتمع الاربع وواجباتها التي تذكرها القيدا .

وأحرزت الفنون والعلوم المختلفة تقدما كبيرا في عصر الجوبتا . وحفرت معابد كبيرة في الصخور العالية وزينت جدرانها بمشاهد جميلة من حياة بوذا والآلهة الهندوسية . بالنسبة للفلك فقد أحرز تقدما ومن أعلامه في هذه الفترة الفلكي أريابهاتا Aryabhata (ولد عام ٤٧٦ م) الذي قال أن العالم يدور حول نفسه ويدور حول الشمس . كان أريابهاتا رياضيا أيضا كتب في الجبر والفائدة والكسور واليجذر المربع وغيره .

أما الرياضي براهما جوبتا Brahmagupta (ولد عام ٥٩٨ م) فقد توصل الى احراز تقدم كبير في الجبر وحساب المثلثات . وأدخل رياضيون هنود النظام العشري في الحساب نحو عام ٦٠٠ م .

أما الاكتشافات في مجال العلوم الطبيعية فقد أثارت فلسفات هندية جديدة . وهكذا قادت المعرفة التشرحية المعمقة الى تطور اليوغا Yoga (التكيف) . ويبحث اليوغي Yogi (المتكيف) ، عبر تحكم تدريجي بجسده ، عن نفسه ليحررها بحيث تستطيع أن تلعب في نفس العالم (النفس الكلية) .

ونشأت فلسفة أخرى اسمها ويدانتا Wedanta وتقول أن الانسان يستطيع فقط عن طريقها معرفة العالم الروحي الحقيقي .

انهارت سلالة الجوبتا في بداية القرن السادس الميلادي أمام زحف قبائل الهون البدوية التي قدمت من الشمال الغربي . ولكن ملوك الهند استطاعوا طرد هؤلاء المحتلين في القرن ثسه . وانتقل مركز الحكم بعد زوال سلالة الجوبتا الى وادي الغانج الاوسط حيث حكم هناك أمير يدعى هارشا Harsha (٦٠٦ - ٦٤٨ م) الذي أخضع شمال الهند لسلطته .

من المصادر المكتوبة التي تتحدث عن هذه الفترة ملحمة شعرية لشاعر اسمه بانا Bana وما كتبه زاهد صيني بوذي اسمه هيون تسانغ Hien Tsang الذي زار الهند في هذه الفترة وقضى فيها خمسة عشر عاما . يتحدث هيون تسانغ عن جامعة فالاندا Nalanda في شرق الغانج ويذكر أن عدد الطلاب فيها كان يصل الى عشرة آلاف طالب .

ازدهرت الهند خلال حكم هارشا الذي كان أدبيا أيضا وألف المسرحيات وأشهرها « عقد اللؤلؤ » .

كانت المنافسة حادة بين البوذية والبراهمية في عهد هارشا ، وبعد وفاته أخذت البوذية تضعف وانتهى الامر بسيطرة البراهمية ، بينما انتشرت البوذية في بلدان الشرق الأقصى .

حضارة الراجبوت وانتشار البوذية والبراهمية خارج الهند :

بعد وفاة هارشا عام ٦٤٨ م عمت الفوضى والانقسام أرجاء الهند . واستمر ذلك حتى بداية القرن التاسع حيث خضعت الهند لحكم الراجبوت Rajput (أبناء الملوك) الذين سكنوا أولا في منطقة شرق السند ثم انتشروا في كل أنحاء الهند . وهم طائفة من الامراء المقاتلين الذين انحدرت من نبلآ آريين ومن أصول

• مختلفة ، ودان معظمهم بالهندوسية والبراهمية . وقد حكموا الهند حتى القرن الثاني عشر الميلادي عندما دخل المسلمون إليها .

• بنيت في عهد الراجبوت معابد كثيرة في وسط الهند وفي جنوب البنغال .
• وازدهر الادب وبخاصة المسرحية ، وبدأت اللهجات الهندية تنفصل عن اللغة العامية المعروفة بالبراكريت ، وظهرت اللهجة المعروفة حالياً بالهندو Hindu .

• رأينا سابقاً كيف حاول الامبراطور أشوكا في القرن الثالث قبل الميلاد نشر البوذية في بقاع الشرق الاقصى المختلفة وذلك بإرسال مبشرين الى تلك البلاد .
• ولكن البوذية انتشرت في الصين بشكل كبير في القرن الاول الميلادي ، وانتقلت منها الى كوريا في القرن الرابع الميلادي ، وانتقلت من كوريا الى اليابان بدءاً من القرن السادس الميلادي .

• كذلك نشرت البراهمية خارج الهند في الجزر القريبة كسومطرة وجاوة وكبوتشيا . وبدءاً من القرن الثامن أخذت الديانة الهندوسية بالانتشار على حساب البوذية .

الاسلام في الهند :

• تأثرت الحضارة الهندية لمدة أكثر من ألف سنة بالبوذية والهندوسية ، وهما ديانتان نشأتا وتطورتا في الهند . حتى عام ١٠٠٠ م عندما انتشرت الهندوسية على البوذية بدأ وكأنها ستشمل كامل شبه القارة الهندية بنظام ديني موحد وكبير .
• ولكن في هذا الوقت بدأ الاسلام بالدخول الى الهند من الشمال والشمال الغربي .
• وقد حدثت الغزوات الاسلامية قبل هذا التاريخ ، ولكن التدفق الرئيس حصل في القرن الحادي عشر وشمل جماعات عربية وتركية وأفغانية . كانت هجمات هؤلاء في البداية غزوات بقصد الغنائم تجذبهم كنوز شمال الهند من الذهب والاحجار الكريمة . ولما تستطع المنطقة المقاومة بسبب التمزق السياسي الذي كان سائداً .
• وفي عام ١٣٤٠ شملت مملكة اسلامية تحت حكم السلطان التركي محمد تغلوك

Tughluk (١٣٢٥ - ١٣٥١) كامل الهند تقريبا باستثناء المنطقة الجنوبية الساحلية .
انهارت قوة توغلوك بشكل سريع امام هجمات تيمورلنك . وأسس بابر ، أحد
خلفاء تيمورلنك ، عام ١٥٢٦ آخر سلالة حاكمة كبيرة في الهند هي السلالة المغولية .

شملت مملكة المغول الاسلامية مناطق واسعة من الهند لمدة تزيد على قرنين .
وحقق الحكام المغول الكبار في القرن السابع عشر السيطرة على كل الهند باستثناء
طرفها الجنوبي وذلك عن طريق فتوحات متعددة .

في القرن الثامن عشر ضعفت قوة المغول وهاجمهم الانكليز باستمرار . وبدءاً
من هذا التاريخ دخلت الهند فترة الاستعمار الاوروبي . تركت ثمانية القرون من
الحكم الاسلامي في الهند تأثيرها الكبير في الثقافة الهندية . في المجال
الديني حدثت صراعات دينية بين المسلمين والهندوس . كان المسلمون
لا يؤمنون بنظام الطبقات الاجتماعية لذلك كانوا في نظر الهندوس برابرة أنجاسا .
واحتقر المسلمون الهندوس كونهم يعبدون الاصنام . وقد حاول مصلحون
مسلمون وهندوس في القرن الخامس عشر تجاوز التناقضات الموجودة بين ديارتيهما
من خلال تكوين جديد لمعتقداتهم . وهكذا نبذ الهندوس ناناك Nanak (١٤٦٩ -
١٥٣٨ م) نظام الطبقات وربط الايمان بالكثير من الالهة الهندوسية بايمان المسلمين
باله واحد . ويعد ناناك مؤسس طائفة السيخ (Sikh) (التلاميذ) التي تعد اليوم
كثيراً من الاتباع في البنجاب وشمال الهند . ولكن لم تستطع هذه المحاولات
الاصلاحية تحقيق الوحدة الدينية بين الهندوس والمسلمين .

أما في المجال الحضاري فقد حدث تزاوج خصب بين الحضارة العربية الاسلامية
والحضارة الهندية . كلغة جديدة تطورت الاوردو Urdu (لغة المعسكر) المؤلفة
من كلمات عربية وفارسية وقواعد شبيهة بقواعد اللغة الهندية (الهندية لغة
هندو اوروبية مشتقة من السنسكريتية) . ودخلت أشكال جديدة من الشعر ، وبخاصة
الشعر اعاطفي ، من بلاد فارس الى الهند . ونشر المسلمون آلات وترية جديدة .

أما في فن البناء فامتزجت الأساليب المختلفة مع بعضها • فقد جلب المسلمون معهم فن بناء الأقواس وزينوا الابنية المنيبة بزخرفات هندسية متعددة • ونشأت قصور وقلاع وأضرحة بديعة مثل ضريح تاج محل المشهور الذي بني بين ١٦٣٢ - ١٦٥٣ لزوجة أحد الحكام المغول • ووصل تغلغل الثقافات حتى الى عادات الحياة اليومية كاللبس والمأكل • وقد تأثر العرب المسلمون بالحضارة الهندية وأخذوا عنها الكثير بخاصة في مجال الرياضيات والجبر والفلك وغيره •



الفصل العاشر

الحضارة الصينية

الموقع الجغرافي للصين :

تقع الصين في الشرق الأقصى وتفصلها عن الهند في الغرب سلسلة جبال الهيمالايا ، بينما تحدها في الشمال منغوليا والاتحاد الروسي ، أما في الشرق فيقع بحر اليابان وفي الجنوب الهند الصينية .

إن أقدم المراكز الحضارية الصينية نشأت في الشمال في وديان نهري يانغ تسي كيانغ (النهر الأزرق) Yangtsekiang وهوانغ هو (النهر الأصفر) Hwangho اللذين يجريان من الغرب إلى الشرق .

تعدد المناخات في الصين فهناك المناخ البارد في الشمال والمناخ المداري في الجنوب والمعتدل على الشواطئ ، حول هونغ كونغ لذلك تنوع المزروعات والحيوانات .

السكان واللغة والكتابة :

ينتمي الصينيون إلى ما يسمى العرق الأصفر ويتميزون كاليابانيين والكوريين بقصر القامة والجهاجم والوجود المدورة والعيون اللوزية . كذلك فانهم صغار الأيدي والأقدام بشكل عام .

تتألف اللغة الصينية من كلمات وجمل قصيرة ذات مقطع واحد ولكن عدد الاصوات فيها قليل ؛ لذلك فإن المقطع الواحد يحتمل معاني متعددة . ويمكن التمييز بين هذه المعاني من خلال نطق المقطع (كمدة أو نطقه بسرعة) . واللغة الصينية لا تشبه اللغات الهندو أوروبية أو لغات سكان منغوليا ومنشوريا على الرغم من الصلات القديمة ما بين الصين وهذه المناطق . أما الكتابة الصينية فهي كتابة مقطعية تتألف من آلاف الرموز ولم تتطور هذه الكتابة الى مرحلة الأبجدية . وكان الصينيون يعتقدون أنها من أصل الهي . وتحوي نحو أربعين ألف إشارة بينها نحو ٦٠٠ إشارة اسمية . وهذه الاشارات يعبر عنها في لغة الكلام بنحو ٧٠٠ صوت .

مراحل التاريخ الصيني :

قبل نحو أربعمئة ألف سنة عاش انسان بكين ما قبل التاريخي في الصين . وقامت في الصين في العصر الحجري الحديث حضارات متعددة مثل حضارة Yengshau ، Kansu (غرب هونان) ، Lung - shin وغيرها . وكان الانسان يعيش في هذه الفترة على الصيد والزراعة .

في ذلك الوقت لم تكن الحدود السياسية للصين قد نشأت بعد . كانت الصين مجالا طبيعيا يحده من الشرق المحيط الباسيفيكي ومن الشمال منغوليا الصحراوية الباردة وفي الغرب سلاسل جبال الهيمالايا ومن الجنوب أدغال وسلاسل جبال جنوب شرق آسية .

عاش نحو عام ١٥ ألف ق.م في هذه المنطقة الواسعة بدو منغوليون . وقد ساروا عبر الجبال والوديان والسهول الصينية وكان عليهم أن يتلاءموا مع ظروف الطقس المختلفة . نحو عام ٢٠٠ ق.م استقرت بعض القبائل المنغولية في مناطق خصبة . في الشمال زرعوا الحنطة وربوا الاغنام والابقار والخنازير والكلاب والخيول . وفي الجنوب طار الرطب زرعوا الرز واقتنوا الدواجن والجاموس .

حدث الانتقال من العصر الحجري الحديث الى العصر البرونزي في بدايات
الالف الثاني ق.م .

في عام ١٥٠٠ ق.م أسس تشن تان زعيم قبيلة شانغ - ين مملكة في شمال
شرق مقاطعة هونان في وادي نهر هوانغ هو عرفت باسم تلك القبيلة (شانغ-ين) وربما
عرفت هذه المملكة الادوات البرونزية والعربات التي تجرها الخيول والحظنة من
حضارات الشرق الادنى الاقدم منها .

كانت الزراعة تقوم في هذه الفترة على زراعة القمح والشعير والذرة وشجر
التوت الذي استمدت أوراقه لتغذية دود القز من أجل صنع الحرير . نشأت أولى
المدن الكبيرة في هذه الفترة مثل أنيانغ Anyang التي بنيت في عام ١٣٠٠ ق.م
كعاصمة لسلالة شانغ-ين (١٥٠٠ - ١٠٥٠ ق.م) عبر إخضاع القبائل المجاورة في
وادي هوانغ هو أقام ملوك سلالة شانغ-ين مملكة واسعة أصبحت فيما بعد قلب
الامبراطورية الصينية العالمية .

تبين كتابات صورية (بدايات الكتابة الصينية) على العظام أن ملوك سلالة
شانغ قسموا مملكتهم الى اقطاعات . هؤلاء الصينيون المبكرون كانوا أتباع
ديانة متعددة الالهة لها كتاب من الكهنة ويقدمون القرابين البشرية . كذلك كانت
هناك عبادة للاسلاف . فمكتشفات من أنيانغ تظهر أن النبلاء كانوا يحاربون في
عربات يجرها حصانان بينما العامة على الاقدام . من أسلحة سلالة شانغ القوس
والنشاب ورمح برونزية وبلطات قتال . كانت حياة الفلاحين ما تزال بدائية نسبياً .
كانت الادوات البرونزية قليلة وغالية . وكانت المحارث اليدوية ذات السكك
الحجرية ما تزال موضع الاستخدام .

قضت عام ١٠٥٠ قبيلة تشو Zhou على مملكة شانغ . هذه القبيلة البدوية
المنغولية دخلت من الشمال الغربي الى وادي هوانغ هو الخصيب ، وقد حارب
أفرادها في عربات حربية واستخدموا نوعاً من الاقواس كان غير معروف في ذلك
الوقت في الصين . حكمت سلالة تشو حتى منتصف القرن الثالث ق.م (٢٥٦ ق.م)

ويمكن ان نسمي هذه الفترة عصر الاقطاع حيث ضعفت السلطة المركزية واستأثر حكام المقاطعات الاقطاعيون بالسلطة وحكموا مستقلين في مقاطعاتهم التي تحولت الى امارات شملت تقريبا كل شمال الصين وأجزاء من وسط الصين وقد اشتهرت هذه الامارات في حروب دائمة مع بعضها وتحدثت (حولية الريس والخریف) لكونفوشيوس عن هذه الفترة وتورد أخبار مقاطعة لويين ما بين سنتي ٨٣٢ - ٤٧٩ ق.م ، وأخبار المقاطعات المجاورة لها .

على الرغم من التمزق السياسي والفوضى الداخلية المستمرة حققت الصين في عصر سلالة تشو تقدما اقتصاديا كبيرا . في عام ٥٠٠ ق.م تطورت في اإمارة تسي Tsi صناعة الحديد . ومارس رجال الصناعة الاوائل الانتاج الواسع في معاملهم من أدوات وأسلحة حديدية وذلك من خلال معرفتهم بسبك الحديد وصبه وذلك قبل أن يعرف تكنيك صب الحديد في أوروبا بـ ١٩٠٠ سنة .

وبوساطة بلطات حديدية استطاع الانسان بسرعة أن يقطع الغابات التي كانت تغطي أجزاء كبيرة من الصين . وأصبحت المحاريث التي تجرها الثيران تحرق بشكل أعمق في الارض من الادوات الحجرية . واتسعت نتيجة لذلك المساحات الزراعية وازداد انتاج المواد الغذائية وأصبح ملاك الاراضي الكبار أغنياء ، وحدث نمو في عدد السكان على الرغم من الحروب الدائمة والانتقسام السياسي ازدهرت الحضارة في هذا العصر المضطرب ظهر عدد من الفلاسفة الكبار الذين كانت نظرياتهم تهدف الى تحقيق السلام والاستقرار السياسي مثل كونفوشيوس وموتسي Moti وغيرهم .

المملكة الصينية الاولى :

ظهرت من فوضى عصر الاقطاع ، وبخاصة فوضى القرنين الرابع والثالث ق.م مملكة تسين Tsin القوية في شمال غرب الصين (نسبة الى القبيلة التي اسستها) . من هذا الاسم أخذت الصين اسمها الحالي . وقادت الخطط الطموحة لحكامها الى أول توحيد حقيقي للصين . الفى ملوك سلالة تسين المراكز الاقطاعية وانتعاشوا .

عن الحكام الإقطاعيين الذين كانوا يصلون إلى السلطة بالوراثة بموظفين منتخبين تبعاً لمقدراتهم . وقد جند هؤلاء العمال لحفر آقنية للري تمتد مئات الكيلو مترات . وأعطى الشمال الغربي غير الخصب من خلال مشاريع الري محاصيل وفيرة من القمح والشعير والذرة .

عندما امتدت قوة ملوك تسين اقتصادياً وسياسياً عبثوا الشعب لفتح أجزاء الصين الأخرى ، وقد تحقق ذلك عام ٢٢١ ق م . تمكن ملك تسين الحاكم في ذلك الوقت من توحيد الصين تحت سيطرته ولقب نفسه شي-هوانغ - تي - Chi-huang-ti أي « الامبراطور الأول » (٢٢١ - ٢٠٩ ق م) .

أقام الامبراطور الأول حكومة مركزية قوية وعين حكاماً على الأقاليم الثلاثين التي وجدها بدلاً عن الإقطاعيات القديمة . وبنى مقراً لإقامته هو سين يانغ Sienyang ووجد نظام النقد والكتابة والمقاييس والأوزان . وأصدر مجموعة قانونية صارمة وأوجد نظاماً إدارياً محكماً بقي قيد الاستعمال حتى عام ١٩١٢ . وينسب إليه أمر إحراق جميع الكتب التي كانت موجودة في الصين في زمنه . وهناك تفسيرات متعددة لهذا العمل . فمن قائل إنه كان عدواً للكونفوشيوسية وأراد محو آثارها بإحراق الكتب الموجودة كلها ، أو أنه أراد محو الآثار الأدبية واستبدال آثاراً جديدة بها لأنه كان يعتقد بفسادها .

بعد وفاة الامبراطور الأول قام العلماء بكتابة ما يتذكرونه من الكتب المحروقة بيد أن الكتب الجديدة لم تخل من التحريف والتزوير . لقد تمكن شي-هوانغ-تي من توحيد مناطق الصين المختلفة بفضل ما بناء من طرق وآقنية نهريّة وصلت البلاد بعضها ببعض كما أنه أقام الابنية الفخمة وضرب عملة نحاسية وأنشأ أسطولا وفتح بعض الجزر المجاورة .

إلى جانب توحيد الصين الداخلي قام الامبراطور الأول بإجراءات لصد أعداء الصين من القبائل البدوية في الشمال . فإليه يعود الفضل بالبداية لبناء السور العظيم ليحمي الحدود الشمالية للصين من هجمات القبائل المغولية . وقد سخر من أجل ذلك

ملايين العمال • وهكذا نشأ سور الصين العظيم الذي امتد عام ٢١٤ ق م ٢٥٠٠ كم عبر التلال والوديان وبلغ ارتفاعه بين ٦-١٠ م وله أبراج مربعة في مواقع مختلفة • ولكن يبدو أن السور الذي بناه هذا الامبراطور كان سورا تريايا اكملته أسرة هان • ووصف أحد المؤرخين الصينيين القدماء سور الصين بأنه كان دمارا لجيل واحد هو الجيل الذي بناه ولكنه كان منقذا لآلاف الاجيال ، التي أتت بعد ذلك واستمتعت بالحماية التي وفرها لها • وهكذا نرى أن شي-هوانغ-تي هو مؤسس الوحدة الصينية • وقد كان يحلو لماوسي تولع التشبه به •

حمى في الواقع سور الصين العظيم البلاد من الاخطار الخارجية القادمة من الشمال ولكنه لم يمنح الامان لاباطرة سلالة تسين التي كانت قصيرة العمر حيث انتهت عام ٢٠٦ ق م عندما سقط ابن الامبراطور الاول في تمرد ضد القوانين القاسية والضرائب الثقيلة المفروضة • على الرغم من أن حكم سلالة تسين كان قصيرا لكنها منحت الصين الشكل والاسم ، لذلك استطاع قائد التمرد ليوبانغ Liupang أن يوحد البلاد مرة أخرى واستطاعت سلالة ان تحكم نحو اربعمائة عام على الرغم من بعض الانقطاعات •

سلالة هان ٢٠٦ ق م - ٢٢٠ م :

أقوى أباطرة سلالة هان كان وو-تي wu-ti (١٤٠ - ٨٧ ق م) الذي خلق طبقة من الموظفين مكونة من عشرين ألف عضو يعينون حسب مقدراتهم وذلك من أجل تقوية الحكومة المركزية •

في ظل حكم الامبراطور وو-تي المنظم ازدهرت التجارة الداخلية وبخاصة تجارة الملح والحديد التي أصبحت تجارة تحتكرها الحكومة • ومول بوساطة الاموال الناتجة عن هذا الاحتكار الامبراطور وو-تي حروبه التوسعية • ففي الجنوب الشرقي قضت جيوشه على الممالك المنغولية القديمة في مقاطعتان كيانغسي Kiangsi و فوكين Pukien الحالية ، وفتحوا بذلك مناطق غنية أمام الهجرة الصينية • وفي الشمال الغربي انتصر على الهون وتوغلت جيوشه حتى آسيا الوسطى •

وتبع التجار الجيوش وأوجدوا طريق الحرير الكبير الذي مازال اليوم يربط الصين مع إيران • في الشرق تقدم مستوطنون صينيون إلى شمال كوريا وفي الجنوب إلى فيتنام •

تطلب اتساع الامبراطورية الصينية من الناحية الغربية تمديد السور العظيم من هذه الجهة ليؤمن الحماية لهذا الجزء الجديد من الامبراطورية • وفي القرن ١٥ م كسي السور بالاحجار •

اقتصب لفترة قصيرة (من ٩ - ٢٣ م) الوزير وانغ - مانغ Wang-Mang إعرش وأسس سلالة • ولكن الضرائب العالية التي فرضها والاجراءات الاخرى غير الشعبية قادت بسرعة الى تمرد خرج منه البيت الحاكم القديم منتصرا •

بعد ذلك استمرت سلالة هان في الحكم نحو مئتي عام • وفي عام ٢٢٠ م جبر جنرالات اقوياء الامبراطور الاخير على التنازل عن العرش •

أحرزت الصين في عهد سلالاتي تسين وهان تقدما حضاريا كبيرا • فالمساحات الزراعية الجديدة والاستخدام المتزايد للأسمدة رفع من انتاج المواد الغذائية وازداد عدد السكان وقدر عدد السكان في عام ٢ م بخمسين مليون نسمة • وازدهرت الحرف والصناعات الفنية في المدن الصغيرة المتعددة • كذلك فأن اختراعات ملفتة للنظر تمت مثل الساعة الشمسية والساعة المائية وصناعة الورق واستخدام قوة الماء لتشغيل منافخ الافران العالية • وجلبت شبكة الاقنية والطرق ووحدة النقد مع العملة النحاسية للصناعة والتجارة ازدهارا كبيرا •

الصين بعد سقوط سلالة هان ٢٢١-٥٨٩

دخلت الصين في عصر من التمزق السياسي بعد سقوط سلالة هان فانقسمت الى ممالك متعددة تتنازع فيما بينها باستمرار • كذلك تعرضت الصين لهجمات القبائل البدوية الشمالية من هون وأترك وأوارين Awaren ، وقد استطاع هؤلاء بفضل رماة نبالهم الفرسان أن ينتصروا على القوات الصينية بطيئة الحركة ومن ثم أسسوا

إمارات مستقلة في الشمال ، بينما كانت الصين في هذه الفترة تتعرض لهذه الغزوات كانت أوربة أيضا تتعرض للغزوات البربرية التي أطاحت بالامبراطورية الرومانية، في الربع الاخير من القرن الخامس الميلادي .

وحيث أن القبائل البدوية لم يكن لديها خبرة في تنظيم الدولة وإدارتها فانها استعانت بالموظفين الصينيين وطرقهم الادارية ، كذلك تصامرت هذه القبائل مع العائلات الصينية الهامة .

وتتج عن مثل هذه الاتصالات ظهور سلالة سوي Sui التي وحدت الصين بالقوة (٥٨١ - ٥٨٩) .

قامت سلالة سوي Sui باحتلال المقاطعات الجنوبية التي كانت قد بقيت في مأمن نسبيا من هجمات البدو من الشمال ، والتي اغتنت من وراء الزراعة والصناعة وتجارة ما وراء البحار قامت سلالة سوي بتحسين السور الكبير وذلك لحماية الامبراطورية ، عدا عن ذلك أجبرت هذه السلالة اكثر من ثلاثة ملايين انسان على حفر قناة للملاحة كانت تنقل عبرها المواد الغذائية من مناطق زراعة الرز الجنوبية الى الوحدات الصينية الكثيرة التي كانت تحرس الحدود الشمالية . قادت الضرائب الثقيلة وأعمال السخرة الى تمرد الشعب ضد حكام سلالة سوي . وقد ازدادت كراهية الشعب لهم بسبب حروبهم المكلفة التي لم تحسم ضد القبائل التركية في الشمال الغربي وضد كوريا في الشمال الشرقي . فقامت التمردات في كل انحاء البلاد وأدت الى سقوط سلالة سوي (٦١٧) ومجيء سلالة جديدة الى الحكم هي سلالة تانغ Tang .

الصين في عهد سلالة تانغ Tang (٦١٨ - ٩٠٧) :

كان أباطرة سلالة تانغ عازمين على خلق حكومة مركزية قوية ، فسحبوا من العائلات القيادية امكان ممارسة أي نفوذ سياسي ، وصمموا نظام فحص معقدا كأساس للترقية الى المناصب الحكومية العليا .

برهن نظام الادارة والدفاع والمالية والضرائب والقانون الذي وضعته سلالة تانغ على أنه ناجح حيث أنه بقي مستعملا فترة طويلة من الزمن وقلد في كوريا واليابان .

١ في ظل الامبراطور سوان - تسونغ Hsian-tsung (٧١٢ - ٧٥٦) أقامت سلالة التانغ أقوى امبراطورية في العالم في ذلك الحين والتي امتدت من بحر أرال في الغرب الى كوريا في الشرق والتييت في الجنوب .

في ذلك الوقت كان الازدهار الاقتصادي للصين مترافقا مع قوتها السياسية ، كانت العاصمة تشانغان Tchangan تعد مليون نسخة تقريبا .

مع مرور الزمن أصبحت أجزاء كبيرة من الشمال خالية من السكان بسبب هجمات البدو . ولكن الجنوب ازداد غناه بخاصة لان لاجئين من الشمال قطعوا مساحات من الغابات وجففوا المستنقعات وزرعوا الرز وقصب السكر والموز وعمرؤا المدن على ضفاف نهر يانغ تسي كيانغ .

لقد تم في عهد سلالة تانغ اختراعات واكتشافات متعددة مثل رسم الخرائط وزراعة الشاي وعربة اليد وطاقون الماء وعدة الساعة والبارود وحرق الفحم وطباعة الكتب . وقد أدى هذا الى ازدهار اقتصادي هام .

تطورت أيضا التجارة الخارجية بشكل كبير . في عام ٩٠٠ نقل صينيون النسيج الحريري والبورسلان الى جنوب شرق اسية واليابان وكوريا والهند والخليج العربي ، وجلبوا من بلاد مختلفة التوابل والاششاب والمعادن والادوية . وعبر طريق الحرير حدث تبادل خصب للبضائع والافكار الدينية والثقافية .

اتبع أباطرة سلالة تانغ سياسة تسامح دينية مع كل الديانات فأتى الى الصين رهبان بوذيون من الهند ومبشرون زرادشتيون ومانيون من ايران ومسيحيون نساطرة من سورية . ولكن البوذية ضربت جذورها أولا في الصين ثم سادت .

تأثر التفكير العلمي والفني الصيني ما بين ٢٠٠-٩٠٠م بالحضارة الهندية المتأثرة بدورها بمؤثرات يونانية • فعلم الفلك والرياضيات الهندي أخصب البحث الصيني والفنانون الصينيون كانوا يمثلون في تصاميمهم أواني فارسية وهندية ويونانية •

كان عصر سلالة تانغ بتأثيراته المتنوعة من الخارج عصر ازدهار للفنون في الصين مثل النحت وهندسة البناء ورسم الطبيعة والأشخاص وفن الحكاية والشعر الدرامي والشعر العاطفي والأمثال البوذية •

ولكن على الرغم من القوة والازدهار الذي تحقق في الصين في عهد سلالة تانغ فإن علائق الانهيار بدأت بالظهور • عام ٧٥١ طردت فرق إسلامية الصينيين من تركستان وآسية الوسطى • وتقدمت قبائل تيبيرية وبدوية باتجاه الحدود الغربية والشمالية للصين •

قادت التهديدات من الخارج إلى اضطرابات في الداخل • وتحول حاكم إحدى المقاطعات الشمالية الشرقية يجيشه الضخم (نحو مئاة ألف رجل كانوا على الحدود) ضد امبراطوره • وحدثت عام ٨٧٤ تمردات للفلاحين في كل مكان بسبب الضرائب الثقيلة •

وأخيرا انحلت الحكومة المركزية • وفي عام ٩٠٧ استولى قائد عسكري على الحكم وأنهم عهد سلالة تانغ وتمزقت الصين إلى عدد كبير من المقاطعات •

الصين في عهد سلالة سونغ (٩٦٠-١٢٧٩) :

استطاعت سلالة سونغ القضاء على التمزق والفوضى وأعادت توحيد الصين من جديد ولكن المنطقة التي وحدتها كانت أصغر بكثير من المناطق التي سيطرت عليها سلالة تانغ • ولكن عاشت الصين خلال ثلاثة القرون من حكم سلالة سونغ فترة ازدهار اقتصادي جديدة •

فقد ازداد إنتاج المواد الغذائية بشكل كبير نتيجة للمحارث المطورة والاسمدة واستثمار الاراضي والدورات الزراعية وادخال زراعة الحنطة سريعة النمو . ونتيجة لذلك ازداد عدد السكان ، حيث تضاعف عدد سكان جنوب الصين ثلاث مرات خلال ثلاثة قرون (حتى عام ١٢٠٠ م) . وتخصص بعض الفلاحين بزراعة مزروعات معينة مثل الخضروات أو بترية الخزائير أو الدواجن . وبسرعة أصبحت الاسواق صغيرة لتلبية حاجات سكان المدن الكبيرة المتزايد . سابقا كان لكل مدينة أسواقها التي ترأب من قبل موظفين حكوميين ، ولكن الآن توسعت المدن خارج حدودها وافتتحت محلات خاصة .

وأدت التجارة الى إغناء روابط التجار والحرفيين في المدن الذين كان الكثير منهم يعمل بإنتاج الحرير والبورسلان وتسويتهما .

وكانت هناك بنوك خاصة وشركات تمويل صفقات كبيرة بأوراق نقدية كانت تعطى كفروض مقابل فوائد . وكانت تجارة ماوراء البحار مربحة بشكل كبير . وبرزت كمدين غنية تشوان تشو Tchuantchou وكانتون Kanton ، أموي Amoy وكانت هذه المدن موانئ استقر بها تجار عرب وأجانب آخرون ، وكانت الصين تتصل عبرها بالشعوب التجارية الأخرى حتى بلاد الرافدين .

في عهد سلالة سونغ ازدهرت الطباعة حيث كانت الكتب تطبع بكثرة وتوزع وتشكلت طبقة مثقفة . في عام ١٢٠٠ نشأت الكثير من المدارس الخاصة والحكومية حيث ازداد الاهتمام بالتعليم الذي كان ضروريا للامتحانات الوظيفية الحكومية . وتطورت المدن في الجنوب الى مراكز للتعليم . واخترع أطباء صينيون لقاحا للجذري . قادت « الثورة التجارية » في الصين وشكل حكم أباطرة سلالة سونغ الى تغييرات في المجتمع الصيني . فالنبلاء القدماء فقدوا قوتهم وحكمت أغلبية الشعب التي كانت تتألف من فلاحين ، من قبل موظفين متعلمين ونبلاء الأرض .

ولكن على الرغم من كل هذا الازدهار والتقدم فقد قضى المغول في أواخر القرن الثالث عشر على سلالة سونغ .

المعتقدات الدينية :

عبد الصينيون الارواح المتعلقة بقوى الطبيعة كأرواح الارض والنهر والرياح، كما عبدوا الاجداد . ولكنهم لم يهتموا بإقامة قبور ضخمة لهؤلاء الاجداد كالمصريين . ويصف احد المؤرخين الفرق بين حضارة مصر وحضارة الصين بقوله « إن الصين ليست مقبرة كمصر ولكنها بيت كبير للاجداد » .

دخلت في القرن الاول الميلادي الديانة البوذية الى الصين من الهند وانتشرت بشكل كبير بين السكان . ولكن لم تدخل البوذية الصين بشكلها الاصلي وانما بشكلها المطور الذي دخله الكثير من التجديد . فالبوذية الصينية اهتمت بفكرة خلاص البشر وعيشهم حياتهم الثانية بخير وسعادة برئاسة بوذا .

ظهر في سنة ٥٢٠ رجل سمي نفسه البوذا الابيض وحاول أن يفتح الامبراطور الصيني بأن العقل والصفاء الروحي هما خير من العمل الصالح . ففضض الامبراطور ونفاه . ويقال إنه عندما ذهب الى المنفى قطع نهر يانغ تسي كيانغ وهو راكب على عود من القصب . وقد وجدت هذه الحادثة صدى في الادب والشعر الصيني وجيكت خرافات كثيرة حول هذا البوذا الجديد . كان البوذا الابيض يعلم الناس ان الانسان يجب أن يبحث عن بوذا في قلبه .

الفلسفة الصينية :

عرفت الصين فلسفات متعددة أشهرها الفلسفة الكونفوشيوسية نسبة الى كونفوشيوس مؤسسها . ينتسب كونفوشيوس الى اسرة عريقة وعاش بين القرنين السادس والخامس ق م (٥٥١ - ٤٧٩ ق م) . واسمه هذا هو بشكله اللاتيني أما بالصينية فهو كونغ-فوتزو Kung-Fu-Tzu أي كونغ للفيلسوف أو المعلم . وقد بدأ في الثانية والعشرين من عمره بنشر تعاليمه فالتف حوله عدد من الاتباع . وفي سن الثلاثين اشتهر كعالم . وقد عين لفترة من الزمن حاكما لاحدى المقاطعات ثم أصبح وزيرا . إن كونفوشيوس معلم قبل كل شيء يرى ان التعليم وسيلة لنشر

الأفكار - والآراء ، ومن أقواله : « التعليم الذي لا يكمله التفكير جهد ضائع والتفكير الذي لا يكمله التعليم خسارة كبرى » أي أن التفكير والتعليم متممان لبعضهما . أما في المجال الاجتماعي فإن أفكار كونفوشيوس هي أفكار تقليدية محافظة تميل إلى الإبقاء على النظم الاجتماعية السائدة والمحافظة عليها . لذلك أيديها الأوساط الأرستقراطية القبلية التي كانت تصل إلى السلطة عن طريق الوراثة .

كان كونفوشيوس يؤمن بتفوق العقل البشري ويرى أن الصداقة والحب مبادئ الحياة . ومن أقواله عامل الآخرين بما تريد أن يعاملوك به .

مع مرور الزمن كثرت انبعاث كونفوشيوس وانتشرت تعاليمه بسرعة . من المؤلفات التي تنسب إليه : كتاب التواريخ وحولية الربيع والخريف وكتاب التغييرات وكتاب الطقوس . وتعد هذه الكتب من أهم الآثار الكلاسيكية في الأدب الصيني . وقد جمع تلامذة كونفوشيوس تعاليمه بعد موته في كتب أهمها كتاب « المعلم الكبير » .

بعد موت كونفوشيوس بقرون ظهر فلاسفة منهم مو - تزو Mo-Tzu أي « المعلم مو » الذي كان يرى أن سعادة الإنسان تأتي عن طريق البساطة والمحبة وتجنب الحروب .

كذلك ظهر فيلسوف آخر انتشرت الكونفوشيوسية بفضل انتشاره كبيرا في الصين ألا وهو منسيوس Mencius (٣٧٢-٢٨٩ ق م) (بالصينية منغ - تسو) . وكان يعتقد أن الشعب هو أهم عناصر الدولة وأن إرادة السماء من إرادة الشعب . وكانت الحروب في نظره جريمة لا تغتفر .

بالإضافة إلى الكونفوشيوسية ظهرت أيضا في الصين الفلسفة الطاوية (كلمة Tao تعني الطريق) . ومؤسس هذه الفلسفة كما يعتقد رجل اسمه لاو - تزو Lao-Tzu أي المعلم أو الفيلسوف الكبير . وقد كان معاصرا الكونفوشيوس والتقى به . ويقوم مبدؤه على العزلة وعدم الاعتداد بالنفس . وقد ألف كتابا بين

فيه مبادئه وهو كتاب الطريقة والسلطة وهو أهم مصدر عن الطاوية . وتوجد نسخة منه من القرن السابع الميلادي محفوظة في المتحف البريطاني . أحب لاوتزو المتناقضات وكان يرى أن على الإنسان أن يكيف حياته حسب نظام الطبيعة لأن ذلك يؤدي إلى الخلود .

لقد تأثرت الطاوية في العصور المتأخرة بمؤثرات ثقافية خارجية فأصبحت تشبه الديانة الزرادشتية الفارسية ، حيث تبنت مبدأ الصراع بين قوتي الخير والشر في العالم . وظهر في القرون التالية فلاسفة آخرون آمنوا بالفلسفة الطاوية .

العلوم والآداب :

اهتم الصينيون بالعلوم والآداب والفنون وكانت لهم إنجازاتهم الهامة . ففي الكيمياء كتب واي-بو-يانغ Wei-Po-Yang عام ١٤٠ م كتابا في الكيمياء بعنوان « توحيد المبادئ الثلاثة » . وفي أوائل القرن الرابع ظهر كتاب عن الكيمياء نظريا وعمليا . في القرن الرابع أو الخامس عرف الصينيون الحبر الأسود وكانوا قد عرفوا قبل ذلك الحبر الأحمر . أما في الرياضيات فحصل تبادل في المعلومات بين الهند والصين أثناء رحلات الحجاج الصينيين البوذيين إلى الهند . وربما استطاع الصينيون حل المعادلات المجهولة . وتوجد كتب رياضية متعددة تبين تقدم الصينيين في مجال الرياضيات .

في مجال الطب أحرز الصينيون خطوات متقدمة . فاشتهر في القرن الثاني الميلادي طبيب لقب بـ « جالينوس الصين » وكتب كتابين عن الاطعمة وعن الحمى . وفي القرن الثالث أنتج طبيب جراح نوعا من المخدر . وفي القرن السابع كتب طبيب آخر كتابا عن امراض متعددة منها امراض العين والمجاري البولية . وظهر في القرون التالية أطباء كتبوا في الحمى والامراض النسائية والعقلية والطب البيطري والاعوية الدموية . ويبدو أن الصينيين كانوا يلتحقون ضد الجدري في القرن الحادي عشر . اهتم الصينيون أيضا بعلم الفلك وأوجدوا بعض الآلات الفلكية لمراقبة النجوم . إلى جانب العلوم اهتم الصينيون بالآداب وبعد عصر الاقطاع العصر الكلاسيكي في

الادب الصيني ، وقد قام كونفوشيوس بجمع الكثير من الكتب التي كتبت قبل عصر وشرحها ونشرها . ولكن مؤلفات عصر الاقطاع الهامة تقع في مجموعة تسمى « كتب كونفوشيوس » وهي « الكتب الكلاسيكية الخمسة » و « الكتب الاربعة » . ويقال ان كونفوشيوس نفسه جمع أول أربعة كتب من « الكتب الخمسة » وألف الكتاب الخامس ، بينما تنسب الكتب الاربعة الى اتباعه .

الكتب الخمسة هي : « كتاب التغيرات » وهو كتاب تنبؤات وتنجيم ، و « كتاب التاريخ » ، و « كتاب الشعر » ، و « كتاب المراسم أو القواعد المتعلقة بالسلوك » والكتاب الخامس هو « حولىة الربيع والخريف » . هناك كتاب آخرون أيضا كتبوا كتباً متعددة .

كذلك فقد عرف الصينيون الشعر الغنائي ولعل أقدم مجموعة شعرية صينية هي « كتاب الشعر » الذي جمعه كونفوشيوس من الاشعار القديمة . ازدهرت الحياة الشعرية نحو ٣٠٠ م ، كما نبغ عدد كبير من الشعراء خلال الفترة الاخيرة من حكم أسرة هان .

لقد تأثر الصينيون بحضارات الشعوب الاخرى كالهنود والفرس واليونان ، ويظهر التأثير اليوناني في مجال الفن والموسيقى والتقويم وعلم الفلك والكيمياء . وبالمقابل كان للحضارة الصينية تأثيرات في الحضارات الاخرى .

الانجازات الحضارية :

حقق الصينيون الكثير من الانجازات الحضارية التي انتقلت الى اوربا في أواخر العصور الوسطى عن طريق العرب ، وكان لها تأثير كبير في بدء عصر النهضة الاوربية في مطلع العصور الحديثة .

فقد اخترعوا البوصلة في القرن العاشر أو ربما قبل ذلك . وعرفوا البارود منذ القرن السابع حيث استخدم في الالاب النارية . ومنذ نهاية القرن العاشر

استعمل في الاسلحة الصينية • وقد عرف العالم الغربي البارود عن طريق غزوات المغول لاوربا في القرن الثالث عشر • اما الورق فقد اخترعه في عهد اسرة هان رجل يدعى تساي لون Tsailon عام ١٠٥ م وذلك كما يذكر فان يه Fanyeh في كتاب تاريخ اسرة هان الثانية • ويذكر هذا الكتاب ان المواد التي كانت تستخدم سابقا للكتابة هي الخيزران والحبر • وبما ان الحبر غالي الثمن والخيزران ثقيل صنع تساي لون الورق من قشر الشجر والقنب والاقمشة البالية • وقد نال هذا الاختراع تقدير الامبراطور وثناؤه •

وقد عرف العرب صناعة الورق عام ٧١٢ م بعد فتحهم سمرقند لكنهم لم يعيروه اهتماما اول الامر غير انهم أدركوا اهميته بعد فترة فتعلموا صناعته ونشروها في القسم الشرقي من دولتهم • ويعود الفضل الى الخليفة العباسي هارون الرشيد في إدخال استعمال الورق (أو الكاغد كما كان يسمى) في الدواوين • ثم شاع وانتشر فيما بعد كمادة للكتابة بدلا عن الجلود وغيرها من المواد التي كانت مستعملة •

وتأسس أول مصنع للورق في بغداد عام ٧٩٤ م حيث تركز انتاجه في محلة دار الفز • أما في مصر فاقيم اول مصنع فيها عام ٨٠٠ م ، وفي الاندلس عام ٩٥٠ م ، وكانت مدينة شاطبة مركز انتاجه ومنها كان يصدر الى أوروبا • وقد تعلمت أوروبا صناعة الورق من العرب عن طريق احتكاكها بهم في الاندلس وفي شمال افريقية وفي بلاد الشام أيام الحروب الصليبية • فاقيم اول مصنع لانتاج الورق في أوروبا في صقلية عام ١١٠٢ م ، وفي ايطاليا عام ١١٥٤ م ، وفي ألمانيا عام ١٢٢٨ م وفي انكلترا عام ١٣٠٩ •

وقد سهل اختراع الورق عملية الطباعة التي ظهرت في القرن السادس وذلك بوساطة اللوح الخشبية • وأدخلت تحسينات جمة على أدوات الطباعة منذ القرن الحادي عشر • وظهرت الكتب المصورة في الصين قبل ظهورها في البلدان الاخرى • ومن الاختراعات الاخرى التي أوجدها الصينيون الفرشاة في القرن الثالث قبل الميلاد الذي كان له أثر كبير في تطوير فن الرسم والكتابة الصينية • وفي القرن الرابع الميلادي أوجدوا عدادات لقياس المسافات • وفي القرن السابع عرفوا قضايا التحقق من الشخصية بوساطة بصمات الاصابع • كما استعملوا العملة الورقية في القرن الثاني عشر •

الحضارة اليابانية

شهدت اليابان خلال تاريخها تغيرات حضارية بطيئة وغزوات قليلة . لقد بين علماء الآثار من خلال حفرياتهم بأن مجموعات بشرية تدعى الإينو Ainu سكنت االيابان منذ العصر الحجري الحديث .

كان هؤلاء يعبدون الارواح والطبيعة وأسمى آلهتهم الشمس والنار . في القرون القليلة التي سبقت ميلاد المسيح وبمعه دخلت عناصر منغولية تسمى Yamato الطرق الجنوبي الغربي من اليابان عن طريق كوريا . وفي القرن العاشر الميلادي سيطرت هذه المجموعات البشرية على مختلف بقاع اليابان .

مع مرور الزمن (٢٠٠ ق.م - ٥٠٠ م) تشكلت الحضارة اليابانية ببطء وكانت تقوم على مبدأ الشينتو Shinto التي تعني طريق الالهة . وقد أثر تقدير قوى الطبيعة وعبادة الاجداد حتى في السياسة . فاعتقد اليابانيون ان اباطرتهم هم سلائل أما يتراسو Amaterasu الام الاولى لالهة الشمس .

كان الابطارة الاول امراء قبائل فقط . ولكن حتى القرن الخامس الميلادي احرزوا السيطرة على الجزء الاكبر من جنوب اليابان ووسعوا الامبراطورية حتى كوريا .

طرد عام ٦٤٣ اليابانيون من البر الاسيوي ولكنهم كانوا قد احتكوا بالثقافة الصينية . فقد تدفق الى اليابان من كوريا صينيون وكوريون تربوا على الطريقة الصينية ومنهم نساجون وحرفيو معادل وفخاريون وفلاحون ومربو دودة القهز . منتجو حرير . وقد ساعد هؤلاء الاقتصاد الياباني على الاتعاش .

دخلت عام ٤٠٥ الكتابة الصينية الى اليابان عن طريق كوريا وكتب بها اليابانيون لغتهم التي تشكل مع اللغة الكورية أسرة لغوية مستقلة . ودخلت الديانة البوذية من الصين الى اليابان وانتشرت فيها .

وحتى عام ٦٠٠ م بنى رهبان بوذيون أديرة متعددة وكسبوا الكثير من الاتباع . كذلك قام علماء يابانيون بوذيون بزيارة الصين وبذلك دخلت الحضارة الصينية مرة أخرى الى اليابان . أثرت إدارة سلالة تانغ في الصين تأثيرا كبيرا في الأباطرة اليابانيين . فقد شكلوا الدولة في القرن السابع حسب النموذج الصيني . كذلك تأثر رسامون ونحاتون وبنّاؤون يابانيون في فنونهم وهندستهم بالحضارة التي أنشأتها سلالة تانغ في الصين .

انهارت الدولة المشككة حسب النموذج الصيني عام ٨٥٨ م باستلام قبيلة فوجي وارا Fujiwara السلطة وتحويلها الامبراطور الى العوبة بيدها ، واستمر الصراع على السلطة بين القبائل والأباطرة حتى القرن الثاني عشر . وقد انهارت في هذا الصراع الحكومة المركزية . ووجد الشوجون (Shogun) القادة العسكريون الامبراطوريون (السلطة العسكرية والمدنية في أيديهم .

سادت من ١١٩٢ - ١٣٣٣ مرة أخرى حكومة مركزية في اليابان . وحكم الأباطرة اسما من مكان اقامتهم القديم كيوتو Kyoto ، ولكن مركز السلطة الحقيقي كان كماكورا Kamakura المقر الجديد للشوجون التي تقع الى الشرق من كيوتو ، وكانت مدينة الفن والمسرح والموسيقى ، لذلك عرف هذا العصر بعصر كماكورا .

عام ١٢٨١ تعرضت اليابان لغزو بحري كبير من قبل مغول الصين ، ولكن الطقس السيء ساعد اليابانيين على صد الجيش المغولي القوي الذي بلغ نحو مائة وخمسين ألف رجل . بيد ان تكاليف الدفاع هزت خزينة الدولة .

انتهى حكم الشوجون أو عصر الكماكورا عام ١٣٣٣ نتيجة اضطرابات اقتصادية

وحرب أهلية ، وسادت الاقطاعية والفوضى في اليابان لأكثر من مائتي سنة .
بعد ذلك بدأ عصر مزدهر في تاريخ اليابان ألا وهو عصر توكوجاوا Tokogawa
(١٦٠٠-١٨٦٨) الذي سمي بهذا الاسم نسبة الى قبيلة الشوجون توكوجاما يياسو
Ieyasu الذي أسس دولة مركزية . خلال عصر الشوجونات السلمي الجديد
ازدهرت المدن اليابانية وبخاصة إيدو Edo (فيما بعد طوكيو Tokyo) التي أسسها
ياسو كعاصمة ، ونغازاكي Nagasaki الميناء الياباني الوحيد لتجارة ما وراء
البحار .

في هذا العصر أصبحت النقود تستخدم كوسيلة للدفع بدلا عن الرز بشكل
متزايد . وأصبح التجار طبقة اجتماعية كبيرة وغنية ذات ثقافة عالية . وازدهرت
الثقافة . حيث صارت الكتب المصورة الممتازة تطبع ولاقى المسرح الشعبي وألعاب
الدمى عناية متزايدة . ونقل اليابانيون حضارتهم الى الخارج وبخاصة الى تايواند
واندونيسية وذلك عن طريق المستوطنات التجارية التي أقاموها هناك . وفي عام
١٨٦٨ حدث الانقلاب الدستوري الذي جعل اليابان دولة حديثة .

من خلال هذا العرض السريع للحضارة اليابانية يتبين لنا ان الحضارة
اليابانية نشأت بالاعتماد على مصدرين أساسيين هما المصدر المغولي والمصدر الصيني .
فاقدم درع مكتشف في اليابان والذي يعود تاريخه الى عام ٨٠٠م يظهر تشابها مع
الدروع التي وجدت في منطقة روسيا الوسطى والشرقية وهي المناطق التي كانت
تميش فيها مجموعات مغولية . كذلك فان العادات والتقاليد متشابهة بشكل كبير
بين المغوليين واليابانيين . أما المقومات الحضارية الراقية فقد أخذها اليابانيون من
الصين مباشرة أو عن طريق كوريا وأهمها الكتابة والديانة البوذية .

الفصل الحادي عشر

حضارة جنوب شرق آسية

تقع الى الشرق من الهند والجنوب من الصين شبه جزر وجزر جنوب شرق آسية ، وهي منطقة مدارية ذات جبال عالية تكسوها الغابات ، وأراض فيضية خصبة في الوديان . تشمل منطقة جنوب شرق آسية حاليا الدول التالية : بورما - لاوس - فيتنام - تايلاند - ماليزيا - اندونيسيا - الفلبين .

كانت منطقة جنوب شرق آسية خلال تاريخها القديم نقطة التقاء حضارات وعروق بشرية مختلفة مثل النيجريتو الصغار Negrito ، والميلانيزيون والشعوب المغولية المهاجرة من الشمال .

طُرد نحو ١٠٠٠ ق.م الفلاحون المغوليون ، والميلانيزيون معظم صيادي النيجريتو من السهول الحارة والرطبة في المنطقة . ومن المحتمل أنهم كانوا أول فلاحي العالم الذين زرعوا الرز وفول الصويا وروا الجاموس والخنزير والدواجن .

انتشر سكان جنوب شرق آسية في القرن الخامس الميلادي خارج حدود منطقتهم ، فاستوطن صيادون في أستراليا واستقر فلاحون في في جزر المحيط الهادي التي تعرف حاليا بجزر ميلانيزيا Melanesia وميكرونيزيا Mikronesia وبولينيزيا Polynesia . وحمل البولينيزيون مع مرور الزمن جوز الهند والخنازير والدواجن

من جنوب شرق آسية الى الجزر البعيدة مثل نيوزيلاندة التي تبعد نحو تسعة آلاف كيلو متر عن القارة الآسيوية .

كان الفلاحون البولنيزيون أرقى حضاريا من الصيادين في استراليا ولكنهم بقوا نحو ١٣٠٠ عام في مرحلة العصر الحجري .

نشأت في القرن الاول الميلادي حضارات في جنوب شرق آسية تطورت خلال الالف وخمسمائة التالية على أيدي الهنود ، المغول والصينيين والعرب . وتسم الاحتكاك أولا مع الهند التي وصلت اليها ، والى سريلانكا أعشاب وتوابل جنوب شرق آسية . وقد أدى تزايد طلب روما للتوابل في القرون الثلاثة الاولى الميلادية الى قيام تجارة نشطة مع جنوب شرق آسية كانت تسيطر عليها الهند . وبقيت هذه التجارة مزدهرة حتى بعد انهيار الامبراطورية الرومانية حيث كانت تصدر كميات كبيرة من التوابل من جنوب شرق آسية الى الامبراطورية البيزنطية وبلدان العالم الاسلامي بما فيه الوطن العربي ، والصين .

وحمل تجار هنود الى سومطرة وجاوة وبورنيو وتايلاند وكمبوتشيا وفيتنام بضائعهم من الفخار والمنسوجات . وحيث كانوا يذهبون كان يتبعهم رهبان براهميون وبوذيون لنشر ديانتهم .

حتى القرن السادس الميلادي طبع المستوطنون الهنود بلاد جنوب شرق آسية المتخلفة نسبيا بطابع حضارتهم . فسمى ملوك الخمير Khmers في كمبوتشيا أنفسهم بأسماء هندية واستخدموا اللغة الهندية السنسكريتية كلغة رسمية للدولة ، وبنوا دينهم القديم لصالح الهندوسية . ولكن مع ذلك بقي الكثير من تيارات الحضارات المحلية القديمة موجودا . وهكذا قدس الخمير ملوكهم وعدوهم آلهة ودفنهم في اراض مقدسة . وبنوا في القرن الثاني عشر الميلادي معبد أنغكور Angkor أكبر بناء ديني في العالم وهو ضريح للملك سوريفارمان الثاني Sūryavarman II الذي كان يستخدم أيضا كمعبد هندوسي .

تأبعت حضارات جنوب شرق آسية الاصلية ، والتي تأثرت بالحضارة الهندية ،
تطورها بعد عام ٦٠٠ م ونشأت ممالك قوية في بورما وكمبوتشيا وسومطرة وجاوة .
نحو عام ١٣٠٠ م دمر جيش مغولي غازي المملكة البورمية ، وهاجمت قوات مغولية
أخرى جاوة دون نجاح . في الوقت نفسه انسحب التاي Thai : وهم مجموعة
شعوب مغولية ، تحت ضغط المغول من الشمال نحو كمبوتشيا حيث قضوا على
مملكة الخمير القديمة وأسسوا تايلاند الحالية .

بالنسبة للصين فقد مارست تأثيرها الحضاري في جنوب شرق آسية منذ وقت
مبكر ، وكانت تستورد من هناك الاخشاب والاحجار الكريمة والتوابل والعاج ،
وتصدر بالمقابل الادوات المعدنية والمنسوجات ، وكان لها أحيانا نفوذ سياسي .

مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي كسب المسلمون السيطرة في عالم الجزر
بسرعة . وكان التجار العرب قبل ذلك في العصور الوسطى قد نجحوا في التجارة الهنود
الوسطاء في التجارة مع جزر التوابل وأصبح لهم نفوذ كبير في تلك المناطق . ونتيجة
لذلك دخل الاسلام الى تلك البقاع وأصبح حتى بداية القرن السادس عشر الدين
الرسمي في عشرين مملكة من ممالك جنوب شرق آسية .

دخلت بدءا من القرن السادس عشر منطقة جنوب شرق آسية في عصر جديد
هو عصر الاستعمار الاوروبي الذي امتد حتى القرن العشرين .

الفصل الثاني عشر

معالم حضارات أفريقية وشعوبها

معروف بشكل عام أن آسية وأوروبا كانتا مسرح الأحداث الكبرى في التاريخ الانساني . أما بالنسبة لأفريقية السوداء فقد كان كثير من الاوروبيين يعتقدون حتى تاريخ ليس بعيد أن الجزء الاكبر منها هو غابة موحشة وليس لها تاريخ هام . وكان الاعتقاد سائداً أن الافارقة لم يكتشفوا الكتابة ولم يعرفوا الدولاب وبناء الاقواس أو ينشوا مدناً ودولاً وحضارات . لهذه الاسباب كان الافارقة السود يمدون متوحشين . ولكن الاكتشافات المفاجأة في العقود الاخيرة من هذا القرن أدت الى بيان عدم صحة هذه الآراء . وأصبح معروف اليوم أن شعوب افريقية السوداء كان لها تاريخ طويل وعرفت مثلها مثل الشعوب اخرى العصور الحجرية والعصور المعدنية وبنيت دولاً وحضارات مزدهرة .

افريقية منذ ما قبل العصور الحجرية وحتى معرفة تصنيع المعادن :

من المعروف أن الادوات الحجرية والعظام المتحجرة هي الوسيلة لمعرفة تاريخ الانسان الباكر فهي تبين أين وكيف عاش .

تقود مكتشفات أثرية في شرق أفريقية وجنوبها الى الاستنتاج أنه عاشت في افريقية قبل ما يزيد على نصف مليون سنة أنواع مختلفة من البشر . ونشأ هناك قبل نحو أربعة عشر ألف سنة الانسان العاقل Hano Sapiens الذي كان يسارس الصيـة ولكنه ما لبث أن عرف النار وتعلم زراعة النباتات الغذائية .

بهذا الاكتشاف دخل الانسان العاقل العصر الحجري الحديث . وشواهد هذا التطور هي أحجار الطواحين البسيطة وأدوات الحفر الحجرية والرسوم الصخرية والتماثيل الباقية من ذلك العصر .

مع مرور الزمن كبرت « عائلة » الانسان العاقل وتطورت الى السلالات البشرية المختلفة .

يبدو أن الزنوج كانوا محبين للمغامرة وعاشوا قبل نحو سبعة آلاف عام بشكل رئيس في وسط افريقيا وشمالها . وكانوا فلاحين وربي ماشية في الصحراء الكبرى التي كان قسم كبير منها في الماضي أخضر وخصبا . واحتكوا بالمصريين القدماء الذين استوطنوا وادي النيل وأنشأوا أقدم حضارة عرفت في افريقية كلها .

عرفت المعادن أولا في مصر وحقق الحرفيون المصريون القدماء مهارات كبيرة في التعامل مع الذهب والفضة والنحاس والبرونز . ولكن متى عرف الانسان الافريقي في وسط القارة وجنوبها المعادن وصنعها ؟ بناءً على اكتشافات أثرية حديثة يمكن الاستنتاج أن الحديد عُرف وصُنِع في غرب افريقية نحو ٤٠٠ أو ٣٠٠ قبل الميلاد .

وربما أخذ الافارقة الغربيون هذه المهارة من حضارات شمال افريقية وطوروها بأنفسهم . نحو ٥٠٠ م أو قبل ذلك دخلت صناعة المعادن حتى وسط افريقية . ولكن معظم الافارقة استمروا في استخدام الادوات الحجرية والخشبية والعظمية المفيدة .

عندما احثك الافارقة بشكل جيد مع الحضارات المجاورة كالحضارة المصرية وحضارة جنوب الجزيرة العربية اكتسبوا كثيرا من المعارف وأقاموا دولا وحضارات مزدهرة كما في أكسوم (في الجبال الشمالية من اثيوبية الحالية) ، وفي كوش (على المجرى الأوسط للنيل) في السودان .

ازدهرت مملكة أكسوم خلال القرون الميلادية الستة الاولى وامتد نفوذها من اليمن شرقا حتى كوش غربا ، ومن أشهر ملوكها عيزانا الذي احتل مروة (على

النيل بين الخرطوم وعطبرة) عاصمة مملكة كوش ودمرها عام ٣٥٠ م . وتبين آثار أكسوم المكتشفة تطوراً حضارياً كبيراً عاشته تلك المملكة في مختلف المجالات .

أما مملكة كوش فقد قامت نحو ٧٥٠ ق م وكانت عاصمتها نياتا . (على الشلال الرابع للنيل بالقرب من جبل برقل شمال السودان) . بسطت كوش نفوذها على الصعيد وقام أحد ملوكها المدعو پعنخي عام ٧٣٠ ق م باحتلال مصر حتى الدلتا . لكنه اضطر للانسحاب . غير أن خليفته شباكا احتل مصر من جديد عام ٧١٢ ق م وأسس الاسرة الخامسة والعشرين التي دعت بالكوشية في القوائم الملكية المصرية (٧١٢ - ٦٥٦ ق م) . بقيت نياتا عاصمة مملكة كوش حتى عام ٥٩٠ ق م ، بعد ذلك أصبحت العاصمة مروة وبقيت حتى عام ٣٥٠ م .

وقد أظهرت الحفريات التي بدأت في مروة عام ١٩٠٢ شوارع وأبنية لمدينة عظيمة في مرحلة متقدمة من التطور الصناعي والفني . وتبين الآثار المكتشفة أن مروة كانت مركزاً اصهر المعادن ، وبخاصة الحديد .

ممالك افريقية القريبة :

مع بداية تصنيع الحديد في غرب افريقية نحو ٤٠٠ أو ٣٠٠ ق م بدأ عصر من الانقلابات الاجتماعية الكبيرة . فبعد أن كان أناس العصر الحجري يعيشون مع بعضهم ضمن مجموعات صغيرة أسس أناس العصر الحديدي دولا وممالك . وأخضعوا بأسلحتهم الحديدية شعوبا ضعيفة . وتطورت في الوقت نفسه التجارة . ونشأت ممالك ذات شكل منظم للدولة .

أقدم ممالك غرب افريقية هي غانا (لا تتطابق مع دولة غانا الحالية) التي كانت تمتد في البيداء البعيدة بين الطرف الجنوبي للصحراء الكبرى وغابات المنطقة الاستوائية الممطرة على الساحل . ويعود تأسيسها الى عام ٣٠٠ م ، وكانت مملكة قوية غنية بالثروات المعدنية وذات ادارة مركزية وسياسية واقتصادية ناجحة .

يرد ذكر غانا لأول مرة في تقرير عربي يرقى الى نحو عام ٨٠٠ م وذلك بوصفها

«بلاد الذهب» • وبسبب الذهب اهتم العرب والبربر بغانا وتطورت بسرعة تجارة مربعة عبر الصحراء الكبرى •

حتى اكتشاف أمريكا ، لا بل بعد ذلك بقرون ، كانت أوروبا تحصل على جزء كبير من ذهبها من أفريقية الغربية البعيدة عن طريق التجار العرب •

وتذكر بعض الكتابات العربية معلومات متفرقة عن غانا القديمة منها أن الملك الحاكم في القرن الحادي عشر واسمه تين كامينين Tenkamenin كان «سيد مملكة كبيرة» ، و «يجلس في خيمة من أجل خيوله ذات اللبادات الذهبية التي وقفت أمامه» •

وكان يحكم مجموعة من الشعوب التي تقدم له الجزية • وكان التجار العرب من شمال افريقية يشترون الذهب من غانا مقابل بضائع من شمال أفريقية • وكانت لمملكة غانا القديمة عواصم مختلفة وآخرها كومبي صالح في القرن الثاني عشر •

بعد سقوط غانا ظهرت في سافانا غرب أفريقية ممالك أخرى كبيرة مثل كانيسم Kanem وغانو Gao ومالي Mali • وكانت مالي أكبرها وعاصمتها تمبكتو Timbuktu ، وعاشت عصرها الذهبي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر تحت حكم ملوك سلالة كيتا Keita الذين انتشرت قوانينهم وتأثيراتها في مناطق بعيدة • وقد ضعفت فيما بعد ثم انهارت في القرن الخامس عشر • وقامت على أنقاضها مملكة سنغاي Sanghai التي وصلت قمة ازدهارها في عهد الملك محمد اول (١٤٩٣ - ١٥٢٨) ، ثم سقطت في بداية القرن السابع عشر تحت السيادة المغربية •

مارست الممالك الافريقية المختلفة تجارة واسعة وبخاصة مع الشمال الافريقي ووجد الاسلام عن طريق ذلك مدخلا الى غرب أفريقية •

الى الجنوب في الغابات المدارية الموحشة على الساحل أسست أيضا شعوب قوية

ممالك ومدنا أشهرها مملكة يوروبا Yoruba ومملكة الي - أفي Ile - Ife فسي
جنوب غرب نيجيريا الحالية •

بعد منتصف القرن السادس عشر حظ بحارة أوروبيون ، وبخاصة برتغاليون
في البداية ، بشكل متزايد على شواطئ أفريقية الغربية ودخلوا في علاقات تجارية مع
السكان المحليين ، وبخاصة مع مملكة بينين Benin القوية •

جرى تبادل في البداية بضائع أوروبية مختلفة بالذهب والعاج أفريقي • وبعد
ذلك بدأ الأوروبيون بشراء أفارقة لاستعبادهم للعمل في البرامج والمشروعات
الاستعمارية المفتحة حديثا وللزراعة في جزر الهند الغربية وفي أمريكا • وحصل
الزعماء الأفارقة مقابل العبيد الذين باعوهم على أسلحة نارية • وبسرعة اتسعت تجارة
العبيد وأرسل ملايين من الأفارقة إلى أمريكا قبل أن تمنع تجارة العبيد بشكل نهائي
قبل نحو مائة عام •

مدن وخرائب في شرق أفريقية :

عندما دار المكتشفون البرتغاليون عام ١٤٩٧ م حول رأس الرجاء الصالح
وساروا بسفنهم في المحيط الهندي لم يتصوروا شرق أفريقية إلا ساحلا موحشا غير
مسكون • وكانت مفاجأة لهم حين وجدوا الموانئ والمدن والمحطات التجارية الهامة ،
وسفنا تسخر عباب المحيط إلى الهند والشرق الأقصى ، وبحارة ذوي خبرة أوشدوهم
إلى الطرق البحرية •

من مدن شرق أفريقية التي برزت في تلك الفترة مدينة كيلوا Kiliwa (في
تنزانيا الحالية) التي يصفها تقرير برتغالي من عام ١٥٠١ كمدينة « ذات بيوت متعددة
جميلة منظمة بشكل جيد جدا في شوارع » ومبنية من الحجر والمونة وذات نوافذ
كثيرة حسب نموذجنا » •

إن الحضارة التي نشأت في شرق أفريقية وبخاصة على شواطئ موزامبيق
وتنزانيا وكينيا يرجع قيامها إلى قرون متعددة قبل وصول البرتغاليين وتأثرت كثيرا

بالحضارة العربية الاسلامية التي ازدهرت في القرون الوسطى • وساعد على ازدهار حضارات شرق افريقية وجود شبكة تجارة بحرية نشطة جدا امتدت حتى اندونيسيا والصين ، ساهم في انشائها تجار عرب • لذلك أصبح الكثير من المدن الساحلية مطبوعا بطابع الاسلام بعد عام ١٠٠٠ م • ونتج عن هذا الاحتكاك العربي-الافريقي الطويل نمو ثقافة ولغة متأثرة تأثرا كبيرا بالحضارة العربية • فاللغة السائدة كانت اللغة السواحلية وهي لغة افريقية مع تأثير عربي قوي •

أدى وصول البرتغاليين الى الهند عن طريق السواحل الافريقية الى تدمير الكثير من المدن الساحلية وتخريبها في شرق افريقية والتي ازدهرت نتيجة تجارتها مع الهند ، وسيطر فيما بعد البرتغاليون وغيرهم من الاوروبيين على مناطق متعددة في افريقية •

الفصل الثالث عشر

معالم حضارات أمريكا القديمة

كان سائدا في السابق أن الشعوب الأوروبية في غزورها للعالم الجديد فتحت أبوابه للحضارة الأوروبية التي جعلته يتقدم ويتطور . ولكن هذا الرأي غير صحيح . فقد تبين من خلال المكتشفات الأثرية أن أمريكا كانت مسرحا لحضارات متعددة قامت فيها وحقت إنجازات حضارية هامة وذلك قبل وصول الأوروبيين إليها . ولقد أصبح اليوم الشيء الكثير معروفا عن هنود شمال وجنوب أمريكا وذلك أكثر من السابق .

فعلى طريق تطورهم الطويل من الصيد البري الى الحضارة طوروا أيضا الزراعة . وبدون جهودهم لم يكن العالم ليعرف الذرة الصفراء والبطاطا والبنندورة والكافور والتبغ . وحضارات المكسيك والبيرو عمرها ثلاثة آلاف سنة على الأقل . ويعمل العلماء اليوم على فك رموز كتابات المايا في أمريكا الوسطى الذين كانت لديهم معلومات فلكية كثيرة .

باختصار ساهمت حضارات أمريكا القديمة بفصول هامة من تاريخ الحضارة الانسانية . ونستعرض فيما يلي أهم تلك الحضارات .

١ - الهنود الحمر في أمريكا الشمالية :

قبل عشرين ألف سنة على الأقل بدأت جماعات صغيرة من الصيادين بالعبور من آسيا الى أمريكا الشمالية عبر مضيق بيرنج (المضيق الفاصل بين الاتحاد الروسي في آسيا وألاسكا في أمريكا) . وقد وجد بعضهم أراض خصبة واستوطن هناك ،

بينما اتجه بعضهم الآخر نحو أمريكا الجنوبية • وقد وجد هؤلاء السكان الجدد في كل أجزاء الاميريكتين مناطق غنية بالصيد البري وصيد الاسماك •

ولكن الحضارات بدأت بالتطور فقط عندما مارس هؤلاء الزراعة فأمنوا بذلك مصدرا غذائيا منتظما • كانت مادة الغذاء الرئيسة في شمال أمريكا وجنوبها الذرة الصفراء • وقد اكتشفت أقدم ذرة زرعت وعرفها الانسان في احدى المغائر في جنوب غرب الولايات المتحدة وعمرها نحو ثمانية آلاف عام •

تطورت الحضارة في أمريكا الشمالية بشكل بطيء • في بدايات التاريخ الميلادي عاش بعض الهنود الحمر هناك في مدن مبنية بيوتها من الخشب • ويمكن للانسان أن يرى في وادي الميسيسيبي الاعلى التلال الكبيرة التي عملها السكان كأساسات لمباني وقصور • ويسمى هؤلاء السكان « بناء التلال » Moundbuilder ، وقد استعملوا الخشب والحجارة والنحاس واكتشفوا التبغ ودخنوه بغلايين حجرية •

في الوقت نفسه طور ما يسمى « صانعو السلال » في نيومكسيكو وأريزونا وأوتاغن صنع السلال وأنتجوا الفخار • وخلال الالف السنة اللاحقة نمت قراهم التي كانت تتألف من بيوت مبنية من الطين وذات غرفة واحدة وتطورت الى مدن صغيرة زرعوها بالقرب منها الذرة والقرع والتبغ • وقد سمى الباحثون الاسبان الذين اكتشفوا هذه المستوطنات « قري » •

بعد عام ١٠٠٠ م هاجم بيلو نتيجة جفاف حل بمناطقهم القبائل الزراعية المستقرة • فبنى هنود « القري » الحمر بعد ذلك مدنا محصنة على مرتفعات صخرية لتسهيل حمايتها من الاعداء • والكثير من هذه المدن ما يزال باقيا حتى الآن •

يبدو أن حضارة « بناء التلال » انتشرت في وادي الميسيسيبي باتجاه الجنوب •

بعد عام ١٠٠٠ م استوطن الهنود الحمر Natchez ، بالقرب من نيو أورليانز الحالية وزرعوها الذرة والقرع ، ولكنهم مثل كل الهنود الحمر الآخرين استخدموا المعزقة في الزراعة • أما المحراث فلم يكن قد عرف بعد • كان الهنود

البحر فانشيز قبائل متعددة مقسمة كل منها الى ثلاث مجموعات : الاحرار والعبيد
وأسرى القبائل الاخرى . كان الارستقراطيون يعدون أنصاف آلهة ، والزراع
والصيادون « شموسا » .

الى الشرق من منطقة استقرار هنود فانشيز عاش الهنود البحر كريك Krik في
مدن غطيت بيوتها بلحاء الاشجار . وكانت بعض المدن تعد عدة آلاف من السكان ،
وتحكم كل مدينة من قبل زعيمين قبليين أحدهما رجل ، والآخر امرأة ويتبعان لزعيم
أعلى . ولم يعرف هؤلاء الهنود البحر الكتابة الحقيقية .

عاش في شرق الولايات المتحدة الحالية الكثير من القبائل الصغيرة ، كما عاش
انسان العصر الحجري الحديث آلافا من السنين قبل ذلك في أوروبا .

٢ - حضارات أمريكا الوسطى :

لا يوجد أي شيء معروف عن حضارة في وسط أمريكا قبل نحو ٩٠٠ ق م .
في هذا الوقت عاشت جماعات تدعى أولميك Olmek على الطرف الجنوبي لخليج
المكسيك وبنت معابد ذات ساحات حجرية للاحتفال بالاعياد ، ووطورت أولى علامات
الكتابة في تاريخ أمريكا القديم .

في القرن الاول قبل الميلاد بنى أحد شعوب أمريكا الوسطى في مكسيكو
الوسطى مدينة تيوتيهواكان Teotihuacan (تعني المكان الذي خلقت فيه
الآلهة) . وقد حكمت هذه المدينة من قبل ملكة كاهنة . وأقيمت فيها معابد على
أهرامات أرضية مرتفعة مبنية من الحجر . في القرن الرابع الميلادي أقام بناء حضارة
تيوتيهواكان مراكز جديدة في غواتيمالا البعيدة نحو ألف كيلو متر الى الجنوب
الشرقي . خلال ذلك سار الأولميك نحو الجنوب وأسس تحت تأثيرهم هنود الغابات
حضارة المايا اللاحقة .

١ - حضارة المايا :

المايا هم أهم شعوب أمريكا القديمة ، وقد سكنوا في المقاطعات المكسيكية الحالية : Yucatan ، Campeche ، Petén ، Tabasco ، Chiapas ، وفي أجزاء من هندوراس وغواتيمالا .

كانت هناك نحو عشرين قبيلة هندية حمراء تتكلم لهجات المايا ولكن كان التفاهم فيما بينهم يتم بصعوبة . أما بالنسبة لطبقة الكتاب قليلة العدد فكانت هناك لغة مكتوبة تستخدم نظام هيروغليفي واحد للكتابة في كل مدنها .

كانت تحكم المايا أربع مجموعات من رؤساء القبائل ، ولكن عند الخطر كان ينتخب رئيس واحد قائداً أعلى للجيش .

تألفت مدن المايا من بيوت خشبية مغطاة بالقش وتقوم حولها المعابد الهرمية المخصصة لعبادة الآلهة المختلفة كالشمس والقمر والنجوم وآلهة المطر والرياح والأرض . كانت هذه الآلهة بالنسبة للمايا تتحكم بكل فصول السنة وينمو محاصيل الحقول . وكان كهنة المايا منجمين كباراً استطاعوا التنبؤ بكسوف الشمس وخسوف القمر .

وعلى الرغم من أن المايا ، شأنهم شأن بقية الهنود الحمر ، لم يعرفوا الدولاب والمحراث والقوس ، ولم تكن لديهم حيوانات جر ، لكنهم حققوا إنجازات حضارية هامة فقد بنوا الأهرامات المدرجة الرائعة والمعابد والقصور . واستخدموا في الحساب نظاماً عشرينياً وحسبوا بالملايين ، وكان عندهم تقويم دقيق يتألف من ١٨ شهراً وكل شهر من عشرين يوماً وشهر يتألف من خمسة أيام ، وكان كل يوم مخصصاً لتقديس إله . وبذلك كان تقويمهم من هذه الناحية شبيهاً بالتقويم الميلادي الحالي . واعتقد المايا أن قسوى الكون هي التي تحدد مصيرهم لذلك خضعوا كالعبيد للتقويم والتنجيم .

زرع فلاحو المايا الذرة الصفراء والقرع والكاكاو وربوا النحل ، غير أن أدولتهم كانت بدائية ، وعرفوا فقط القليل عن المعادن . بعد عام ٣٠٠ م أقام

المايا أهرامات مدرجة حتى علو ١٨ م • وهناك مسلة ارتفاعها ١٠ م نقش عليها أقدم تقويم للمايا وأحد النصوص •

ما بين عام ١٠٠ ق م - ١٥٠ م أصبحت بالتدريج الصفات المميزة لحضارة المايا مرئية وهي : قصور من حجارة كلسية - أهرامات كمعابد - كتابة هيرغليفية والتقويم • في الوقت نفسه كسب الانسان في مقاطعة Petén عن طريق حرق الحجر الكلسي مونة بيضاء تمكن بها من بناء أبنية صعبة مثل هرم أوكساكتون Uaxactun بالقرب من تيكال Tikal .

ما بين القرنين الثاني والرابع الميلاديين شكلت مدن المايا عصبة لدرء الاخطار الخارجية • وفي القرن السابع حدث انهيار لمراكز حضارة المايا في وسط شبه جزيرة يوكاتان وذلك اما بسبب المجاعات التي نشأت عن ضعف مردود الزراعة الناجم عن فقر التربة ، أو بسبب تمردات وحروب أهلية • فعادر السكان المدينة القديمة الى الاديغال • ولكن ازدهرت مدن جديدة في شمال شبه جزيرة يوكاتان •

في الوقت نفسه هرب الكثير من السكان من المدينة الكبيرة تيوتيهواكان ، ربما أمام قبائل التولتيك التي كان يقودها رؤساء من عائلات نبيلة • أسس التولتيك مملكة لهم وكان على السكان أن يدفعوا جزية لهم • وربما كانت غواتيمالا موطن التولتيك •

أسس عام ٦٥٠ م الملك الكاهن التولتيكي العاصمة تولا Tula • من بين خلال كتابات مكتشفة أمكن معرفة تسعة ملوك تولتيكيين توالوا على الحكم ووسعوا مملكتهم في مكسيكو الحالية •

قامت في منتصف القرن العاشر (٩٥٠ م) حرب أهلية دمرت بنيتها مدينة تولا •

توقفت الحضارة عن التطور في السنوات التالية في أمريكا الوسطى بسبب المجاعة والطاعون ، وبدأ تدهور حضارة المايا في شمال يوكاتان في الربع الاول من

القرن الثالث عشر . بقيت لغة المايا محفوظة ومعها هيروغليفية المايا ، وهي كتابة نصف صورية يحاول العلماء تفسيرها .

٢ - حضارة الأزتيك :

أخذت قبيلة هندية صغيرة فقيرة عام ١١٦٨ حضارة التولتيك وأسست مملكة شملت مع مرور الزمن نحو خمسة ملايين إنسان . وكان هؤلاء الأزتيك أو «الناس المنظمين في صفوف» .

هاجر الأزتيكيون بعد انهيار مملكة التولتيك نحو الجنوب . ونروي الأسطورة أنهم عاشوا قبل أن يطوروا حضارتهم على جزيرة في أحد البحار . وهناك ظهر لهم إلههم Huitzilopochtli الذي أمرهم بالبحث عن الإشارة الخاصة به وقال لهم انهم عندما يجدونها سيصبحون شعبا كبيرا . فتنقل الأزتيكيون من مكان الى مكان وبقوا في كل مكان بضع سنوات فقط كانوا يزرعون خلالها الذرة . وحولهم أحد الملوك مرة الى عبيد لكنهم هربوا الى جزيرة مستنقعية في بحر المكسيك . وهناك رأى قادتهم الأربعة ، الذين كانوا يشكلون مجلسا للشيوخ ، صخرة عليها نبات صبار يقف فوقه نسر يمسك أفعى بمخالبه . وكانت هذه إشارة الإله المنشودة . فبنى الأزتيكيون في المكان مدينة تينوختيتلان Tenochtitlan (صخرة الصبار) (حاليا مكسيكو سيتي وهي الآن عاصمة جمهورية المكسيك) .

سيطر حتى عام ١٥٠٢ الأزتيكيون تقريبا على كل الجزء الجنوبي الخصب من المكسيك . وفي عام ١٥١٩ احتل الأسبان المكسيك وبعد سنة مات الحاكم الأزتيكي في الأسر الأسباني وتسلم خليفته من بعده قيادة شعبه .

لم تكن الثيران والخيول والدولاب مروفة في مملكة الأزتيك كما في كل أمريكا قبل اكتشافها . وكان التجار ينتقلون من مدينة الى أخرى بسوكب طويل من الجمالين الذين يحمل كل منهم حملا من نحو ٣٠ كغ على ظهره وكان يقام في كل مدينة سوق كل عشرين يوما حيث تجري مقايضة البضائع بعضها ببعض .

كان يعيش في مدينة تينوخيتلان نحو مليون انسان في بيوت حجرية مؤلفة من طابق واحد وذات سطوح مستوية . وتركزت المدينة حول معبدين هرميين كانا يرتفعان فوق ٣٠ م . هناك كان الكهنة يقدمون الاسرى للالهة كقرابين في حفلات طقسية .

ازدهر في مملكة الازتيك الحفر على الخشب وتصنيع الاحجار الكريمة والنسيج . وكتب الكهان كتباً جلدية كانت تطوى على شكل الاكورديون . ويوجد في بعض هذه الكتب التي كتبت باشارات صورية مختصر لتاريخ القبيلة البالغ ألف سنة . وعرف الازتيكيون الخرائط أيضاً ووضعوا نماذج جيدة منها استخدم احدها أحد القادة الاسبان عند عبوره شبه جزيرة يوكاتان .

٣ - حضارات أمريكا الجنوبية :

من المعتقد أن عناصر بشرية عاشت في أمريكا الجنوبية قبل ما يزيد على خمسين ألف سنة . ولكن أولى الحضارات قامت نحو عام ١٠٠٠ ق م في أرحد وديان أندين Anden حيث أسس الهنود العصر المدينة المسورة شافين Chavin . ومع مرور الوقت أقاموا مملكة وحملوا فنهم ودينهم الى الشعوب الاخرى التي كانت تقطن في السهول الساحلية في البيرو الحالية . فيما بعد تأثرت القبائل القاطنة على ساحل البيرو الجنوبي بمملكة جيلية أخرى كان مركزها تياهوآناكو Tiahuanaco . وتسمى الاسطورة حاكم تلك المملكة وهو أمأوتاس Amautas أي « الحكيم » . وبقيت تياهوآناكو منذ القرن الاول قبل الميلاد وحتى ٤٠٠ م مركز هذه المملكة القوية التي لم يثر على مخلفات كتابية عنها . بعد أفول تياهوآناكو طور سكان البيرو حضارات أخرى ولكن على الساحل . فنشأ حول مدينة نازكا Nazca في الجنوب مركز للفخار الجميل والنسيج الذي يعد اتاحهما من المكتشفات الحميلة نعلم ثلاثار .

ونشأت على الشاطئ الشمالي وازدهرت مملكة شيمو Shimu الغنية التي احتلها الإنكا Inka بعد عام ١٤٥٠ م .

بأخترع هنود الشيمو ميزانا لوزن الذهب والأحجار الكريمة وطوروا بشكل كبير سبك المعادن وصنعوا أقراطا وأطباقا وكؤوسا ومرايا من المعادن كالذهب والفضة والبرونز ، ولكنهم لم يعرفوا الدولاب والمخراش .

نحو ٩٥٠ م استلمت قبيلة الإنكا Inka الحكم في البيرو . حسب الأسطورة خرج الإنكا من الغابات الواقعة الى الشرق من أندين وسموا أنفسهم « أولاد الشمس » ، وأطلقوا على مكانهم المفضل اسم كوزكو Cuzco أي « السرة » وعدوه مركز العالم وجعلوه عاصمة لهم .

سيطر الحاكم (حاكم = توبا Topa) الأولان من الإنكا على نصف وادي كوزكو وانتشرت قوة الإنكا ببطء . وسيطر الـ توبا الرابع للإنكا على كل وادي كوزكو عن طريقة إخضاع القبائل المعادية .

عام ١٤٦٠ م كانت مملكة الإنكا تمتد من الغابات الواقعة على الامازون الى المحيط الباسيفيكي ومن حدود الاكوادور الحالية الى داخل تشيلي ، وكانت تضم نحو ثمانية ملايين انسان .

كان توبا الإنكا يعد نفسه السليل المباشر للشمس ، لذلك تمتع أولاده وأقرباؤه بحقوق خاصة وشغلوا كل الوظائف الهامة في المملكة .

زرع الإنكا البطاطا الحلوة والذرة الصفراء وربوا الارانب الهندية من أجل اللحم ، واللاما كحيوان حمل .

في ثلاثينات القرن السادس عشر اكتشف الاسبان مملكة الإنكا ودمروها . وبذلك توقف تطور الحضارة المحلية في هذه المنطقة كما توقف في مناطق أخرى من أمريكا بفعل قدوم الاسبان الذين أنهوا بذلك التاريخ القديم لأمريكا كما أنهى البرتغاليون التاريخ القديم لأفريقية وخضعت القارتان لسيطرة أوروبا ونقودها ودخل تاريخهما بعد ذلك في مسار آخر شمل كل الجوانب الاقتصادية والسياسية والثقافية .

نماذج من مصادر تاريخية

من قانون حمورابي *

المادة ٣ : اذا ظهر انسان في قضية (وشهد) شهادة كاذبة ، ولم يستطع اثبات ما قاله بانبراهين • فاذا كانت تلك القضية قضية حياة فان ذلك الانسان يقتل •

المادة ٤ : واذا ظهر للشهادة حول حبوب أو فضة فيجب أن يتحمل العقوبة الناجمة عن تلك القضية •

المادة ٥ : اذا حكم قاض في قضية واتخذ قرارا وأصدر وثيقة مختومة بذلك • لكنه غير قراره فيما بعد • فعلى المرء أن يثبت تغيير هذا القاضي للقرار الذي اتخذه • ويجب على القاضي أن يدفع حق الادعاء الذي ينشأ عن هذه القضية اثني عشر ضعفا •

عدا عن ذلك يجب عليه أن يترك كرسيه القضائي في مجلس (القضاة) والا يعود أبدا ، وألا يجلس مع قضاة في محكمة •

المادة ٢٢ : اذا سرق انسان سرقة وضبط فان هذا الانسان يقتل •

المادة ٢٣ : اذا لم يضبط السارق يذكر الرجل المسروق أشياءه المفقودة أمام

* قام بترجمة هذه المقاطع من الاكاديمية الدكتور عيد مرعي •

الإله • وعلى المدينة والحاكم الذي حدثت السرقة في أرضهم ومنطقتهم أن يعرضوه عن مسروقاته •

المادة ٤٤ : إذا استأجر انسان حقلا بورا لمدة ثلاث سنوات لاستصلاحه لكنه وضع يديه في حجره ولم يستصلح الحقل فإنه يجب عليه في السنة الرابعة أن يشق الحقل بالمحراث ويقلبه ويعزقه وأن يعيده الى صاحب الحقل وأن يكيل عن كل بور واحد (مقياس للمساحة) ١٠ كور شعير •

المادة ٥٩ : إذا قطع انسان شجرة في بستان انسان (آخر) دون موافقة صاحب البستان فإنه يدفع نصف مينة فضة •

المادة ٦٠ : إذا أعطى انسان حقلا الى بستانى ليجعل منه بستانا ، وجعله البستاني بستانا ، عليه أن يعتني بالبستان أربع سنوات ، وفي السنة الخامسة يقسم مالك البستان والبستاني (البستان) بالتساوي ، ويحق لصاحب البستان أن يختار حصته ويأخذها أولا •

المادة ١٢٨ : إذا تزوج رجل زوجة ولم يعقد عقدها فإن هذه المرأة لا تعد زوجة •

المادة ١٣٨ : إذا أراد رجل أن يطلق زوجته التي لم تلد له أولادا فعليته أن يعطيها فضة تعادل مهرها ، ويعرضها بآنتها التي جلبتها من بيت أبيها ثم يطلقها •

المادة ١٣٩ : إذا لم يكن هناك مهر عليه أن يعطيها مينة واحدة فضة كنقود طلاق •

المادة ١٤٠ : إذا كان الرجل موشكينوم عليه أن يعطيها ثلث مينة فضة •

المادة ١٧٥ : إذا تزوج عبد قصر أو عبد موشكينوم ابنة انسان (حر) وولدت

(له) أولادا ، فإن صاحب العبد لا يحق له أن يدعي العبودية على أولاد ابنة
الإنسان (الحر) .

المادة ١٩٦ : إذا أثلف انسان عين انسان (آخر) فعلى المرء أن يتلف عينه .

المادة ١٩٧ : إذا كسر عظم انسان فعلى المرء أن يكسر عظمه .

المادة ٢٠٩ : إذا ضرب انسان ابنة انسان (آخر) وسبب لها فقدان جنيتها
فعليه أن يدفع عشرة شقيق فضة (كتعويض) عن جنيتها .

المادة ٢١٠ : إذا ماتت هذه المرأة فتقتل ابنته .

المادة ٢١٥ : إذا عمل طبيب لإنسان جرحا صعبا بأداة من البرونز (المقصود
أجرى عملية) أو فتح صدغ الإنسان بأداة من البرونز وأشفى عين الإنسان فإنه
يأخذ عشر مثاقيل فضة .

المادة ٢١٨ : إذا عمل طبيب لإنسان جرحا صعبا بأداة من البرونز وسبب
للإنسان الموت ، أو فتح صدغ إنسان بأداة من البرونز وخرب عين الإنسان فعلى
المرء أن يقطع له يده .

المادة ٢٣٦ : إذا أجّر إنسان سفينة للملاح ، وأغرق الملاح السفينة نتيجة إهماله
أو حطمها ، فيجب على الملاح أن يعرض صاحب السفينة سفينة (بدلا عنها) .

مقتطفات من الخاتمة :

هذه هي أحكام العدالة التي وضعها حمورابي الملك القدير فأوجد بذلك تقاليد
ثابتة وقيادة جيدة للبلاد . أنا حمورابي الملك الكامل لذوي الرؤوس السوداء الذين
أهداني إياهم إليل وأعطاني مردوك رعايتهم . لم أكن مهملا ولم أضع يدي في
حجري وبحثت لهم دائما عن أماكن آمنة ، وتغلبت على المشاكل الصعبة ، وجعلت

النور يشرف عليهم . بالسلاح القوي الذي منحني اياه زبابا وعشتار ، بالحكمة التي خصني بها اينا ، بالكفاءة التي وهبني اياها مردوك ابعدت الاعداء في الاعلى والاسفل وقضيت على التمردات واسعدت البلاد وجعلت سكان القرى (كالاغنام) على الاعشاب يربضون ولم اترك لهم مضايق ينهض . كي لا يظلم القوي الضعيف وللمساعدة اليتيم والارملة (في الوصول) الى حقهم في بابل المدينة التي رفع اناؤهم . ولانليل رأسها في ازاغالا المعبود الذي جذوره ثابتة كالسما والارض ، نخلق قانون للبلاد ، ولتقرير مصير البلاد ولاحقاق الحق للمظلومين كتبت كلماتي القيمة على نصبي واقمته أمام تمثالي (المسمى) ملك العدالة .

أنا الملك السامي بين الملوك ، كلماتي مختارة وكفاءتي لا نظير لها . بناء على أمر شماش القاضي الكبير للسماء والارض ، لتصبح عدالتي في البلاد مرئية ، بناء على كلمة مردوك سيدي يجب ألا تجد كتاباتي من يزيلها . في ازاغالا الذي أحبه يجب أن يذكر اسمي بالخير الى الابد .

ليأت الانبياء المظلوم الذي لديه قضية الى أمام تمثالي (المسمى) ملك العدالة وليقرأ نصبي المكتوب وليسمع كلماتي القيمة ، نصبي سيشرح للقضية ، سيرى حكمه ، ويجب أن يتنفس قلبه الصعداء (ويقول) : حمورابي السيد موجود كأب حقيقي للناس .

رسالة من ماري

رسالة من زمري ليم ملك ماري الى يارليم ملك يمحاض

الى ياريم ليم

يقول ابنك زمري ليم ما يلي :

بشأن الساقى كتبت لي ما يلي :

قلت بأن هذا الرجل

جلب من حاصور فضة وذهباً وأحجاراً كريمة وذهب اليك .

لكن ملك حاصور احتجز الصير والناس

الذين أتوا لممارسة التجارة وقال :

الساقى أخذ الفضة والذهب والاحجار الكريمة

وذهب الى ياريم ليم . هذا ما كتبه لي .

في الحقيقة لم يجلب لي هذا الرجل معه

لا فضة ولا ذهباً ولا أحجاراً كريمة .

هذا الرجل احتجز في إيسار

وعومل بشكل سيء ،

• وسلب منه كل ما كان يحمل •

حتى الخاتم الذي اشتراه هذا الرجل بفضة أخذ منه •

• وهذا الرجل من أجل أن ينقذ حياته هرب الي •

• أرجو أن يكتب ياريم ليم الي إيمار •

• وأرجو أن تعطى ممتلكات هذا الرجل الي والدي (أي ياريم ليم) •

من مراسلات العمارة

رسالة من توشراتا ملك مملكة حوري - ميتاني

الى الفرعون المصري أمنحوتب الثالث *

الى نيموريا ملك مصر ، أخي ، صهري الذي أحبه والذي يحبني أقول :

هكذا يتكلم توشراتا ملك بلاد ميتاني ، عمك الذي يحبك ، أخوك . أنا
بخير ، أرجو أن تكون أنت بخير . أرجو أن تكون أحوال زوج ابنتي ، نسائك ،
أولادك ، أعيانك ، خيولك ، عرباتك الحربية ، قواتك ، بلادك وممتلكاتك بخير .
أخي تمنى زوجة وهانذا أرسلها ، وهي ذهبت الى أخي . عندما تأتي سيراهها أخي
وسيرى مهرها . عندما تصل زوجة أخي سيراهها ، وأرجو أن يجمع كل يلسده
والبلدان الاخرى ، وأن يكون النبلاء والرسل حاضرين . وأرجو أن يري أخي
مهره لعروسته . أرجو أن يجعلني أخي غنيا في عيون سكان دولتي ، وأرجو ألا
يحرزن أخي قلبي . لقد تمنيت من أخي تمثالا من الذهب . أنا أعرف أن أخي
يحبني كثيرا وأعرف أيضا أن الذهب موجود بكثرة في بلد أخي . كما أريد من أخي
تمثالا من انعاج (مكتوبا عليه) : « هذا التمثال ل تاتوخيا ابنة توشراتا سيد ميتاني
الذي أعطاها اياه نيموريا سيد مصر كزوجة له » .

في بلادنا يسود السلام . الآن لا يوجد عدو لأخي . ولكن اذا هاجم عدو
أخي ودخل في بلاده فعلى أخي أن يعلنني ، وستكون بلاد الحوريين بأسلحتها
وجيوشها تحت تصرفه . من ناحية أخرى اذا وجد عدو ضدي فسأخبر أخي
وستكون مصر وجيوشها وأسلحتها الى جانبي .

* عيسد مرعي ، التاريخ القديم ، ص ٢٠٢ .

سيرة ادريمي الذاتية ملك الآلاخ*

أنا ادريمي بن إليم - اليم
خادم تيشوب ، خيات وشاوشكا سيده الآلاخ سيدتي
في حلب بيت أبي
حدثت اضطرابات وهربنا (الى)
سادة ايمار اخوة
أمي ، وسكننا في ايمار
اخوتي الذين كانوا أكبر مني
سكنوا معي أيضا ، ولكن لا أحد منهم
فهم الأشياء التي فهمتها
كما يلي (فكرت) أنا : من في بيت أبيه
فهو الابن الأكبر لأمير ، ولكن من
هو عند أبناء ايمار فهو عبد
حصاني ، عربي وخادمي
أخذتني وفي أرض الصحراء
عبرت • ولدي جماعات السويثين

* عيد مرعي ، دراسات تاريخية ٢٩ - ٣٠ ، ١٩٨٨ ، ص ١٠٨ وما يليها .

دخلت • معه (مع الخادم)
بت أمام عرش زكار • في اليوم الثاني
رحلت والى أرض كنعان
وصلت • في أرض كنعان
(تقح) مدينة أميثا • في مدينة أميا
أناس من حلب • أناس من أرض موكيش •
أناس من أرض نيكخي وأناس من أرض
أمائي • هم سكنوا (هناك)
عندما رأوني (وتأكدوا)
أنني ابن سيدهم فأنهم حوأي
تجمعوا • وهكذا عملت كثيرا
وحكمت • ولدى جماعات الخايرو
أقمت سبع سنوات • تركت عصافير تطير
وتفحصت (أحشاء) الحملان • وفي السنة السابعة
رجع تيشوب الى رأسي • ومن ثم صنعت سفنا •
عساكر نولاء جعلتهم يصعدون الى السفن •
وبعرا من أرض موكيش
اقتربت • وأمام جبل الاقرع
وصلت الى اليابسة • (بعد ذلك) صنعت •
وعندما سمعت بلدي بي الايقار والاعنام

جلبها المرء لي • وفي يوم واحد
كانسان واحد أرض نيخي ، أرض أمائي
أرض موكيش وألألاخ مدينتي
عادوا الي • اخوتي
سمعوا (بذلك) واثتوا الي •
اخوتي استراحوا عندي • عدا عن ذلك
سبع سنين بارا تارنا الملك القوي
ملك الحوريين عاداني •
في السنة السابعة الي بارا تارنا الملك
ملك الحوريين أرسلت أنو أندا وتحدثت
عن جهود آبائي بأن
آبائي كانوا قد خلصوا الي الهدوء
وأجدادنا (كانوا) طيبين مع ماوك الحوريين
وأنهم فيما بينهم قسما عظيما
أقسموا • الملك القوي
سمع عن جهود
أجدادنا وعن القسم فيما بينهم
وخاف من علامة القسم • لأجل محتوي
القسم ولأجل جهودنا قبل مديتي الترحيبية •
وفي (شهر) كينونو التالي قدمت أضاحي

كثيرة وأعدت إليه البيت الهارب •
في انسانيتي ، في اخلاصي ، بشكل ودي
أقسمت له • لذلك أصبحت ملكا على الألاخ
الملوك الذين على يميني والذين على يساري جاؤا اليّ
ووجدت نفسي مماثلا لهم • أسوارها (أسوار المدن)
التي أقامها الأجداد من تراب
جعلتها ترتفع بالتراب
ومن أجل الدفاع زدها علوا
أخذت العساكر والى أرض حاتي
صعدت واستوليت على سبع قلاع (مدن) :
باشاخي ، داماروتلا ،
خولاخان ، زيلا ، إي
أولوزيلا و زارونا •
هذه القلاع (المدن) استوليت عليها • هي
دمرتها • بلاد حاتي
لم تتجمع ولم تأت ضدي • ١١١
صنعت ما يشتهي لبي (قلبي) : غنائمهم
نهبها • ألاكهم ، أمتعهم ، ممتلكاتهم
أخذت ووزعتها على عساكري
واخوتي

وأصحابي • ولكن أسلحتهم
أخذتها أنا شخصيا • ومن ثم رجعت الى بلاد موكيشن مدينتي
مع الغنيمة •
وَدَخَلْتُ الى الأَلاخ
ومع ثروة من الحيوانات والممتلكات والاملاك والامتعة
التي جعلتها تأتي من بلاد حائي
بيت قصرا •
عملت عرشي مماثلا لعروش الملوك ،
اخوتي كاخوة الملوك ، أولادي
كأولادهم وأصحابي كأصحابهم
جعلتهم • السكان
الذين في بلدي
مساكنهم جعلتهم يسكنون بشكل أفضل • الذين لم يسكنوا في مسكن (قط)
جعلتهم يسكنوا ووطدت بلدي •
وعملت مدني كما أجدادنا (عمالها) • كاتبائنا
(الذين) عينوا علامات آلهة الأَلاخ
والأصاحي التي قدمها آباؤنا
قدمتها أنا بانتظام • هذا ما عملته
وعهدت به الى يدولي تيشوب - نيراري •
من يزل نصبي هذا

فليستأصل نسله وليلعنه اله السماء
ولتستأصل الأرض السفلى سلالة
ولتقتسم آلهة السماء والأرض مملكته وأرضه •
من يغيره أيضا أو يعمل به شيئا
ليحطم تيشوب سيد السماء والأرض والآلهة الكبار اسمه
وذريته في بلاده • شارووا هو الكاتب الصغير عبد تيشوب ، شيمجي ، كوشوخ
وشاوشكا •
شارووا الكاتب الذي كتب هذا النص لتبقيه آلهة السماء والأرض حيا ولتتمصره
ولتكن طيبة معه • شيمجي سيد الأعلى والأسفل ، سيد أشباح الموتى ليحفظه على
قيد الحياة •
ثلاثين عاما كنت ملكا •
كتبت أعمالي على لوح ليراها (المرء)
وليرحمني دائما •

حوار العبد ومولاه*

(قصيدة بابلية عبارة عن مناجاة عبثية ذاتية)

المولى : أيها العبد اقترب مني !

العبد : نعم مولاي ، نعم !

م : اذهب ، أسرع ، وجهز لي عربة كي أذهب الى القصر .

ع : اذهب مولاي . اذهب . . سيكون لك فائدة ! عندما سيراك الملك ، سيفمرك
كرمنا .

م : ايه أيها العبد ، أنا لست ذاهبا الى القصر !

ع : لا تذهب مولاي ، لا تذهب . فما أن يراك الملك حتى يرسلك حيث لا تريد ،
وينفمك في طريق مجهولة . وسيديقك العذاب ليل نهار .

م : أيها العبد ، اقترب مني !

ع : نعم مولاي نعم !

م : أسرع ، أحضر لي ماء أغسل يدي وأتغدى !

ع : تغد مولاي ، تغد فوجبة طيبة تشرح القلب . . أن تأكل من رزق ربك ، وأن
حسن أيها العبد . . سوف أقتلك وأجعلك تهلك قبي !

* فيصل عبد الله ، دراسات تاريخية ٤١ - ٤٢ ، ١٩٩٢ ، ص ٨٢ وما يليها .

م : كلا .. كلا .. أيها العبد .. لن أتغدى !

ع : لا تتغذ مولاي .. لا تتغذ ، أن تجوع حتى تأكل ، أن تمطش حتى تشرب
هذا ما يلزم الرجل .

م : يا عبد .. تعال بين يدي !

ع : أجل .. مولاي .. أجل

م : اذهب .. ووجه لي عربة كي أذهب للصيد !

ع : اذهب مولاي اذهب . فالرجل الذي يتجول في الأرياف جعبته مليئة ، والكلب
الذي يتصيد ، يحظى بعظام يسحقها ، والغراب الذي ينطلق في الأرياف يبني له
عشا ! والحصار الوحشي الذي يجوب المراعي يحظى بمرامه .

م : ولكن أيها العبد ، لا أريد أن أذهب للصيد !

ع : لا تذهب مولاي ، لا تذهب ! فالرجل الذي يجوب الأرياف يتعب فكره ،
والكلب الذي يتصيد يسحق أسنانه ، والغراب الذي يطوف الأرياف فمسكنه
ليس إلا شقا في جدار ، والحصار الوحشي الذي يجوب المراعي لا مأوى له إلا
البادية .

م : يا عبد تعال بين يدي .

ع : نعم مولاي نعم !

م : سأقوم بثورة ..

ع : افعل هذا مولاي افعل ! إذا لم تشر فكيف ستلبس ، ومن سيعطيك لتلا
جعبتك .

م : حسن .. أيها العبد ، ولكن لن أقوم بثورة !

ع : لا تفعل مولاي ، لا تفعل ! فالرجل الذي يثور إما أن يقتل أو يسلخ جلده أو
تقتل عيناه أو يعقل ويلقى في السجن .

- م : يا عبد ، أقدم !
- ع : أجل مولاي ، أجل !
- م : أريد أن أعشق امرأة !
- ع : لعشق مولاي ! أعشق ! فالرجل الذي يعشق امرأة ينسى قلقه ويذهب وسواسه .
- م : حسن أيها العبد ، لا أريد أن أعشق امرأة !
- ع : لا تعشق مولاي ، لا تعشق ! فالمرأة كالبئر ، نعم كالبحر ، انها خزان ، انها لحد ، انها خنجر مشحود يقطع حنجرة الرجل .
- م : أيها العبد تعال بين يدي !
- ع : نعم مولاي نعم !
- م : أسرع ، اذهب وأحضر لي ماء أغسل يدي ، أريد تقديم الاضاحي الى ربي !
- ع : افعل مولاي افعل ! فالرجل الذي يضحي الى ربه يكون قلبه سعيدا ويكسب حسنة فوق حسنة .
- م : جيد أيها العبد ، لن أقدم الاضاحي الى ربي !
- ع : لا تفعل مولاي لا تفعل ، هكذا تعلم ربك أن يتبعك كظلك ويطلب منك : « أين عبادتي ؟ ألا تستشيرني ؟ » أو أي شيء آخر ؟
- م : يا عبد تعال هنا بين يدي !
- ع : نعم مولاي نعم !
- م : أريد أن أقرض مالا بالفائدة .
- ع : اقرض هكذا ، مولاي ، اقرض ! فالرجل يحافظ على ماله ويضاعف الفائدة !
- م : حسن أيها العبد ، ولكنني لا أريد أن أقرض مالا بالفائدة !

ع : لا تقرض مولاي ، لا تقرض ! اقراض المال لذيد مثل حب المرأة ، ولكن ارجاعه
أصعب من ولادتها اذ يتلعون مالك ولا يتوقفون عن لعنك ! وينكرون عليك
المال والفائدة •

م : يا عبد تقدم بين يدي !

ع : نعم مولاي نعم !

م : اريد ان اخدم وطني !

ع : افعل هذا مولاي ، افعل ، فالرجل الذي يخدم وطنه فأعماله تسجل لدى
الاله مردوك !

م : ولكن أيها العبد ، لا اريد ان اخدم وطني !

ع : لا تفعل مولاي لا تفعل ! اصعد على اطلال الماضي وتجول بينها وأرقب الجماجم
المختلطة بين فقير ونبيل ، فمن الذي صنع شرا ؟ ومن الذي صنع خيرا ؟

م : أيها العبد تعال بين يدي !

ع : نعم مولاي نعم !

م : ما هو الخير اذا ؟ دق عنقي وعنقك ؟

أن يرمي المرء نفسه في النهر ؟ هل هذا هو الخير ؟

من ذا الذي عظم حتى وصل الى السماء ؟

من هو عظيم حتى يحتضن الارض ؟

حسن أيها العبد ... سوف أقتلك وأجعلك تهلك قلبي !

ع : اجل مولاي ولكن لن تعيش بعدي ثلاثة أيام !

من أسطورة اختفاء وظهور الاله تيليبينو الحثية*

(في موجة الغضب اختفى الاله تيليبينو)

..... غصت الدار بالدخان

وخرج الدخان من النوافذ

خبا الجمر في الموقد

واختفت الارباب فوق عروشها

واختفت الغنم والابقار في الزرائب

وتنكرت البقرة للمعجل

ذهب تيليبينو

وذهب معه القمح والنمو والتسرع

كانت المروج والحقول كالمستنقع

ذهب تيليبينو واختفى في المستنقع

وصار المستنقع يجمع بالاعشاب والطحالب

فلم يعد القمح ينمو ولا الشعير يربو

* ليانا جاكوب روست ، صلوات وحكايات واساطير حثية ، ترجمة قاسم طويس
دمشق ١٩٨٦ ، ص ٣٠ وما يليها .

ولم تعد البقرات تجبل ولا الغنم تلد
 توقفت النساء عن الحمل ، والحبلى منهن لم تعد تلد
 الجبال جفت والأشجار يبست ، ولم يبت فرع جديد
 المروج ذبلت والينابيع تبخرت
 فانتشرت المجاعة في البلاد
 أقام إله الشمس الكبير حفلا دعا إليه ألف إله •
 أكلوا ولم يشبعوا ، شربوا ولم يرتووا
 تذكر إله الطقس ابنه تيليينو وقال لنفسه :
 ولدي تيليينو نيس بين الحضور ، لقد رحل غاضبا
 وحمل معه الخيرات كلها •
 شرع الأرباب ، الكبار منهم والصغار ، في البحث عن تيليينو في كل مكان •
 أرسل إله الشمس النسر السريع وأوصاه :
 « انطلق ، وابحث في أعالي الجبال وأعماق ألوديان وفي باطن الأمواج »
 ذهب النسر وعاد من غير أن يجد أثرا لتيليينو ،
 وقال لإله الشمس : « لم أعر على تيليينو ، إله الجبار » •
 استشار إله الطقس الربة نيننو وقال : ما عسانا فاعلسين ؟ فالمجاعة ستقضي علينا
 لا محالة •
 قالت ربة الأمومة الكبرى لإله الطقس :
 « تحرك وافعل شيئا يا إله الطقس ، انطلق وابحث عن تيليينو بنفسك » •
 انطلق إله الطقس باحثا عن تيليينو

ووصل باب مدينته ، لكنه لم يستطع فتحه

فحطم القفل بالمطرقة

دخل إله الطقس واستقر هناك

ثم استرخى وتسد

أرسلت ربة الامومة الكبرى نحلة وقالت لها :

« اذهبي وابحثي عن تيليينو ، وعندما تعثرين عليه اشبعي يديه وقدميه وخزا الى أن يستيقظ . »

خذي الشمع وامسحي جسمه ، اجعليه نقيا وطاهرا ثم احضريه الي » .

قال إله الطقس لربة الامومة الكبرى : « اذا كانت الارباب ، الكبار منها والصغار ،

قد ذهبت للبحث عن تيليينو ولم تجد له أثرا فكيف ستعثر عليه هذه النحلة . ان

أجنحتها ضعيفة وجسمها هزيل . انها لمهمة ميته » .

ردت ربة الامومة الكبرى على إله الطقس قائلة :

« كفاك ، بل انها ستذهب وتعثر عليه ! » .

طارت النحلة وبدأت البحث عن تيليينو .

فتشت في الجبال العالية وفي الاودية الهاوية وفي الامواج المتتالية .

نفذ العسل في بطنها ، والشمع وصل النهاية .

عندئذ وجدته ممدا فوق مرج في باطن حرش من أحراش مدينة ليحزينا .

وخزت يديه ، ثم قدميه فاستيقظ ثم نهض .

(هاج تيليينو وملاج ، ومن شدة الغضب والانزعاج ، زاد الدنيا خرابا على خرابه ،

فحول مجرى الانهر ودمر منازل وقتل كائنات . وفي نهاية المطاف حاولت البشر

والارباب تهدئة خواطر تيليينو بإقامة الشعائر وترديد الصلوات) .

(سرد لعناصر الاضاحي والقرايين)

... انظر ، هيأنا لك تينة ؛ فلتكن قسك يا تيليينو حلوة مثل حلاوة التين وكما
الزيت في قاب الزيتون ، وكما الخمر في قلب العنقود ليكن الخير كل الخير في قلبك
وفي روحك يا تيليينو .

هيأنا لك ... لشدهن بها نفس تيليينو

وكما يلتحم الشعير مع الخشيرة لتتحد روحك يا تيليينو مع مصالح الناس والبشر ،
وكما رشيم القمح نقي لتكن روحك نقية يا تيليينو .

وكما العسل حلو والزبدة طرية ، لتكن روحك يا تيليينو حلوة وطرية .

انظر يا تيليينو كيف فرشنا طريقك بالزيت الصافي

سر يا تيليينو على هذه الطريق المفروشة بالزيت الصافي

وانتكن جاهزا ...

مراجع الكتاب

١ - العربية :

- ١ - ابراهيم ، نجيب ميخائيل ، مصر والشرق الادنى القديم ، ستة اجزاء ، القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٦٧ .
- ٢ - باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، الجزء الاول ، بغداد ١٩٧٣ .
- ٣ - توينبي ، ارنولد ، مختصر دراسة التاريخ ، ترجمة فؤاد محمد شبل ، راجعه محمد شفيق غربال .
- ٤ - حاطوم وعادل وطربين ومدني ، موجز في تاريخ الحضارة ، دمشق ١٩٦٤ .
- ٥ - حداد ، جورج ، المدخل الى تاريخ الحضارة ، دمشق ١٩٥٨ .
- ٦ - عصفور ، ابو المحاسن ، معالم تاريخ الشرق الادنى القديم من اقدم العصور الى مجيء الاسكندر ، بيروت ١٩٨١ .
- ٧ - فخري ، احمد ، مصر الفرعونية . القاهرة ١٩٧١ .
- ٨ - فخري ، احمد ، دراسات في تاريخ الشرق القديم ، القاهرة ١٩٦٣ .
- ٩ - فرانكفورت ، هنري ، فجر الحضارة في الشرق الادنى ، ترجمة ميخائيل خوري ، بيروت ١٩٥٩ .
- ١٠ - فرزات ، محمد حرب ، مدخل الى تاريخ فارس وحضاراتها قبل الاسلام . دمشق ١٩٨٩ .

- ١١ - فرزات ، محمد حرب ، محاضرات في تاريخ الشرق الادنى القديم ، مصر القديمة وحضارتها ، دمشق ١٩٨١ .
- ١٢ - فرزات ، محمد حرب ، ومرعي ، عيد ، دول وحضارات في المشرق المصري القديم ، دمشق ١٩٩٠ .
- ١٣ - لويون ، غوستاف ، حضارات الهند .
- ١٤ - محسن ، سلطان ، عصور ما قبل التاريخ ، دمشق ١٩٨٦ .
- ١٥ - مرعي ، عيد ، التاريخ القديم ، دمشق ١٩٩٠ .
- ١٦ - مرعي ، عيد ، تاريخ بلاد الرافدين منذ اقدم العصور حتى عام ٥٣٩ ق.م دمشق ١٩٩١ .
- ١٧ - مرعي ، عيد ، فيلون الجبيلي ، دمشق ١٩٩٣ .
- ١٨ - موسكاني ، سبتينو ، الحضارات السامية القديمة ، ترجمة د. يعقوب بكو القاهرة .

ب - الأجنبية :

- 1 — Deshayes, J., Les civilisations de l'orient Ancient, Paris 1969.
- 2 — Haussig, H.W., (Herausgeber), Wörterbuch der Mythologie, Band 1, Götter und Mythen im Vorderen orient, Stuttgart 1965.
- 3 — Kramer, S.N., The Sumerians, Chicago 1960.
- 4 — Mellaart, J., The Earliest civilization of the Near East, London 1965.
- 5 — Raux, G., Ancient Iraq, Secand Edition, London 1980.
- 6 — Schmökel, H., Kullurgeschichte des Alten Orient, Stuttgart 1961.
- 7 — Weltgeschichte, Die Geschichte unserer zivilisation, Klagenfurt 1986.

